تاريخ دمشق

في عهد السلطان العثماني عبد الحميد



تاريخ دمشق

في عهد السلطان العثماني عبد الحميد

تأليف

سهام محمد هنداوي

تاريخ دمشق في عهد السلطان العثماني عبد الحميد

تأليف: سهام محمد هنداوي

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٢٧٠٦٠

فاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا



مقدمة

تعد الدراسات السياسية أساس الدراسات الاجتماعية والاقتصادية كونها توضح المنهج الإداري للدولة والنمط السياسي الذي تحيا وتقوم عليه هذه الدولة، وما التاريخ إلا تسجيل للأحداث البارزة المهمة في تاريخ البشرية فقد اهتمت كتب التاريخ منذ نشأة هذا العلم بتدوين ما يجري من حروب وصراعات وتعاقب ملوك وأمراء في كل دولة وحضارة.

وعلى الرغم من توجه الدراسات التاريخية الحديثة نحو الاهتمام بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية فإنه لا غنى لهذه الدراسات من أن تنظر إلى هذه الجوانب من منظور سياسي.

ونظرًا لأهمية مدينة دمشق الاستراتيجية والاقتصادية والثقافية، فقد حظيت عبر تاريخها الطويل بقدر كبير من الدراسة والبحث.

وليست هذه الدراسة إلا محاولة بسيطة لتسليط الضوء على بعض النقاط التي لم تُبحث على نحو واسع من قبل تاريخها الحديث.

فقد دخل العثمانيون دمشق إثر انتصارهم في معركة مرج دابق سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) على المماليك وبذلك أصبحت دمشق المركز الرئيسي لولاية الشام بشكل خاص وبرها بشكل عام. وقد حظيت هذه الولاية بأهمية خاصة من الدولة العثمانية ومن سلاطينها عبر تاريخ سيطرتهم الطويلة على الشام والوطن العربي، وذلك لقربها من مركز الآستانة ولأنها كانت أهم محطة على طريق قافلة الحج الشامي. وملتقى القوافل والطرق التجارية القادمة من جميع أنحاء الإمبراطورية

العثمانية. فقد تمتعت دمشق بوفرة هائلة من الأسواق التي حوت على أنواع متعددة من البضائع وزاد من أهميتها فتح طريق سكة الحديد الحجازي الذي سعى السلطان عبد الحميد الثاني من خلاله إلى ربط مقدرات هذه المدينة بأنحاء إمبراطوريته.

ومع بداية القرن التاسع عشر طرأت تغيرات كبيرة أثرت في الدولة العثمانية وسياستيها الخارجية والداخلية، وكان من أهم هذه التغيرات نمو الفكر القومي في أوربة والذي اتخذته الدول الأوربية العظمى ذريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية وساهمت من خلاله في تفكيك وتجزئة هذه الإمبراطورية، فلم يأت القرن العشرون إلا وكانت أجزاء كثيرة من المناطق الخاضعة للسيطرة العثمانية قد أعلنت انفصالها واستقلالها عن جسد الدولة بحجة دعواها القومية ورغبتها في تشكيل كيان مستقل عن الإمبراطورية العثمانية.

ولم تكن ولاية دمشق بمعزل عن هذه الفكرة، فقد كانت مركزًا هامًا لنمو الفكر العربي القومي الذي حملته ثلة من رجالات دمشق وبر الشام. وكان الصراع مريرًا بين السلطة وهذه الفئة المستنيرة المثقفة بثقافة الغرب والحالمة بحكم مستقل بعيدًا عن سلطة الولاة والسلاطين.

والسؤال الذي يعرض، والأمة العربية تمر بأخطر مراحل عروبتها ومصداقيتها، هو ما مدى مصداقية فكرة العروبة التي سعى أوائل الأحرار العرب إلى تبنيها والنضال من أجلها ودفعوا أرواحهم ثمنًا لها، ومن أجل الاستقلال والتحرر عن الدولة العثمانية؟

فبعد مرور ما يقارب القرن من الاستقلال والتحرر عن كيان الإمبراطورية العثمانية والتي كان يتصور الكثيرون أنها بفرضها سيطرتها على البلاد العربية ومقدراتها قد منعتها من إبراز شخصيتها القومية الحقيقية، ومن أن يكون لهذه الأمة اليد الطولى في تقرير مصيرها وتسيير مقدراتها، كذلك يمكن أن نتساءل ما هي الثمرات والمكاسب التي جنتها الأمة العربية بعد هذا الاستقلال؟ ربما عندما كانت فرحة الاستقلال قريبة شعر الشعب العربي بنشوة النصر والنجاح ولكن بعد أن صحت من حلمها أدركت حقيقة الواقع المرير الذي تعيشه، فأقطار عربية مجزأة وبلاد محتلة وحروب وصراعات حدودية مستمرة وعدو متربص بهذه الأمة يحتل بلدًا

بعد الآخر.

ففي البدء كانت فلسطين ثم العراق ولن ندري على من يأتي الدور الآن، فهل هذا هو الحلم الذي استشهد من أجله أحرار السادس من أيار؟ وهل هذا هو الحلم الذي من أجله دفع كثير من المفكرين العرب الأوائل دماءهم وأرواحهم ثمنًا له؟!.

ونتساءل مرة أخرى هل كان الخطأ في البداية، أم في التطبيق؟ هل نحن الذين ضيعنا الطريق؟ وهل جيلنا أو الأجيال التي سبقتنا تتحمل مسؤولية ما وصلنا إليه؟

وانطلاقًا من هذا حاولت جاهدة أن أبحث في أمهات الكتب والمصادر والمراجع لعلني أجد ما يشفي صدري أو يجيب عن تساؤلاتي، ولكن هيهات فكتب التاريخ كثيرًا ما تبخل علينا بالحقيقة، وما سبب ذلك إلا لأن التاريخ يكتبه الأقوياء، أقر بعجزي وعدم قدرتي على الوصول إلى أجوبة مرضية، وربما تستطيع الأجيال القادمة أن تجيب عن هذه التساؤلات فقد يكشف التاريخ بمجرياته وأحداثه عن خبايا لم تكن قد بينتها كتبه.

وأما بالنسبة للصعوبات فلم تكن هناك صعوبة كبيرة في الحصول على المصادر والمراجع الخاصة بدراسة هذه المرحلة فهناك سجلات المحاكم الشرعية في دار الوثائق بدمشق، وكذلك السالنامات الموزعة ما بين دار الوثائق ومكتبة الأسد والمكتبة الظاهرية، وأما المراجع فهي كثيرة عن تاريخ الدولة العثمانية وعن دمشق، ولكن احتاج مني الأمر فقط إلى استخلاص المعلومات الخاصة بمدينة دمشق في المرحلة الحميدية.

وقمت بتقسيم البحث إلى ثلاثة فصول مع مقدمة وخاتمة له:

أما **الفصل الأول**: فقد عالجت فيه الحياة السياسية في مدينة دمشق في الفترة المذكورة، فتحدثت فيه عن واليين يعدان من أعظم الولاة الأربعة عشر الذين تعاقبوا على مدينة دمشق في الفترة الحميدية، وهما مدحت باشا وناظم باشا، فالأول عمل جاهدًا على رفع الحالة العلمية والاجتماعية لمدينة دمشق، وبنى فيها الكثير من المعالم التي لا تزال تشهد له حتى أيامنا هذه، وأعظم ما خلفه هو صياغة الدستور العثماني وهو أول دستور وضع للبلاد، أما الوالي ناظم باشا ففضله كان كبيرًا في الناحية العمرانية، فقد تم في عهده الكثير من الإنجازات منها على سبيل الذكر لا

الحصر: مد الخط الحديدي الحجازي، والبرق، وإنشاء المدارس العليا والكليات وترميم الجامع الأموي وبناء حي المهاجرين.

ثم انتقلت في هذا الفصل للحديث عن أهم الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية منذ تسلم السلطان عبد الحميد الثاني للحكم وهي: الحرب الروسية العثمانية والحرب اليونانية العثمانية، وكذلك كان الحديث في هذا الفصل عن الحياة الدستورية والمجالس النيابية في الدولة العثمانية ونصيب مدينة دمشق منها، ثم كانت الفقرة التالية عن الثورات والفتن التي حدثت في دمشق في تلك المرحلة، ثم ختمت الفصل بالحديث عن الأحزاب السياسية التي ظهرت في تلك المرحلة.

أما **الفصل الثاني**: فقد أفردته للحديث عن الحياة الدينية في دمشق وما أدراك ما الحياة الدينية في دمشق، فدمشق هي "شام شريف" كما أسماها العثمانيون، من هنا كان الحديث في هذا الفصل عن الطرق الصوفية، وكيفية رعاية السلطان عبد الحميد الثاني الشخصية لهذه الطرق واهتمامه بها وبرؤسائها، كما تحدثت في هذا الفصل عن الزوايا والتكايا ومقامات الأولياء والصالحين وقبورهم الموجودة في دمشق. حيث أولت الدولة العثمانية عناية خاصة لهذه المقامات، فكثير من قببها ومشيداتها أنشئت بإشراف الولاة العثمانيين في تلك المرحلة.

ثم أفردت فقرة للحديث عن المسيحيين واليهود وعاداتهم وسكناهم في دمشق.

أما **الفصل الثالث والأخير**: فخصص للحديث عن الحياة الإدارية لدمشق في الفترة الحميدية، حيث تمت دراسة الجهاز الإداري بتفصيلاته من الوالي إلى المكتوبجي فالدفتردار والقاضي ووظائف أخرى عُرفت حسب الدستور العثماني في دمشق.

وسردت في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل أسماء الولاة الأربعة عشر الذين تسلموا ولاية دمشق في أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

وختمت كل فصل بخاتمة حوت خلاصة ما تضمنه هذا الفصل. وانتهى البحث بخاتمة حاولت أن ألخص فيها أهم النتائج التي أعتقد أني وصلت إليها.

وهذا جهد فإن قصرت فما أنا إلا كقول الشاعر[1].

والصلاة والسلام على رسول الله.

وختامًا، فإنني أتوجه بالشكر إلى من مدَّ لي يد المساعدة أو أسهم في تصويب بحثي وإرشادي إلى الطريق الناجحة، ولا يفوتني التوجه إلى قسم التاريخ بكادره التدريسي والتعليمي والإداري لما قدموه لي من مساعدات لولاها ما كنت قد حققت ما حققت، فلهم مني الاعتراف بالجميل والعرفان بفضلهم، كذلك فإنني أتوجه بالشكر الجزيل إلى مكتبة الأسد والعاملين بها، وإلى مديرية الوثائق بدمشق على تقديمهم الخدمات لي ولزملائي الباحثين. وإنني لأرجو الله أن يأخذ بيدي وزملائي لخدمة سورية العروبة، سورية قلعة الصمود والتصدي.

إن الله على كل شيء قدير

سهام

---

(١) قول الشاعر:

أسـير تحـت ركـاب النجـب ذا عـوج ... مـؤملاً جـبر مـا لقيـت مـن عـوج

فـإن لحقـت ـم مـن بعـدما سـبقوا ... فكم لـدرب الـورى في النـاس مـن فـرج

وإن ظللـ ـت بقـ ـاع الأرض منقطعـ ـا ... فمـا علـى أعـوج في النـاس مـن حـرج



دراسة نقدية
لأهم المصادر التي اعتمدت عليها

اعتمدت في بحثي هذا على العديد من المصادر والمراجع كما هي العادة، وقد وثقت تلك الكتب بشكل كامل عندما يرد الكتاب للمرة الأولى، وأثبت ذلك في هوامش البحث. وكان التوثيق على الشكل التالي: أبدأ أولاً بذكر كنية المؤلف وأتبعها باسمه، ثم اسم الكتاب وعدد الأجزاء – إن كان الكتاب مؤلفًا من أكثر من جزء – ثم أذكر اسم المترجم – إن كان المؤلَف مترجمًا – واسم المحقق – إن كان محققًا – وبعد ذلك أثبت اسم المدينة التي طبع فيها، ثم اسم الناشر والطبعة وتاريخها.

هذا فيما يخص الكتب المطبوعة، أما سجلات ووثائق المحكمة الشرعية فقد ذكرتها على الشكل التالي: رقم السجل، ثم رقم الوثيقة والصفحة وبينت تاريخها الهجري والميلادي، وأما الدستور العثماني فقد ذُكر على الشكل التالي: (نوفل، نعمة الله نوفل، الدستور العثماني، مج [ ]، المادة [ ]، ص [ ]) مع ملاحظة أني ذكرته في المرة الأولى كاملاً، كباقي المصادر، وقد ذكرت السالنامات على الشكل التالي: (سالنامة ولاية حلب، [التاريخ الهجري/الميلادي]، ص [ ]).

وفيما يلي ذكر لأهم المؤلفات التي اعتمدت عليها في بحثي وأَفَدتُ منها:

١- سجلات وثائق المحاكم الشرعية بدمشق:

عند دراستي لهذه السجلات والتي تعود إلى أواخر القرن التاسع عشر الميلادي والموجودة في دار الوثائق بدمشق، وجدت أن هذه السجلات مختلفة الحجم، وأما الورق الذي كتبت عليه الوثائق فهو ورق أبيض مائل إلى الصفرة وفي حالة سيئة نوعًا ما. وقد وجدت في بعض السجلات التي أطلعت عليها بقعاً بنية اللون من أثر الرطوبة وسوء الحفظ، وقد استُخدم في كتابة هذه الوثائق حبر أسود قاتم.

وفيما يتعلق بالشكل نجد أنه تُرِك في أعلى كل صفحة فراغ أبيض لوضع تأشيرات وأختام القضاة، وخصص الهامش الأيمن للوثيقة لوضع تأشيرات الشهود إذا كانت الوثائق تتعلق بالدعاوى. وأما الهامش الأيسر فقد كان ضيقًا نوعًا ما. وسطور الوثيقة غير منسقة وغير منتظمة ولا سيما المسافات بين السطور، بالإضافة إلى ذلك دونت أكثر من وثيقة في الصفحة الواحدة.

وقد كتبت هذه الوثائق بالخط الرقعي أو الديواني المستخدم في كتابة السجلات العثمانية، وهو غير واضح لوجود بعض الكلمات المشوشة من أثر مسح الحبر نتيجة استخدام الوثيقة قبل جفاف الحبر.

وبعد دراستي لنماذج هذه الوثائق وجدت أنها عالجت موضوعات كثيرة تتعلق بالأوضاع الاقتصادية لأهالي مدينة دمشق والمناطق التابعة لها. وذلك من خلال القضايا التي تتعلق بعمليات البيع والشراء، ودعاوى الطلاق والوصاية والإرث والنفقة والخصومات التي نشأت بين أفراد المجتمع الدمشقي، بالإضافة إلى الوثائق المتعلقة بالتركات والوقف وتعيين الموظفين وفرمانات تعيين الولاة والقضاة. وبذلك فقد شملت هذه الوثائق كل مناحي الحياة عند أهالي مجتمع مدينة دمشق.

وبهذا كانت هذه الوثائق والسجلات عونًا كبيرًا لي في البحث وخاصة فيما يتعلق بالفصل الثاني والدلالات والاستنتاجات التي حاولت استخلاصها من هذه السجلات حول الوضع الاجتماعي والوظائف والحياة اليومية في دمشق.

٢- الدستور العثماني:

وهو مجموعة من الأنظمة والقوانين التي أصدرتها الدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى سنة (١٣٠١هـ/١٨٨٣م) تحت اسم (دولة علية عثمانية) وقام بترجمته: نوفل نعمة الله نوفل باشكاتب خزينة طرابلس سنة (١٨٥٠م)، راجعه ودققه: خليل أفندي الخوري مدير مطبوعات ولاية سورية، وتم طبعه برخصة من نظارة المعارف الجليلة بالمطبعة الأدبية في بيروت سنة (١٣٠١هـ/١٨٨٣م).

وتألفت هذه القوانين والأنظمة التي أطلق عليها اسم (الدستور العثماني) في مجلدين وعدد صفحاته ١٤٦٣ صفحة.

تناول المجلد الأول: الخط الهيمايوني الصادر سنة ١٨٥٦م، وقانون الأراضي، وديوان المحاكم العدلية، وقانون التجارة البري والبحري، ونظام محاكمة المأمورين ونظام تشكيلات الولاية والإدارة الملكية للولاية واللواء والقضاء والقرى.

قانون إدارة الولايات العمومي المعلن عنه في ٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧١م، والذي بموجبه تم تعيين وظائف المأمورين، والمجالس الإدارية والعمومية والبلدية وإدارة النواحي، وكافة الأنظمة المتعلقة بالقناصل ونظام أصول المحكمة التجارية. وعدد صفحات هذا المجلد ٥٨٠ صفحة.

وأما المجلد الثاني فقد بحث في القوانين التي تتعلق بالأمور المالية والوقفية والمعارف والنافعة والبلدية والرسومات، بالإضافة إلى الأنظمة التي تتعلق بإعفاء القناصل ووكلائهم من رسوم الجمرك، وتناول أيضًا الأنظمة التي تتعلق بإدارة الضابطة والعساكر في الولايات، والأنظمة المتعلقة بالبحرية، وضم متفرقات حول نظام بطاركة الملل الموجودة في الدولة العثمانية، ويتألف هذا المجلد من ٨٨٣ صفحة.

ومترجم الدستور العثماني هو نوفل نعمة الله نوفل المولود في طرابلس الشام سنة ١٨١٢م الذي شغل عدة وظائف؛ وظيفة مأمور محاسبة لواء طرابلس وقضاء اللاذقية لمدة سبع سنين، وبعد ذلك تقلب في الوظائف الحكومية حتى سنة ١٨٦٢م، ثم عاد إلى مسقط رأسه، وعين ترجمانًا لقنصلية ألمانيا وبعدها أمريكا، تفرغ للتأليف والمطالعة والبحث حتى سنة ١٨٨٧م.

وكان له الكثير من المقالات في المجلات المعاصرة، ومن كتبه المطبوعة كتاب الدولة العليا العثمانية الذي سماه (الدستور العثماني) وهو مؤلف من جزأين وكافأته الدولة على ترجمته بثلاثمئة ليرة عثمانية، وبالإضافة إلى مجموعة من الكتب المترجمة والمؤلفة والتي تزيد على خمسة مؤلفات[1].

ولقد أغنى الدستور بحثي في الفصل الإداري بشكل كبير، فكان الاعتماد الرئيسي على القوانين الواردة فيه بما يخص نظام الولايات.

---

(١) زيدان، جرجي، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، ج٢، منشورات مكتبة الحياة بيروت، د.ت، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

٣- السالنامات العثمانية الخاصة بولاية الشام:

كلمة (سالنامة) فارسية الأصل، مركبة من كلمتين (سال) وتعني سنة، و(نامة) وتعني ورقة، فهي إذن الورقة السنوية، وهي كتاب يصدر في آخر كل سنة يشتمل على إحصائيات الولاية المالية، وعلى أسماء ولاتها وموظفيها، وعلى بعض الشؤون التاريخية والسياسية للمدينة قديماً وحديثاً والتي تتعلق بمركز الولاية والألوية التابعة لها.

وكان أول صدورها في دمشق سنة (١٢٨٤هـ/١٨٦٨م) وتوزعت نسخ سالنامات دمشق مابين دار الوثائق بدمشق والمكتبة الظاهرية ومكتبة الأسد، وتعرفنا من خلالها على تسلسل الجهاز الإداري لمدينة دمشق من حاكم الولاية (الوالي) إلى آخر موظف في الولاية، بالإضافة إلى تحديد سنوات إنشاء بعض الدوائر الهامة في الولاية.

٤- كتاب منتخبات التواريخ لدمشق:

وهو من أهم الكتب التي درست تاريخ دمشق منذ قيامها حتى دخول الفرنسيين، والمؤلف هو محمد أديب آل تقي الدين الحصني الهاشمي من أهالي دمشق، والكتاب هو جمع للمعلومات والحوادث التاريخية الخاصة بدمشق التي ذكرت في الكتب التاريخية القديمة، وخاصة في كتاب ابن عساكر وتألف الكتاب من ثلاثة مجلدات:

الأول: تحدث فيها عن إعمار دمشق وزمنه وسبب التسمية، والأمم التي تعاقبت عليها ثم تاريخها القديم ومن ولي عليها قبل دخول الإسلام إليها ثم الفتح وتعاقب الحكم الراشدي فالأموي الذي أعطاه شيئاً من التفصيل ثم العباسي وبعدها دخول العثمانيين إلى الشام وحالتها في عهدهم حتى خروجهم منها ودخول الفرنسيين، كما عالج في هذا الفصل الحالة العلمية والثقافية لدمشق في فترة العثمانيين، ثم قيام الثورة العربية الكبرى وحكومة فيصل وبعدها دخول الفرنسيين لها.

وأفرد فصلاً للحديث عن الأوقاف في دمشق، وذكر فضائل مدينة دمشق وما يحدث فيها في آخر الزمان، وأورد أيضاً ذكراً للأنبياء والأولياء والصالحين الذين دفنوا في دمشق.

أما **الجزء الثاني:** فهو باب اختص بفضائل دمشق وذكر من نشأ في هذه المدينة

من مشاهير عبر التاريخ وتراجم لرجالات دمشق المشهورين في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر الهجري، ثم عالج قضايا فقهية في هذا القسم منها قضية التصوير والقضاء في الإسلام.

ثم كان هناك فصل تحدث فيه عن الأسر الدمشقية المشهورة وأهم رجالاتها، كما ذكر مشاهير كلٍ من بغداد والبصرة والموصل وحلب وحماه وحمص.

أما **الجزء الثالث**: فتحدث فيه عن الجوامع والمساجد الموجودة في دمشق وآثار دمشق القديمة ومنتزهاتها وأنهارها ثم كان الختام بذكر الأشعار التي قيلت في دمشق.

وكان الكتاب مهمًا جدًا لبحثي وخاصة في الفصل الأول والثاني حيث كان من المصادر الأكثر إفادة للبحث في هذا المجال.

٥- كتاب مرآة الشام:

وهو من الكتب الهامة التي اعتمدت عليها في بحثي، والكتاب من تأليف عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن العظمة، وهو من سكان الشاغور في دمشق ولد سنة (١٨٥٦م) وهو الأخ الأكبر لشهيد ميسلون يوسف العظمة وبهذا فالمؤلف من معاصري المرحلة المدروسة ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب. وقام بتحقيق الكتاب نجدت فتحي صفوت، والكتاب يتضمن في **القسم الأول** منه دراسة كاملة عن مدينة دمشق وسبب تسميتها وتقسيماتها وأسواقها والعادات والتقاليد فيها وكذلك خصص فصلاً للحالة العلمية للمدينة في تلك المرحلة.

أما **القسم الثاني**: فقد أفرده المؤلف للحديث عن الشام في عهد التدخل الأجنبي وعهد التنظيمات العثمانية، كما أفرد فصلاً للحديث عن المراحل الأخيرة لحياة الإمبراطورية العثمانية، ثم تحدث في فصل آخر عن الثورة العربية الكبرى وما تلاها من قيام الحكومة العربية في دمشق ودخول الفرنسيين واحتلالهم لها.

وقد أغنى الكتاب بحثي خاصة في الفصل الأول بما يختص بالحياة السياسية في دمشق في تلك المرحلة.

٦- كتاب تاريخ الدولة العثمانية العلية:

ويعتبر هذا الكتاب، من أهم الكتب التاريخية التي تحدثت عن الدولة العثمانية منذ النشأة حتى الانهيار، والمؤلف هو الأستاذ محمد فريد بك المحامي، ويعتبر المؤلف معاصرًا أيضًا للمرحلة المدروسة، ولكن الكتاب بنسخته الأصلية فيه الكثير النواقص والأخطاء، ولذلك اعتمدنا على النسخة المحققة منه والتي أصدرتها دار النفائس حيث قام بتحقيقها أستاذ التاريخ المعروف "إحسان حقي" والذي أضاف لهذا الكتاب الخرائط والمصورات اللازمة وقام بتصحيح الأخطاء الواردة فيه، فخرج المؤلف بحوالي ٨٢٥ صفحة، تضمنت في البداية مقدمة تاريخية عن الخلافة الإسلامية ثم أتبعها بسرد أسماء السلاطين العثمانيين منذ التأسيس حتى السقوط مع ذكر ترجمة لكل سلطان وأهم الأحداث التي جرت في عهد كل سلطان، وناقش الكتاب أهم هذه الأحداث ومنعكساتها على الدولة العثمانية. وطبعاً كان الجزء الهام بالنسبة لبحثي هو ما اختص بحياة السلطان عبد الحميد الثاني حيث فصل المؤلف في ذكر الأحداث السياسية التي جرت في عهده. وأُلحق الكتاب بملاحق أضافها المحقق ذكر فيها خاتمة عن الدولة العثمانية وعن أسباب انهيارها وتساؤلات كثيرة أخرى حاول المحقق الإجابة عنها.

٧- كتاب تاريخ الدولة العثمانية:

بقلم أمير البيان والمجاهد الأمير شكيب أرسلان، تحقيق: حسن السماحي سويدان، والمؤلف عاصر أربعة سلاطين عثمانيين وشغل عدة مناصب في عهد الدولة العثمانية منها نائب في مجلس المبعوثان في استانبول، وهذا الأمر أتاح له فرصة التعرف على رجالات السياسة في العاصمة العثمانية، وشارك في الأحداث الهامة التي جرت في تلك المرحلة وأهمها حرب البلقان والحرب العالمية الأولى، والمؤلف كان ذا نظرة تحليلية خاصة للتاريخ وكان متقناً لعدة لغات أجنبية فزاد هذا الأمر من أهمية مؤلفه.

لم يترك المؤلف كتابًا بعينه بعنوان "تاريخ الدولة العثمانية" وإنما تحدث عنها في ثلاثة كتب:

١- في ملحق الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون ويستغرق ما كتبه هناك من

ص (٢٣-٤٠٤) من هذا الكتاب، حيث بدأ بمقدمة عن الترك: موطنهم، تاريخهم القديم، دخول الإسلام لبلادهم، وتأسيس المملكة الأولى لهم وهي الدولة السلجوقية ثم أتبعه بالحديث عن الدولة العثمانية ودراسة تاريخها عبر سرد سير سلاطينها منذ النشأة حتى الحرب العالمية الأولى.

٢- ثم المؤلف الآخر "شكيب أرسلان بقلمه:" وفيه تحدث عن الحرب العالمية الأولى وآثارها في المنطقة (بلاد الشام)، وشرح فيها سياسة جمال باشا السفاح الخرقاء، والتي كان لها الأثر الأكبر في انهيار الدولة العثمانية حسب رأيه.

٣- كتاب "حاضر العالم الإسلامي" وهو عبارة عن مجلدين، حيث تحدث في بعض مواضيعه عن مسائل تتعلق بالدولة.

وقد قام المحقق بجمع ما كتبه المؤلف عن الدولة العثمانية ورتبه بالشكل الذي أخرجته لنا دار ابن كثير وزاد عليه المحقق بعض الصور والخرائط الهامة وبعض الملاحق الأخرى.

بالإضافة إلى ما تقدم هناك بعض المصادر التي اعتمدت عليها مثل: خطط الشام لمؤلفه محمد كرد علي والمكون من ستة أجزاء، وكتاب يوسف نعيسة مجتمع مدينة دمشق (جزءان) وأفادني كثيرًا في الفصل الثاني وخاصة فيما يتعلق بالطرق الصوفية وكذلك مصدر آخر مهم وهو كتاب (سوريا والدولة العثمانية) لمؤلفه: يوسف الحكيم. ومراجع كثيرة مثل: تاريخ الدولة العثمانية (محمد الصلابي) وكذلك كتاب اليهود السوريون (سمير عبده)، وكذلك بعض الدوريات القديمة والحديثة التي كانت عونًا في إنجاز هذا البحث.

الفصل الأول
الحياة السياسية في دمشق
في ظل الإدارة الحميدية

أولاً: ولاية مدحت باشا:

- أهم أعماله

ثانياً – ولاية ناظم باشا:

- أهم أعماله

ثالثاً: الامتيازات الأجنبية والمعاهدات التجارية:

١. الامتيازات الفرنسية.
٢. الامتيازات الإنكليزية.
٣. الامتيازات الألمانية.
٤. أشهر امتيازات الخطوط الحديدية في دمشق بين عامي (١٨٧٦-١٩٠٩م)

رابعاً: الحرب الروسية العثمانية (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م):

أ- مشكلة الصرب والجبل الأسود.

ب- إعلان الحرب وأهم مجرياتها:

- أهم أحداث الحرب.
- معاهدة سان استفانو (٣ آذار ١٨٧٨م).

خامساً: الحرب اليونانية العثمانية (١٣١٤هـ-١٨٩٧م):

- أهم أحداث الحرب.

سادساً: مجلس المبعوثان:

- الدستور:

أ- الدستور القديم.

ب- الدستور الجديد (القانون الأساسي).

- المجلس العمومي:

أ- تأليف مجلس الأعيان.

ب- تأليف مجلس المبعوثان.

سابعاً: أهم الثورات والحركات القومية في تلك المرحلة:

أ- فتنة الأرمن.

ب- إرهاصات وأحداث الفتنة.

ج- المذابح الأرمنية في العهد الحميدي: أشهر هذه المذابح.

د- ثورة الموحدين.

ثامناً: الأحزاب السياسية التي ظهرت في تلك المرحلة:

أ- جمعية الاتحاد والترقي: أهدافها، وبرنامجها السياسي.

ب- جمعية الإخاء العربي العثماني: أهدافها.

ج- جمعية بيروت السرية: أهدافها.

أولاً: ولاية مدحت باشا(★):

بلغ عدد الولاة الذين تعاقبوا على ولاية الشام فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني، أربعة عشر والياً، على مدار ثلاثة وثلاثين عاماً من حكمه، ومنهم من أعيد توليته مرتين أو ثلاث خلال الفترة المذكورة. من أمثال الوالي ناظم باشا الذي ولي على الشام ثلاث مرات متفرقة (١٣١٣هـ/١٨٩٥م - ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م - ١٣٣٠هـ/١٩١١م)[1].

وكان لدمشق النصيب الأوفر من الولاة المصلحين الذين توافرت فيهم مزايا العدل وحسن الإدارة، والترفع عن الأغراض والمطامع الشخصية، وأشهرهم في هذا المجال الوالي مدحت باشا الملقب (أبو الأحرار).

تولى مدحت باشا ولاية سورية سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، وكان قد سبق له تسلم منصب الصدارة العظمى في الدولة العثمانية لمرتين: المرة الأولى سنة (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م) في عهد السلطان عبد العزيز[2]، والمرة الثانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني سنة (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، حيث نجح في إعلان القانون الأساسي (الدستور العثماني) في العام نفسه، وقد كان له الدور الكبير في صياغته هو

(★) مدحت باشا (١٢٣٨-١٣٠١هـ = ١٨٢٢-١٨٨٣م): مدحت باشا (أو أحمد مدحت) بن حاجي حافظ أشرف أفندي أبو الأحرار، العثماني، ولد في اسطنبول وكان أبوه قاضيا، تقلب في الوظائف حتى كان والياً على الدانوب (الطونة). وقضى على ثورات البلغار هناك، ثم انتقل إلى الآستانة، رئيساً لمس شورى الدولة. وعين والياً على بغداد (١٢٨٦-١٢٨٨هـ = ١٨٦٩-١٨٧١م)، ودعي إلى الآستانة معزولاً، فما لبث أن تولى منصب الصدارة العظمى، وأصدر الدستور العثماني في أواخر (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م)، ولم تتفق وجهات النظر بينه وبين السلطان عبد الحميد الثاني في أمور سياسة الدولة، فجرد من الوزارة وضيق عليه، فسافر إلى أوربة واستقر مدة في لندن. إلى أن صدر أمر بتعيينه والياً على الشام، ونقل منها إلى أزمير، حيث اعتقل وحوكم بتهمة المشاركة في قتل السلطان عبد العزيز (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) وحكم عليه بالإعدام، ثم اكتفى السلطان بنفيه إلى قلعة الطائف في الحجاز، وفيها قتل بأمر من السلطان عبد الحميد الثاني بعد بضع سنوات. خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٩، ط١، ج٧، ص ١٩٥.

(١) المنجد، صلاح، ولاة مدينة دمشق في العهد العثماني، دمشق ١٩٤٩، ص ٩٤-٩٥.

(٢) البستاني، سليمان، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق: خالد زيادة، دار الطليعة، بيروت،١٩٧٨، ط١، ص ١٣١-١٣٥.

ومجموعة من الأحرار أمثاله في الدولة، وبه استحق لقب أبي الدستور والحريات[1]، ولكن ما لبث أن عزل عن هذا المنصب سنة (١٢٩٤هـ/١٨٧٧م)، وذلك لعدم التوافق بينه وبين السلطان عبد الحميد الثاني، وللظروف التي لحقت بتعطيل الدستور سنة (١٢٩٤هـ/١٨٧٧م) من مضايقات للأحرار والمفكرين الذين كان لهم الدور في صياغته وعلى رأسهم مدحت باشا، وأقيل الأخير من منصب الصدارة العظمى وتم إبعاده إلى أوربة وذلك بسبب انتشار إشاعة مفادها أن مدحت باشا يطمح بأن يكون رئيس جمهورية في البلاد، وهذا ما أثار مخاوف وقلق السلطان عبد الحميد الثاني فأمر بإبعاده ونفيه إلى أوربا في العام نفسه حيث انتهى به المقام في لندن فأقام فيها مدة من الزمن[2].

تخوف السلطان عبد الحميد الثاني من الترحيب الكبير الذي حظي به مدحت باشا في أوربا، فتظاهر بالعفو عنه والحاجة إلى خدماته، فاستدعاه إلى استانبول وقام بتعيينه والياً على الشام سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)، وقد سبقته شهرته إلى تلك البلاد، فهو الوالي المصلح الحازم صاحب فكرة الحرية والدستور، تلك الفكرة التي دفع من أجلها حياته واستحق بعد مماته عليها لقب أبي الأحرار[3].

وكان قد سبقه في هذا المنصب الوالي أحمد جودت باشا لمدة عام فقط، وأهم ما اشتهر به هو بث روح العلم الاختياري في المدارس، ولهذا فقد عد المؤسس لكثير من المدارس في دمشق مما شجع الأهالي على إرسال أبنائهم إلى المدارس في عهده[4].

(١) يحيى، جلال، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص ٢١٥-٢١٧.

(٢) مدحت باشا، مذكرات مدحت باشا، تعريب: يوسف كمال حتاتة، مصر، ١٩٠٦، ط١، ص ٢٩-٣٠.

(٣) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، بيروت، ١٩٨٠، ط٢، ص ٥٣.

(٤) الحصني، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات التواريخ لدمشق، قدم له: د.كمال سليمان الصليبي، ٣ أجزاء، ج١، بيروت، ١٩٧٩م، ط١، ص ٢٧١-٢٧٢.

أهم أعماله:

على الرغم من المدة القصيرة التي استلم فيها مدحت باشا ولاية الشام والتي لم تتجاوز العام من سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) حتى سنة (١٢٩٦هـ/١٨٧٩م)، فقد كان له الكثير من الأعمال الحميدة فيها[1].

فقد قام بتأسيس مكتب الصنائع وتأسيس دار عمومية للكتب وذلك خدمة للمعارف وتعميماً لنشرها في الولاية، وعن هذا المجال يقول في مذكراته: ((وأول ما وقع عليه نظري في تلك الولاية هو أن مسلميها قد فشى بينهم الجهل ما عدا العلماء، وكانت مدارس الإفرنج تتقدم كل يوم تقدمًا يلمس باليد وليس للحكومة سوى بعض المدارس الابتدائية يقرأ فيها الأحداث القرآن، فكنت أفكر في أمر تعليم أبناء المسلمين وإصلاح مدارسنا، فقدمت إصلاح المدارس على كل إصلاح وشكلت جمعية من العلماء وجمعت الإعانات من ذوي المروءة فأصلحت بها الجوامع وجعلتها مدارس للأحداث وأدخلت في كل مدرسة ١٥٠ تلميذًا أو ٢٠٠ تلميذ وقررت أن يجازى ولي الطفل إذا بلغ ولده السادسة ولم يرسله إلى المدرسة، وخصصت عدا الإعانة جزءًا من إيراد الأوقاف وعممت المدارس في الملحقات وكان أهالي الشام يميلون إلى بث روح التعليم فألفوا جمعية سموها (جمعية المقاصد الخيرية)، وانتشرت شعبها في أنحاء الولاية))[2].

قام بإنشاء سوق عظيم نسب إليه وهو سوق مدحت باشا المعروف باسمه حتى الآن، ووسع الكثير من شوارع المدينة[3]، ويقال إنه بعد وصوله إلى دمشق أراد توسيع الشارع المستقيم الممتد من باب الجابية باتجاه الشرق مسافة ميل تقريباً. فعارضه مالكو العقارات القائمة على جانبيه من مكاتب ومخازن وحوانيت، ملتمسين بقاء الوضع على ما كان عليه، ولم يمضِ على ذلك سوى أيام قليلة حتى فوجئ الأهلون ليلاً باشتعال النار في عدة نقاط من الشارع اشتعالاً قضى تلك الليلة على ما بقي في تلك العقارات من بضاعة وأموال لم

---

(١) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٣.
(٢) مدحت باشا، مذكرات مدحت باشا، مرجع سابق، ص ٣٦-٣٧.
(٣) الحصني، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

يتمكن أصحابها من نقلها وإنقاذها ثم أعيد تنظيم الشارع بضعف عرضه السابق وأعيدت الأبنية إلى جانبيه بأحسن مما كانت عليه وسمي الشارع منذ ذلك الحين سوق مدحت باشا.وقد شاع فورا" بين الخاصة من الشعب أن الحريق قد جرى بأمر من الوالي بغية التنظيم السريع[١].

وتشكلت في زمانه دوائر العدلية والبوليس والدرك وهو المؤسس لها[٢]، فيقال إنه عندما رأى دمشق مكتظة بالجوامع والمساجد أمر بتحويل جامع (دنكز) الفخم ببنائه واتساعه وحسن موقعه إلى مدرسة عسكرية منفذاً أمره من دون تأخير، ودعا على التو وجهاء دمشق وأقنعهم أن يرسلوا أبناءهم إلى هذه المدرسة من أجل تعليمهم العلوم العسكرية والمدنية معاً، وبذلك يتيسر لهم الاحتفاظ بوجاهتهم وكرامتهم وحكم بلادهم بالطرق الدستورية، فلبى بعض الوجهاء هذه الدعوة وكان في مقدمة خريجي المدرسة العسكرية هذه علي رضا باشا الركابي[★][٣]. وقد أحب العرب وقربهم إليه، وعينهم في المناصب العالية، حيث كان يفضلهم على غيرهم لمعرفتهم أحوال بلادهم ويميل إلى فكرة إعطاء هذه البلاد استقلالها.

ويقول صاحب كتاب منتخبات تواريخ دمشق: ((إنه لو أتيح لمدحت باشا فرصة المقام في دمشق لمدة أطول فقد كان ينوي القيام بكشف نهر بردى من ساحة المرجة إلى باب توما وجنائنها، وهدم الأبنية التي على أطرافه وتزويده بشارعين عظيمين عن يمينه وعن شماله، وتطهير النهر من الأوساخ التي هي جرثومة الجراثيم القتالة للدمشقيين ولو تم الأمر لكانت لدمشق صورة مغايرة لما هي عليه في وقت لاحق من

---

(١) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، بيروت، دار النهار، ط٢، ١٩٨٠م، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٢) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

(★) علي رضا الركابي (١٢٨٢-١٣٦١هـ = ١٨٦٦-١٩٤٢م): علي رضا باشا ابن محمود بن أحمد بن سليمان الركابي من رؤساء الوزارات مولده ووفاته في دمشق، تعلم ا، وتخرج بالمدرسة الحربية العثمانية، وتولى وظائف عسكرية، وعين رئيسا للوزارة السورية في دمشق فترة الحكومة العربية بزعامة الملك فيصل سنة (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) وتولاها توفي في دمشق.

الفرفور، محمد عبد اللطيف صالح، أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، دمشق، ١٩٨٧، ط١، ص ٢٠٩.]

(٣) الحكيم، مرجع سابق، ص ٥٤.

تلك الفترة[١]. لقد أحب مدحت باشا نشر العلم بين مختلف الطبقات الاجتماعية حيث زادت المكاتب العالية في زمانه وجعل للمعارف ورجالها رونقاً وللأدب سوقاً (فلما دعا مدحت باشا وجهاء دمشق وبعض الزعامة الشعبية إلى اجتماع حضهم فيه على تزويد أولادهم بالعلوم على اختلاف أنواعها، ولما عاتبه بعدئذ الذين لم تشملهم الدعوة أجابهم إنكم تتمتعون بقسط وافر من الثقافة وحسن التربية بفضل حياتكم البيتية ووفرة المدارس التي تبعثون بأبنائكم إليها فلستم بحاجة إلى الحضّ والنصيحة ولكنني أقول لكم إن ثقافتكم مهما نمت وعلت لا تضمن لكم السعادة والهناء، إذا كانت أكثرية الشعب متأخرة عن ركب الحضارة))[٢].

يدلنا هذا على حرص مدحت باشا الكبير على نشر المعرفة والعلم بين جميع طبقات المجتمع على حد سواء. لقد اضطر مدحت باشا أن يتخلى عن ولاية دمشق بعد أن طبق مفاصل الإصلاح في أرجائها الواسعة على أسرع ما يمكن. حيث أنشأ الطرق والمكاتب والمدارس، ونشط الصناعات والزراعة، وضرب على أيدي المرتشين، ونشر الحرية الشخصية وبذلك كان قدوة في الصلاح والمثابرة وكان صاحب السمعة الطيبة والصيت الذي سبقه إلى أي مكان يذهب إليه[٣].

ثانياً: ولاية حسين ناظم باشا:

تولى ناظم باشا ولاية دمشق ثلاث مرات متفرقة أولاها كانت سنة (١٣١٣هـ/١٨٩٥م) والمرة الثانية سنة (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) أي بعد سقوط حكم السلطان عبد الحميد الثاني، واستمرت لمدة عام فقط، ثم للمرة الثالثة سنة (١٣٣٠هـ/١٩١١م)، حيث استبعد عن الولاية في العام نفسه، وكان الوالي الثالث عشر خلال مرحلة حكم السلطان عبد الحميد الثاني[٤].

---

(١) الحصني، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٢-٢٧٣.
(٢) الحكيم، سوريا والعهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥٤-٥٥.
(٣) كرد علي، محمد، خطط الشام، بيروت، ١٩٧٠م-١٣٩٠هـ، ٦أجزاء، ج٣، ص ١٠٣.
(٤) المنجد، صلاح الدين، ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق، ١٩٤٩م، مرجع سابق، ص ٩٤-٩٥.

كان ناظم باشا خير من تولى إدارة ولاية سورية أو بلاد الشام كما قيل عنه فكان فضلاً عن عدله وحزمه ونزاهته مثالاً حياً لإنجاح المشاريع العمرانية[١]، وسبق ناظم باشا في ولاية دمشق الوالي حسن رفيق باشا سنة (١٣١٢هـ/١٨٩٤م)، الذي كان قبلاً والي بغداد السابق. في أيامه شيد في الشام مكتب لتخريج معلمين لمدارس الحكومة، واهتم بإعادة عمارة الجامع الأموي، وعمّر طريق الأربعين في جبل قاسيون، كما تم في عهده تمديد الخط الحديدي بين مزيريب والشام، ثم بين بيروت ودمشق[٢]، وكان ناظم باشا ناظر الضبط أي مدير الأمن العام بدار السلطنة قبل أن يصبح والياً على دمشق، وأهم حدث في عهده هو واقعة الأرمن التي أرادوا فيها اغتيال السلطان عبد الحميد الثاني، ولقد ساعد في كشف من وقف خلف هذه العملية وكشف نوايا الأرمن في الانقلاب على الدولة[٣].

أهم أعمال ناظم باشا:

كما أسلفنا استلم ناظم باشا ولاية دمشق خلفاً للوالي حسن رفيق باشا ولقد قام فور تسلمه الولاية بعدة إصلاحات، فعمل على بث روح المدنية في العشائر والبوادي وأسكنهم في الأراضي الخالية والمهجورة والمتروكة، ومن أشهر أعماله العمرانية التي زادت من جمال ورونق مدينة دمشق هو: إنشاؤه لحي المهاجرين[٤] بسفح جبل قاسيون وقد بنى لنفسه دارًا في هذا الحي[٥] وهي القصر الجمهوري

(١) الحكيم، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٢) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٣) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٤) حي المهاجرين سمي ذا الاسم عندما أنزلت السلطة العثمانية في آواخر القرن التاسع عشر في سفح جبل قاسيون في الطرف الغربي من الصالحية من هاجر من مسلمي أقريطش (كريت) في حي قسمته إلى أقسام منظمة. أحمد حلمي العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، تحقيق علي جميل نعيسة، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دمشق، ص ٤٠٢. وانظر محمد بن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، القسم الأول، تحقيق محمد أحمد دهمان، ص ٧٠-٧٦.

(٥) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٦-٢٧٧.

اليوم، وكانت مقر المفوضية العراقية[1]. وقد سمي الشارع الموصل إلى قصره بشارع ناظم باشا وما يزال حتى اليوم.

وهكذا ازدادت أسعار الأراضي في هذه المنطقة خاصة بعد أن شقت فيها الطرقات ووصلها خط الترامواي، وازداد عدد الدمشقيين الذين قاموا بشراء أراضي في هذا الحي وبناء بيوت لهم فيها بعيداً عن التزاحم والضغط السكاني المتزايد في المدينة القديمة[2].

ومن أعماله العمرانية أيضاً بناؤه دائرة الحكومة أو ما يسمى (السراي)، كما أنشأ أيضاً مستشفى الغرباء بمقبرة البرامكة وهي المشفى الوطني اليوم وأنشأ له صيدلية خاصة. ومن أنفع أعماله وأجلها في مدينة دمشق هو قيامه بجلب ماء عين الفيجة عبر أقنية تحت الأرض إلى الخزان الذي أقيم في الصالحية وفي حي المهاجرين، وقسم المياه على أحياء المدينة كلها بنسبة هندسية بحيث لم يحرم من شرب المياه قريب أو بعيد غني أو فقير، ويقول صاحب كتاب الريف السوري وصفي زكريا: ((لقد بقي أهالي دمشق يشربون ماء بردى المكشوف طوال عشرات القرون دون أن يستفيدوا من ماء الفيجة الكوثري حتى بعث الله لهم بالوالي العثماني الشهير حسين ناظم باشا فقام بمشروعه الجبار وأعني به مشروع جر ماء هذا النبع إلى مدينة دمشق حيث أنقذ أهلها من الأمراض والعلل التي كانت تودي بحياة المئات منهم كل عام من جراء تلوث مياه نهر بردى))[3].

أضف إلى إنجازاته أيضاً مشروع إنشاء خط البرق ما بين دمشق و المدينة المنورة، وقد وضع له نصباً تذكارياً وسط ساحة المرجة لا يزال قائما حتى الآن[4].

وساهم أيضاً في إنجاز مشروع الخط الحديدي الحجازي الذي أمر ببنائه السلطان عبد الحميد الثاني، ولقد ساعد هذا الخط على ربط الإقليمين الشامي والحجازي

---

(١) المنجد، مرجع سابق ص ٩٤.

(٢) الحكيم، سوريا والعهد العثماني، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٣) زكريا، وصفي، الريف السوري، محافظة دمشق، الجزء الثاني، المطبعة العمومية بدمشق، (١٣٧٦هـ-١٩٧٥م) ص ٣٤٤-٣٤٥.

(٤) زكريا، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

ببعضهما البعض[1]، وهو الذي سقف الأسواق الكبيرة في دمشق بألواح التوتياء وذلك لأنها كانت تتعرض للحريق في كثير من الأحيان لأنها كانت مصنوعة من الخشب والقصب[2]، وقام بتوزيع الأراضي المتروكة بأطراف الولاية على طوائف المهاجرين من البلاد الإسلامية كافة وهيأ لهم السبيل لإعمارها وبنى لهم عدة قرى لإيوائهم فيها[3] وكان منهم مهاجرو جزيرة كريت[4]، الذين أنشأ لهم حياً خاصاً في أعلى موقع في دمشق وأنقاها هواء، وافتتح الكثير من المدارس الابتدائية والإعدادية في ألوية سوريا وأقضيتها، وساهم أيضاً في ترميم الجامع الأموي بعد أن تعرض للحريق سنة (١٣١١هـ/١٨٩٤م)، حيث صدر أمر من السلطان عبد الحميد الثاني يقضي بإعادة بناء الجامع على صورته الحالية[5].

ولم يكتفِ بذلك بل قام بترميم جامع الصحابي الجليل خالد بن الوليد في حمص، وجمع له الأموال اللازمة، لكنه لم يكتمل في أيامه[6].

ومن أعماله الحسنة أيضاً موقفه تجاه الطائفة الرومية في الديار الشامية، حيث طالب بأن يكون لهم بطريرك عربي وطني حفظاً لحقوقهم القديمة التي كانوا محرومين منها مدة طويلة وقد رجعت إليهم في زمنه[7]، ويذكر صاحب كتاب تاريخ

---

(١) الحصني، مرجع سابق ص ٢٧٧.

(٢) زكريا، مرجع سابق، ص ٣٤٥.

(٣) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

(٤) جزيرة كريت: (أوأقريطش) كما في المراجع العربية القديمة، جزيرة في البحر الأبيض المتوسط الشرقي تقع بين جنوب اليونان وساحل الأناضول، وأغلب سكا ا من اليونان والأقلية التركية، استولى عليها الفاتح سنة ١٦٤٥، وبقوا فيها ٢٤٠ سنة، انضمت ١٩١٧إلى اليونان. أحمد عطية، القاموس السياسي، ص ٩٧٣.

(٥) محمد، علي باشا، الرحلة الشامية، سلسلة التواريخ والرحلات، دار الرائد العربي، بيروت-لبنان، (١٤٠١هـ-١٩٨١م)، ص ٢٨٦.

(٦) زكريا، مرجع سابق، ص ٣٤٥، العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام، تاريخ دمشق وأهلها، دمشق، دار الفكر، ط١، ٢٠٠٢م، ص ٣٥٧.

(٧) الحصني، محمد أديب، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

سورية الديني والدنيوي المطران يوسف الدبس[1] في معرض حديثه عن بطاركة أنطاكية للروم في القرن التاسع عشر، أنه تعاقب العديد من البطاركة غير العرب و آخرهم كان سنة ١٨٩١ البطريرك "سيريدون" من قبرص والذي استمر في منصبه ثماني سنين إلى أن خلفه السيد البطريرك "ملاتيوس الثاني بن موسى" دوماني من دمشق، وذكر أنه مازال جالساً على كرسي البطريركية حتى وقت كتابة الكتاب، وأرخه سنة ١٩٠٤. وكان متخذاً دمشق كرسياً للبطريركية[2]. ومن أعماله أيضاً إنشاؤه الثكنة العسكرية الموجودة اليوم في البرامكة (الجامعة السورية اليوم)، وأنشأ أيضاً سوق الخجا، وتم في عهده أيضاً تحديد أكثر دوائر الحكومة في الأقضية[3].

شهدت العلاقات الألمانية العثمانية أوج تطورها في عهد الوالي ناظم باشا حيث توجت هذه العلاقات بزيارة الإمبراطور الألماني غليوم الثاني[4] إلى دمشق سنة ١٨٩٨م وذلك بعد اتصالات دبلوماسية استمرت ما بين الأربع إلى الخمس سنوات تمهيداً لهذه الزيارة، ولقد كان من أهم إنجازات هذه الزيارة هو نجاح الإمبراطور الألماني في الحصول على امتياز مد خط الحديد الحجازي السابق ذكره، فذهب الإمبراطور من القسطنطينية إلى القدس ومنها إلى دمشق حيث وضع الأسس لنفوذ ألماني جديد في بلاد الشام. وقد حاول إظهار مشاعر المحبة والود تجاه السلطان والإسلام حيث قال

---

(١) المطران يوسف الدبس (١٢٤٩-١٣٢٥هـ=١٨٣٣-١٩٠٧م): يوسف إلياس بن يوحنا الدبس، مؤرخ وباحث من المشتغلين بالتربية والتعليم، كان رئيس أساقفة بيروت، ولد وتوفي في لبنان، أنشأ مدرسة الحكمة في بيروت، كتب تاريخ سوريا في ثمانية أجزاء. كتاب الأعلام، خير الدين الزركلي، ج ٨، ص ٢١٩.

(٢) الدبس، يوسف، تاريخ سورية الديني والدنيوي، عشرة أجزاء، الجزء الثاني، إشراف: نظير عبود، دار نظير عبود، ١٩٩٤، ص ٢٢١-٢٢٢.

(٣) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

(٤) غليوم الثاني: وهو الإمبراطور الألماني وليم الثاني (١٨٥٩-١٩٤١) ارتبطت سيرته بالعالم العربي والإسلامي منذ (١٨٩٨) حين قام بزيارة إلى القدس ودمشق، وأهدى كرمز للصداقة ضريحاً من المرمر لكسوة قبر صلاح الدين بدمشق سنة (١٩٠٥)، أعلن تأييده لاستقلال سيادة مراكش ضد الضغط الفرنسي والإسباني. عقد تحالفاً مع كل من الدولة العثمانية والنمسا في الحرب العالمية الأولى. عطية الله، أحمد، القاموس السياسي، ص ٨٣٧.

في خطبته التي ألقاها في دمشق: فليطمئن صاحب الجلالة السلطان وليطمئن معه الثلاثمائة مليون من المسلمين الذين يجلونه لأنه الخليفة، إلى أنهم سيجدون في إمبراطورية ألمانية الصديق الدائم لهم، ثم اتجه في تلك الزيارة إلى قبر صلاح الدين[1] ووضع عليه إكليلاً من الزهر، وأهداه ضريحاً من الرخام بدل الخشب وهو الباقي إلى اليوم[2].

دامت ولاية ناظم باشا على دمشق حوالي اثنتي عشرة سنة[3]، وهي تعد من أطول الأزمان التي تسلم فيها والٍ ولاية بر الشام فترة العهد الحميدي، فقد كان من النادر أن يصمد والٍ أكثر من سنة على هذه الولاية، كانت ولايته غنية بالمنجزات والعطاءات التي لم تشهدها دمشق من قبله ولا بعده في تلك المرحلة.

ثالثاً: الامتيازات الأجنبية والمعاهدات التجارية:

تعد مسألة التدخل الأجنبي في البلاد العربية مسألة قديمة، فلقد تعرضت هذه البلاد منذ عصر الاكتشافات الجغرافية[4] إلى خطر السيطرة على سواحلها المطلة على المحيطات والمضائق الهامة في تلك المرحلة، ومن أهم هذه القوى البرتغاليون الذين تصدى لهم كل من المماليك، ثم العثمانيين، ثم جاء بعد البرتغاليين الهولنديون والفرنسيون والإنكليز، وفي هذه المرحلة كان يقع على عاتق الدولة العثمانية الدفاع

---

(١) صلاح الدين الأيوبي: (٥٣٢-٥٨٩هـ=١١٣٧-١١٩٣م) يوسف بن أيوب بن شاذي: أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي الملقب بالملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام، حرر بيت المقدس من الصليبيين، دفن في دمشق بالقرب من الجامع الأموي. الزركلي، مرجع سابق، ج٨، ص ٢٠.

(٢) أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، قدم له: نبيه أمين فارس، ترجمة: د.ناصر الدين الأسدي، د.إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢، ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) الحصني، محمد أديب، مرجع سابق، ص ٢٧٨.

(٤) عصر الاكتشافات الجغرافية: بدأ في القرن السادس عشر حيث أحدث تغيراً عظيماً في تاريخ العالم، وأشهر الرحالة البرتغاليون والإسبان حيث استطاع ماركو بولس أن يلتف حول رأس الرجاء الصالح، ويصل إلى الهند، وبذلك دخل عصر تجاري واقتصادي وسياسي جديد إلى العالم حيث قلب موازين القوى الدولية.
انظر: نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر الحديث، لبنان، ١٩٦٨، ص ١٤٣-١٥١.

عن هذه المناطق وحمايتها من هجمات هذه الدول الاستعمارية الطامعة بها حيث أن البلاد العربية في تلك المرحلة كانت قد خضعت للحكم العثماني[1]، وكذلك كان الحال بالنسبة للسواحل العربية على البحر الأبيض المتوسط والتي كانت تتعرض لهجمات الجنويين والبنادقة والفرنسيين والإنكليز[2].

واستمر هذا الأمر حتى حل محل هذه المناوشات العسكرية والمنافسات التجارية ما سمي بالامتيازات الأجنبية. والامتيازات الأجنبية: ما هي إلا تصاريح ومعاهدات منحت بموجبها الدول الأجنبية أحقية ممارسة مصالحها التجارية والاقتصادية في الدولة العثمانية بموجب معاهدة تتم بين الطرفين[3].

وعلى مدى القرون الثلاثة الماضية أخذت هذه المعاهدات صفة اتفاقيات تجارية ما بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية، وبموجب هذه الاتفاقيات ونظام الامتيازات منح الرعايا الأجانب كثيراً من الفوائد وجعلهم دولة ضمن دولة يخضعون لقوانين بلادهم وليس للقوانين العثمانية أو المحلية[4].

وكانت أولى هذه الامتيازات في ٢٠ أيلول (٩٣٥هـ/١٥٣٥م). حيث حصلت فرنسا على أولى امتيازاتها بموجب الخط الشريف السلطاني الذي صدر في العام نفسه، وفيه سمح السلطان للفرنسيين أن يتجولوا في مصر كما يشاؤون وفي حال وقوعهم

---

(١) بداية دخول العثمانيين للبلاد العربية: دخل العثمانيون بلاد الشام في ٢٤ آب ١٥١٦ وذلك إثر هزيمة المماليك على يد السلطان سليم الأول في معركة مرج دابق، ودخلوا مصر في ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧ بعد هزيمة المماليك في معركة الريدانية ومعه دخلت الحجاز تلقائيا باعتبارها تابعة لمصر، أما اليمن فلقد دخلها العثمانيون سنة ١٥١٨، وتم للعثمانيين هزيمة الصفويين في العراق والاستيلاء عليها سنة ١٥٣٤.

انظر: حلمي محروس إسماعيل، تاريخ العرب الحديث والمعاصر من الغزو العثماني إلى ‌ اية الحرب العالمية الأولى، جامعة الإسكندرية، مؤسسة الشباب بالإسكندرية، ١٩٧٧، ص ٣-٢٣.

(٢) رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦) ط٢، دمشق، ١٩٩٣، ص ٤١١-٤١٢.

(٣) الامتيازات الأجنبية هي اتفاقات خاصة في التجارة والأحوال الشخصية تكرم ‌ ا الباب العالي على بعض الدول الأوروبية بشأن رعاياها القاطنين في الإمبراطورية العثمانية وأشهرها الامتيازات الفرنسية (١٥٣٥) والإنكليزية (١٥٧٩)، والهولندية (١٦١٣) ثم الأسبانية والروسية. وقد ألغيت الامتيازات في أيلول ١٩١٤م قبل دخول تركيا الحرب.

(٤) رافق، مرجع سابق، ص ٤١٤.

في خصومات فمن حقهم مراجعة قناصلهم إلا في حالة الدم، فذلك يرجع إلى قضاة الشرع الحكم فيه[1]. وتعد هذه الامتيازات هي أساس لكل المعاهدات والامتيازات التي تلتها وذلك حتى عام ١٩١٤م. وسنذكر فيما يلي بعض البنود التي وردت في المعاهدة الموقعة بين سرّ عسكر الدولة العلية والمسيو جان دي لافوري سفير فرنسا في شباط سنة (١٥٣٦):

البند الأول: يجوز لرعايا ملك فرنسا السفر بحراً في مراكب مسلحة أو غير مسلحة والسير براً وبحراً من بلاد إلى أخرى مع دفع العوائد والضرائب المعتادة بحيث يدفع الفرنسيون في البلاد العثمانية والإقامة فيها والرجوع بقصد الإبحار، ولهم الحرية التامة في ذلك لا يعتدي عليهم أحد ولا على متاجرهم وكذلك يجوز لرعايا السلطان الأعظم وتابعيه في بلاد ملك فرنسا.

البند الرابع: لا يجوز سماع الدعاوى المدنية التي يقيمها العثمانيون على الرعايا الفرنسيين أو الحكم عليهم فيها ما لم يكن مع المدعين سندات بخط المدعى عليهم أو حجج رسمية صادرة من القاضي الشرعي أو القنصل الفرنساوي وحينئذ لا تسمع الدعوى أو شهادات مقدمها إلا إذا كان ترجمان القنصل حاضراً.

البند السادس: لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وهذا فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي أو غيره من المأمورين بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي ولهم أن يتبعوا شعائر دينهم ولا يجبرون على الإسلام ولا يعدّون مسلمين ما لم يعترفوا بذلك مختارين غير مكرهين[2].

وكما أسلفنا فقد كانت هذه الامتيازات الباب العريض الذي دخل عبره الأوربيون إلى الدولة العثمانية، ووصل بهم الأمر فيما بعد إلى التدخل في شؤونها وسياستها، وفي الوقت نفسه بدأ التنافس الاستعماري الفرنسي والإنكليزي يتزايد

---

(١) أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، حققه: حسن السماحي سويدان، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠١، ص ١٥٤.

(٢) مختارات من القوانين العثمانية، ط١، بيروت، ١٩٩٠، دار الحمراء للطباعة والنشر، ص ١٦٧-١٦٨.

ويتنامى في المنطقة حتى وصل ذروته في الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م والتي استمرت حتى ١٨٠١م(١).

فبعد هذه الحملة تنامى الدور الكبير لإنكلترا في المنطقة، وخاصة أنها كانت قد عارضت وجود الحملة الفرنسية في مصر وبلاد الشام، فلهذا اطمأن العثمانيون للإنكليز وقد جعلهم هذا الأمر يعتمدون عليهم في الوقوف ضد مطامع محمد علي باشا (٢) في بلاد الشام.

وبالفعل قامت إنكلترا بالضغط على محمد علي للخروج من بلاد الشام وكان ذلك من خلال قرارات مؤتمر لندن الأول ١٨٤٠م ولندن الثاني ١٨٤١م(٣).

وعلى الرغم من انسحاب محمد علي من بلاد الشام غير أن التدخل الأوروبي في المنطقة ازداد حدة وخاصة من قبل فرنسا وإنكلترا، ولقد برز هذا التدخل جلياً من خلال النِّزاعات الطائفية التي نشبت في المنطقة، حيث كانت هذه النّزاعات هي الباب الأوسع الذي نفذت منه الدول الاستعمارية في داخل الجسد العثماني، حيث اتخذت كل دولة أوروبية حليفاً لها من هذه الطوائف المتنازعة في المنطقة، وساعدت

---

(١) الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) ففي ٢ نيسان ١٧٩٨م أصدرت حكومة الإدارة الفرنسية قراراً بتشكيل جيش الشرق تحت قيادة نابليون بونابرت لغزو مصر والهدف ضمان مصالح فرنسا في المنطقة و ديد المصالح الإنكليزية وأشهر مواقعها أبي قير. الحملة على بلاد الشام انتهت زيمة القوات الفرنسية أمام الضغوطات الإنكليزية والعثمانية والشعب المصري، وانسحبت في أيلول ١٨٠١م). حلمي محروس، تاريخ العرب الحديث، مرجع سابق، ص ٩٩-١١٧.

(٢) محمد علي باشا (١١٨٤-١٢٦٥هـ=١٧٧٠-١٨٤٩م): محمد علي بن إبراهيم آغا بن علي المعروف بمحمد علي الكبير مؤسس آخر دولة ملكية في مصر، ألباني الأصل مستعرب ولد في قولة في اليونان، جاء مصر مع قوة من المتطوعين لرد الغزاة الفرنسيين عن مصر، أصبح والياً على مصر سنة (١٢٢٠هـ-١٨٠٥م) خاض العديد من الحروب لتوسيع إمارته، توفي ١٨٤٩م ودفن في القاهرة. الزركلي، مرجع سابق، ج٦، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٣) مؤتمر لندن الأول + مؤتمر لندن الثاني: الأول عقد في ١٥ تموز ١٨٤٠ بدعوة من إنكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا لحل القضية المصرية مع الدولة العثمانية وفيه منح محمد علي حكم مصر وراثياً، وانسحب من بلاد الشام). ولندن الثاني عقد في ١٣ تموز ١٨٤١م بين الباب العالي والنمسا وفرنسا وإنكلترا وروسيا وبروسيا، ودعيت بمعاهدة المضائق حيث منحت السفن الأوروبية حرية التنقل في مياه البوسفور في أيام السلم). البرجاوي، أحمد، الإمبراطورية العثمانية، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٢٩٨-٢٢٩.

على تأجيج نار الفتنة في المنطقة بشكل أكبر، فمثلاً أيد الإنكليز طائفة الموحدين الدروز[1] وأيد الفرنسيون الموارنة[2] وأيد الروس المسيحيين الأرثوذكس[3] وبالمقابل استغل العثمانيون ظروف المنازعات هذه من أجل إعادة سيطرتهم على المنطقة من جديد فحدثت الكثير من الفتن في تلك المرحلة، أشهرها مذبحة الستين (١٨٦٠م) في دمشق وحلب[4]، واستمر التدخل الفرنسي والإنكليزي في المنطقة آخذاً عدة أدوار ومراحل حتى وصل إلى شكله الأخير وهو الانتداب وذلك بفرض الانتدابين الفرنسي والإنكليزي[5] في المنطقة في أعقاب الحرب العالمية الأولى[6].

هذا بالنسبة لفرنسا وإنكلترا أما ألمانيا فلقد جاء دورها في الحصول على الامتيازات في الدولة العثمانية متأخراً عن مثيلاتها إنكلترا وفرنسا، حيث بدأت بعد الزيارة الأولى التي قام بها الإمبراطور الألماني غليوم الثاني وزوجته إلى السلطان عبد الحميد الثاني وكانت في ١ تشرين الأول ١٨٨٩م، ثم جاءت الزيارة الثانية ١٨٩٨م،

(١) الموحدون الدروز: وهم فرع عن الشيعة الإسماعيلية، ظهر في أواخر القرن العاشر الميلادي في عهد الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي في مصر (٣٤٥-٤١١هـ=٩٥٦-١٠٢٠م) ومن أتباعه الدرزي والذي نسب أتباعه إليه، ويفضلون أن يطلق عليهم اسم الموحدون، يتركزون في سوريا ولبنان. إبراهيم، سعد الدين، الملل والنحل، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤، ص ٨٠-٨١.

(٢) الموارنة: وهم المسيحيون الذين يتبعون اللاهوت والطقوس اللاتينية للكنيسة الكاثولكية الغربية في روما وهم جزء لا يتجزأ منها ولهم بطريرك في القدس يعينه البابا من روما وثلاثة مبعوثين رسوليين في القاهرة بيروت وبغداد ويتركزون في سوريا وفلسطين. إبراهيم، سعد الدين، مرجع سابق، ص ٦٨.

(٣) المسيحيون الأرثوذكس هم أتباع الكنيسة الشرقية التي تستخدم اللاهوت والطقوس البيزنطية يتمركزون في أربعة بطريركيات هي القدس أنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية. إبراهيم، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٤) فتنة الستين: فتنة حدثت في بلاد الشام ما بين الدروز الموارنة في لبنان بتحريض من فرنسا التي دعمت الموارنة وإنكلترا التي دعمت الدروز، حصدت الكثير من الأرواح في المنطقة وذلك سنة (١٢٧٧هـ-١٨٦٠م). يحيى، التاريخ العربي الحديث، مرجع سابق، ص ٢٩٥-٢٠٦-٢٠٧.

(٥) الانتداب الفرنسي والإنكليزي في المنطقة: نظام سياسي مؤقت استحدث بعد الحرب العالمية الأولى ونص عليه ميثاق عصبة الأمم عام ١٩١٩ وبموجبه وضعت سوريا تحت الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ والعراق تحت الانتداب الإنكليزي ١٩٢٠ بالإضافة لفلسطين. أحمد، عطية الله، القاموس السياسي، مرجع سابق، ص ١٣٠.

(٦) رافق، مرجع سابق، ص ٤١٥-٤٢٧.

ولم يكن هدف هذه الزيارة الثانية هو فقط حماية البروتستانت[(١)] في الأراضي المقدسة في القدس ولا مجاملة السلطان عبد الحميد الثاني ولكن كانت الزيارة متزامنة مع منح امتياز مرفأ حيدر باشا إلى شركة الخطوط الأناضولية، وكان قد وقع أيضاً مع البنك الألماني عقداً بمد السكة الحديدية حتى أنقرة[(٢)]، وتم ذلك في سنة ١٨٩٢م، ومنح الألمان أيضاً امتياز مد سكة حديد استانبول بغداد ١٩٠٢م، وقد أسفر عن هذا الامتياز نشوب صراع دولي في المنطقة.

ثم جاء الخط الحديدي الحجازي الذي وصل بين دمشق والمدينة المنورة وأنجز بين سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠٨ بمساعدة الألمان، ولقد كان لهذا المشروع دور في خدمة السياسة الإسلامية التي انتهجها السلطان عبد الحميد الثاني في أواخر حكمه، فضلاً عن خدمة المصالح الاستراتيجية الألمانية في المنطقة، كما كان من شأنه أن يهدد المواصلات الإمبراطورية البريطانية على البحر الأحمر، ولذلك عارضته إنكلترا بشدة[(٣)].

ومن أشهر امتيازات الخطوط الحديدية بين عامي (١٨٧٦-١٩٠٩م):

- سنة ١٨٨٨م يافا[(٤)] القدس [(٥)].

---

(١) البروتستانت: البروتستانية كعقيدة وممارسات دينية تمثل أحد الانشقاقات الكبرى في تاريخ المسيحية. والبروتستاني تعني الاحتجاج وعددهم في البلاد العربية حوالي ٢٠٠ ألف معظمهم في لبنان وسوريا. إبراهيم، سعد الدين، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) أنقرة: وهي عاصمة تركيا الحالية، وتقع بالأناضول الوسطى. بعد هزيمة بايزيد الأول على يد تيمورلنك تدهورت أوضاعها حتى عام ١٩٢٣م حيث أصبحت عاصمة تركيا بدلاً من القسطنطينية. غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، جزآن، ج١، دار البعث، ١٩٦٥، ص ٢٤٨.

(٣) رافق، مرجع سابق ص ٤٢٨-٤٢٩.

(٤) يافا: مدينة تقع غرب فلسطين على البحر المتوسط، دخلها نابليون ١٧٩٩م، والبريطانيون في أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٩١٧)، غالبية سكا ا من العرب حتى عام ١٩٤٨ عندما احتلها اليهود، غربال، مرجع سابق، القسم الثاني، ص ١٩٧٧.

(٥) القدس: سماها اليهود أورشليم، وهي عاصمة فلسطين، سلمت للخليفة عمر بن الخطاب سنة (١٧هـ/٦٣٨م)، ودعاها العرب القدس، احتلها الصليبيون سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م)، استرجعها صلاح الدين الأيوبي بعد معركة حطين سنة (٥٨٣هـ/١١٨٧م)، بقيت بيد العثمانيين من ١٥١٦م إلى ١٩١٧. المنجد في الأعلام، ص ٥٤٦.

❖ سنة ١٨٩٠م الشام - المزيريب[١].

❖ سنة ١٨٩١م بيروت[٢] - دمشق.

❖ سنة ١٨٩٣م، الشام حلب[٣] - براجيك[٤].

❖ سنة ١٨٩٨م الترام اللبناني: بيروت - جونية[٥].

❖ سنة ١٩٠٢ قونية[٦] - بغداد[٧].

❖ سنة ١٩٠٢م إلى ١٩٠٤م رياق[٨] - حلب.

❖ سنة ١٩١١م طرابلس[٩] - حمص[١٠].

---

(١) المزيريب: قرية سورية تقع على طريق الحج بين دمشق ومكة، فيها عين ماء غزيرة وشلالات. المنجد في الأعلام، ص ٦٥٧.

(٢) بيروت: عاصمة لبنان حالياً وميناء هام شرق البحر المتوسط، تقع في سفح سلسلة جبال لبنان، فتحها العرب في خلافة عمر بن الخطاب (٦٣٥م)، احتلها الفرنسيون (١٩١٨-١٩٤٤. غربال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج١، ص ٤٦٣.

(٣) حلب: مدينة تقع شمال غرب سورية ورد اسمها في وثائق ترجع للألف الثانية ق.م استولى عليها العرب في القرن السابع والسلاجقة الأتراك في القرن (١١)، وحاصرها الصليبيون (١١٢٤م)، حررها صلاح الدين (١١٨٣م)، واحتلها العثمانيون (١٥١٦م إلى ١٩٢٠م) يطلق عليها اسم الشهباء. غربال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج١، ص ٧٣٢.

(٤) براجيك: قرية تقع على الحدود السورية التركية.

(٥) جونية: مدينة في لبنان شمالي بيروت، مركز قضاء كسروان، كانت مرفأ لبنان في عهد المتصرفة، مرفأ سياحي، ومرفأ حربي. المنجد في الأعلام، ط١٢، ص ٢٢٢.

(٦) قونية: مدينة في وسط تركيا الآسيوية عاصمة سلطنة الروم السلجوقية (١٠٨١م-١٣٠٢م)، هزم فيها الجيش العثماني أمام إبراهيم باشا (١٨٢٢م). المنجد في الأعلام، ص ٥٥٩.

(٧) بغداد: عاصمة الجمهورية العراقية حالياً، وقاعدة ومركز قضاء بغداد شيدها المنصور الخليفة العباسي (٧٦٢م) ودعاها مدينة السلام دمرها هولاكو (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) وتيمورلنك (١٤٠٠م)، ثم احتلها الأتراك (١٥٣٤م). المنجد في الأعلام، ص ١٣٧.

(٨) رياق: بلدة في لبنان (قضاء بعلبك) مطار عسكري محطة السكة الحديدية. المنجد في الأعلام، ص ٣١٥.

(٩) طرابلس: مدينة شمال لبنان قاعدة ومركز قضاء طرابلس ثانية المدن اللبنانية تجارياً، فتحها العرب (٦٣٨م)، احتلها الصليبيون (١١٠٩م)، استرجعها السلطان قلاوون (١٢٨٩م)، بقيت بيد العثمانيين حتى (١٩١٨م). المنجد في الأعلام، ص ٤٣٥.

(١٠) حمص: مدينة سورية قديمة جداً دخلها العرب (٦٣٦م)، توالى على حكمها الحمدانيون والفاطميون ثم الأتراك. المنجد في الأعلام، ص ٢٥٩-٢٦٠.

❖ سنة ١٦١٢م حلب - الصلاحية[١].

وكانت هذه الامتيازات تمنح لشركات فرنسية ما عدا خط قونية بغداد ، فقد اختصت به شركة ألمانية ولكن لم يتم لها إمكانية إنجازه[٢].

رابعاً: الحرب الروسية العثمانية (١٢٩٣هـ - ١٨٧٦م):

عملت روسيا بين الحين والآخر على إثارة الفتن والمشكلات في داخل حدود الأراضي العثمانية وخاصة في مناطق بلاد الصرب والبلغار والأرناوؤط[٣] وذلك بإطلاقها شعار توحيد الشعوب السلافية في جميع أنحاء أوربة تحت القيادة الروسية، ولم تكن هذه الدعوة إلا وسيلة تبرر غاية روسيا في الوصول إلى مياه البحر الأبيض المتوسط ومنها إلى الهند وذلك بعد القضاء على الدولة العثمانية.

ومع تكشف النوايا الروسية هذه أدى الأمر إلى حصول منافسة بينها وبين سائر الدول ذات العلاقة بهذه البلاد والتي ستتهدد مصالحها في المنطقة في حال وصول روسيا إلى هذه الأماكن (وخاصة إنكلترا وفرنسا)[٤].

---

(١) الصلاحية: منطقة تقع بالقرب من القدس، بدران، عبد القادر، منادمة الأطلال، تحقيق: زهير الشاويش، ج١، المكتب الإسلامي، بيروت "٢، ١٩٨٥، ص ١١.

(٢) بيهم، محمد جميل، الحلقة المفقودة في تاريخ العرب والترك، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٦٩هـ=١٩٥٠م، مصر، ص ١٢٦.

(٣) بلاد الصرب والبلغار والأرناؤوط: وهي إحدى ممالك البلقان وقد كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ثم فيما بعد أصبحت تابعة ليوغسلافيا أشهر مد ا سراجيفو - البلغار: وهي أيضاً إحدى ممالك البلقان تقع بين الصرب واليونان ورومانيا وتركيا، أهم مد ا صوفيا والبلقان منطقة جبلية في جنوب أوروبا، تحدها من الشمال جبال البلقان، ومن الشرق البحر الأسود. وأهم دولها: رومانيا وألبانيا وبلغاريا واليونان والجبل الأسود والبوسنة والهرسك وتركيا الأوروبية. خضعت هذه الأماكن للسيطرة التركية ثم الروسية والنمساوية في القرن (١٨). المنجد في الأعلام، ص ١٤١ ص ٧٥٦.

(٤) أ.ح. جرانت وهارولد تمبرلي، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، الجزء الثاني، (٦ أجزاء)، ترجمة: أحمد علي أبو درة، لويس إسكندر، مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٧، من ص ٣ إلى ١٨. العظمة، مرآة الشام، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

ومع بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت الدعوة السلافية قد بلغت أوجها، وبسبب تعاظم دور هذه الدعوة في المنطقة وتعاظم دور الجمعيات التي شكلها الروس لنشر نفوذهم بين الطوائف الصقلية[1] في إثارة أهالي البوسنة والهرسك[2]، ولقد كان لهذه الجمعيات فروع في بلاد البلغار. ونتيجة لتحريض هذه الجمعيات ثار البلغاريون ضد الدولة العثمانية التي منحتهم جميع ما طلبوا من حقوق، ورغم ذلك فقد قامت حركات العصيان في المنطقة وانتهت إلى حدوث فتنة بين المسيحيين والمسلمين في المنطقة، وكان ذلك طبعاً بتحريض من الروس، كما أدت إلى حدوث مذابح، حيث دمرت العديد من القرى، ولكن رغم ذلك استطاعت الدولة العثمانية أن تخمد هذه الفتنة وتسكتها[3].

أ- مشكلة الصرب والجبل الأسود:

لم تيأس روسيا من الوضع بل تابعت تحريضها للفئات السلافية في المنطقة من أجل الثورة والانتفاضة ضد العثمانيين، وهكذا أوعزت إلى أميري الصرب والجبل الأسود[4] بإعلان الحرب على الدولة العثمانية فاجتازت الجيوش العثمانية نهر (مورافيا)[5]، وحدثت مناوشات بين الطرفين، وبعد معركة حامية كانت الغلبة

---

(١) الطوائف الصقلية: وهي مجموعة تمثل الشعوب السلافية: وهي شعوب تسكن بين جبال الأورال والبحر الأدرياتيكي في أوربا الشرقية. وهم صقالبة الغرب: ويشملون البولنديين والتشيك والسلوفاكيين وصقالبة الشرق وهم الروس والأوكرانيين والروس البيض والصقالبة الجنوبيين ويضمون الصربيين والكروات والسلوفاك والمقدونيين والبلغار، وكانت الدعوة السلافية من أقوى ما اعتمدت عليها روسيا في توسعها. غربال، مرجع سابق، القسم الثاني، ص ١١٢٦.

(٢) البوسنة والهرسك أو البشناق من جمهوريات يوغسلافيا سابقاً، عاصمتها سارجيفو، سكا ا من الصرب ظلوا تحت الحكم التركي حتى معاهدة برلين (١٨٧٨م) ثم خضعوا فيما بعد إلى حكم النمسا. المنجد في الأعلام، ص ١٥٠.

(٣) حسون، علي، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقا ا الخارجية، ط٢، (١٤١٥هـ-١٩٩٤م)، المكتب الإسلامي، بيروت، ص ٢٣٠-٢٣١), وانظر أيضاً أرسلان، مرجع سابق، ص ٣٠٠-٣٠١.

(٤) الجبل الأسود: إمارة تقع بين البحر الأدرياتي وألبانيا - أهلها صرب يعتنق معظمهم المذهب الأرثوذكسي - كان مكوناً من (١٤) إمارة. غربال، مرجع سابق، ص ٦١٢.

(٥) مورا فينا (ر): ر طوله ٢١٥٠ في يوغسلافيا يتكون من التقاء ر موارفيا الغربي وموارفيا الجنوبي ويتجه جنوبا حتى يلتقي بنهر الدانوب. غربال، مرجع سابق، ج٢، ص ١٧٧٤.

للجيش العثماني الذي طارد القوات الصربية حتى (بلغراد)[1]، حيث تدخلت الدول العظمى وتوقف الزحف العثماني إلا أن الباب العالي رفض مطالب هذه الدول وأوعز باستمرار القتال فتراجع الصربيون حتى بلغراد مرة ثانية[2].

وبالنسبة للظروف التي سبقت هذه المعركة فقد كان الجبل الأسود على أتم الاستعداد للقتال والثورة ضد العثمانيين ولكن الصرب لم تكن عندهم تلك الجاهزية العسكرية والنفسية، وبالتالي تم اشتباك الطرفين مع الدولة العثمانية حيث بدأت المناوشات مع الصرب في ٣٠ حزيران ١٨٧٦م، ومع الجبل الأسود بدأت المعارك في أول تموز من نفس العام. استطاع الجبل الأسود في البداية أن يحرز نجاحاً كبيراً، ولكن مع الهزيمة التي لحقت بالصرب كما أسلفنا الذكر زحفت القوات العثمانية نحو بلغراد ولم يوقف هذا الزحف إلا إنذار نهائي وجهته روسيا للدولة العثمانية طلبت فيه إيقاف الحرب فوراً ومهادنة الصرب والجبل الأسود لفترة معينة[3]. وهنا يوجد سؤال يطرح نفسه: لماذا لم تقف روسيا في هذه الحرب إلى جانب الصرب والجبل الأسود وهي التي كانت زعيمة ما سمي بالدعوة السلافية؟ والجواب كامن في الموقف الإنكليزي من الأوضاع، فبما أن إنكلترا كانت قد استشعرت نوايا روسيا من وراء أعمالها ودعوتها إلى الوحدة السلافية وهو الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط والهند، فقد أبلغت بريطانيا روسيا أنه مهما يكن من أمر الشعور بالغيرة تجاه الصرب والجبل الأسود من قبل الروس والاستياء من الأفعال الشنيعة للأتراك في المنطقة فإن على بريطانيا أن تحمي مصالحها في قناة السويس وفي القسطنطينية،

---

(١) بلغراد: عاصمة يوغوسلافيا سابقاً تقع شمال شرقي البلاد على ملتقى نهري الدانوب والساف وهي عاصمة صربيا حالياً. استولى عليها الأتراك ١٥٢١م، ثم دخلتها النمسا (١٦٨٨م–١٧١٧م–١٧٨٩م)، انسحبت الحامية التركية منها (١٨٦٧م). غربال، مرجع سابق، ج١، ص ٣٩٩.

(٢) حسون، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٣) جرانت وتمبرلي، مرجع سابق ص ١٦٦.

وفعلاً أعلن القيصر الروسي الإسكندر الثاني[1] أنه ليس لديه أي خطة للاستيلاء على بلغاريا أو القسطنطينية[2].

ومنعاً للعراقيل السياسية في المنطقة قبلت الدولة العثمانية بإعطاء هدنة للصرب والجبل الأسود لمدة معينة، وطالبت إنكلترا بعقد مؤتمر دولي لحل هذه القضية، وافقت عليه جميع الدول بما فيها روسيا، ووصل المندبون إلى الآستانة وعقدوا اجتماعات عدة في سفارة روسيا. افتتح المؤتمر رسمياً عام (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م) في سراي البحرية تحت رئاسة ناظر الخارجية العثماني صفوت باشا وحضر مندوبو فرنسا وألمانيا وإيطاليا والنمسا والمجر وروسيا وإنكلترا[3]، ولقد كان السلطان عبد الحميد الثاني قد تسلم زمام أمور السلطنة في نهاية شهر آب من ذلك العام، ورغم صغر سنه استطاع أن يبرهن عن ذكاء حاد ومكر شديد في سياسته التي ستستمر على مدى الثلاث والثلاثين سنة القادمة من حكمه، ففي اليوم السابق لانعقاد المؤتمر الدولي السالف الذكر الذي دعت إليه إنكلترا في الآستانة منح السلطان عبد الحميد الثاني البلاد دستوراً لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية وذلك بعد تعرضه للضغط الشديد من قبل الإصلاحيين في الدولة من أمثال (مدحت باشا) أبو الدستور (ورد سابقاً) من طرف والدول الأوروبية العظمى التي أسلفنا أنها تنادت من أجل عقد مؤتمر دولي لبحث قضية إحداث إصلاحات في داخل الدولة العثمانية من أجل حماية الأقليات الدينية فيها من طرف آخر، وهكذا أعلن الدستور في اليوم نفسه أي في (٢٣ كانون الأول سنة ١٨٧٦م) الذي اجتمع فيه ممثلو الدول الأوروبية لاقتراح إدخال الإصلاحات الضرورية على الإدارة العثمانية وعين مدحت باشا صدراً أعظمَ للدولة، وهكذا استطاع أن يظهر السلطان عبد الحميد الثاني لشعبه وللدول الأوروبية رغبته المخلصة في تحقيق

(١) القيصر الروسي: إسكندر الثاني ولد سنة ١٨١٨م، حكم (١٨٥٥م-١٨٨١م)، تبنى الحركة الإصلاحية في بلاده وعمل على تحرير الأقنان قضى بقسوة على ثورة البولونيين سنة (١٨٦٣م). المنجد في الأعلام، ص ٤٣.

(٢) أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، مرجع نفسه، ص ١٦.

(٣) حسون، مرجع سابق، ص ٢٣٠-٢٣١.

الإصلاح وعدم معارضته منح الحريات في البلاد وبذلك فقدت الدول الأوروبية حججها للتدخل في شؤون الدولة العثمانية[1].

وهكذا أُعلن القانون الأساسي في المؤتمر الذي يضمن الحرية والمساواة لا للصقالبة وحدهم بل لجميع التبعية العثمانية على اختلاف مذاهبهم[2]، وانفض المؤتمر وسافرت الوفود من دون أن تتوصل إلى قرارات حاسمة، وبدت الأجواء، وكأنها تنذر بحدوث حرب بين العثمانيين والروس، وسعت الدولة العثمانية إلى إبرام صلح مع إمارة الصرب بشروط. وهنا خشيت روسيا من أن توقع إمارة الجبل الأسود على معاهدة أو صلح مماثل مع الدولة العثمانية فسارعت إلى تقديم لائحة عرفت بلائحة لندن[3] وقع عليها سفراء الدول الأوروبية العظمى، وتضمنت هذه اللائحة منح السكان المسيحيين في كل من البوسنة والهرسك والبلغار امتيازات يختلفون فيها عن بقية السكان، وطبعاً رفض السلطان عبد الحميد الثاني هذه اللائحة فسارعت روسيا إلى توقيع معاهدة سرية مع إمارة رومانيا الأفلاق والبغدان[4] سنة ١٨٧٨م وضعت رومانيا بموجبها جميع أسلحتها ومؤنها تحت تصرف الروس ثم أعلنوا الحرب على الدولة العثمانية وقطعوا العلاقات معها[5].

---

(١) يحيى، مرجع سابق، ص ٢١٣-٢١٥.

(٢) العظمة، مرجع سابق، ص ٣٣٨.

(٣) لائحة لندن وهي المعاهدة التي وقعت في آذار ١٨٧٧م من قبل الدول الأوروبية العظمى وعرفت باسم بروتوكول لندن. جاء فيها ما يلي: إن الدول الغربية مع ارتياحها للسلام الذي تم الاتفاق عليه بين تركيا وصربيا تعلن أ ا ستراقب باهتمام الطريقة التي بموجبها ستضع الحكومة العثمانية موضع التنفيذ الإصلاحات التي وعدت ا، وهي تحتفظ لنفسها بالحق في اتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيق السلام العام في الشرق إذا ما رأت أن أحوال الشعوب المسيحية لم تتحسن. البرجاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٦.

(٤) إمارة رومانية (الأفلاق والبغدان): والأفلاق اسم أطلقه الأتراك على إمارة فلافيا الواقعة في مناطق ر الدانوب استقلت عن تركيا (١٨٠٦م) فكونت مع مولدافيا دولة رومانية (١٨٥٨م). المنجد في الأعلام، ص ٥٦.

أما البغدان فهي نسبة إلى بغدان الأول دركش (١٣٥٢م) وهو الاسم الذي يطلقه الأتراك على مولدافيا، واستقلت الأفلاق والبغدان بموجب معاهدة أدرنة (١٨٢٩م). دائرة المعارف الإسلامية، ا لد الرابع، ص ٢و٢٣.

(٥) جرانت وتمبرلي، مرجع سابق، ص ١٨، العظمة، مرجع سابق، ص ٣٣٨، وانظر: حسون، مرجع سابق، ص ٢٣١.

ب- إعلان الحرب وأهم مجرياتها:

هكذا بعد التطورات السابقة الذكر وجد العثمانيون أنفسهم وجهاً لوجه أمام الروس وشركائهم، ولقد وقفت الدول الأوروبية من هذه الحرب موقف المتفرج على الأحداث، حتى أن إنكلترا التي كان يعتقد العثمانيون أنها حليفتهم وقفت موقفاً سلبياً من الحرب وانتظرت مع غيرها النتائج التي ستسفر عنها هذه الحرب[١].

وتعد هذه الحرب من أكبر المصاعب التي واجهت السلطان عبد الحميد الثاني مع بداية تسلمه للحكم وجاءت وبالاً على الدولة العثمانية، فروسيا في القرن الأخير نمت نمواً كبيراً، حيث زاد عدد سكانها أربعة أضعاف عن سكان الدولة العثمانية، كما وقد تحالفت مع روسيا كل المناطق والشعوب السلافية كما أسلفنا بسبب الدعوة سابقة الذكر.

ولقد هيأ الروس أنفسهم بشكل جيد لخوض غمار هذه الحرب وكأنهم أرادوا حصولها ولكن العثمانيين كانوا على النقيض منهم، فهم لم يكونوا راغبين في القتال ذلك بسبب عدم جاهزيتهم لها[٢].

أهم أحداثها:

قبل إعلان الحرب بين الدولتين العثمانية والروسية قامت القوات الروسية بعبور الحدود الرومانية باتجاه الدولة العثمانية وعبرت نهر الدانوب[٣] الفاصل بينهما، حيث كانت إمارة رومانيا قد تعاهدت مع روسيا سراً بتاريخ ١٦ نيسان ١٨٧٧م، وبموجب هذا العهد تم وضع الأراضي الرومانية كافة تحت تصرف الروس من أجل المرور عبرها وقطع نهر الدانوب باتجاه الممتلكات العثمانية، ورداً على تقدم الروس عبر نهر الدانوب أمر الباب العالي بإرسال بعض السفن الحربية إلى هذا النهر لمعاقبة الدولة

(١) أ.ج.جرانت وهارولد تمبرلي، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق، ص ١٨، حسون، مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٢) أرسلان، مرجع سابق، ص ٣٠٠-٣٠١، البرجاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٦-٢٥٧.

(٣) ر الدانوب: أو طونة ر في أوربا يبلغ طوله (٢٨٦٠ كم) يقع في الغابة السوداء (ألمانية الغربية) ويخترق ألمانيا، النمسا، يوغسلافيا، رومانيا، وبلغاريا ليصب في البحر الأسود صالح للملاحة. المنجد في الأعلام، ص ٢٨١.

الرومانية وهذا الأمر دفع برومانيا إلى إعلان استقلالها عن الدولة العثمانية في ١٤ أيار ١٨٧٧ م والدخول في الحرب ضدها إلى جانب روسيا[١].

في هذه الأثناء كانت القوات الروسية تتقدم في بلغاريا[٢] فاحتلت مدينة (ترنوة)[٣] و(نيكوبلي)[٤] ومضائق البلقان ولم يبق بينها وبين الآستانة سوى خطوات[٥].

وقد كادت الحرب أن تنتهي بفشل ذريع للعثمانيين لو لا تبديل قام به الجيش العثماني في قيادته فتزعم القيادة عثمان باشا[٦] الذي كان يلقب بـ (قاهر الصرب) حيث تمكن هذا القائد العثماني بعبقريته العسكرية من وقف تقدم القوات الروسية في بلفنا[٧] وتحصن في قلعتها وهناك استطاع من خلف المتاريس أن يصد كل الهجمات الروسية وجمد القوات الزاحفة نحوه قرابة خمسة أشهر[٨].

---

(١) البرجاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٢) بلغاريا: تقع بين يوغسلافيا واليونان ورومانيا وتركيا في منطقة البلقان عاصمتها صوفيا احتلها الأتراك (١٣٩٦م) وحصلت على استقلالها عن طريق روسيا في معاهدة سان استيفانو (١٨٧٨م) جزئت في مؤتمر برلين إلى إمارة مستقلة في الشمال وولاية الروملي في الجنوب، وعليها حاكم مسيحي يعينه السلطان العثماني توحدت في دولة مستقلة (١٩٠٨م). المنجد في الأعلام، ص ١٤١.

(٣) ترنوة: مدينة بلغارية.

(٤) نيكوبلي: مدينة بلغارية على الدانوب أسسها هرقل (٥٧٥م-٦٤٢م)، عندها انتصر بايزيد على جيش ا ر وفرنسا (١٣٩٦م) احتلها الروس (١٨١٠م-١٨٧٧م). المنجد في الأعلام، ص ٧٢١.

(٥) حسون، مرجع سابق، ص ٢٣١-٢٣٢. البرجاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٦) عثمان باشا قاهر الصرب: وهو عثمان نوري باشا (١٨٣٧م-١٩٠٠م) قائد تركي حارب في القرم ولبنان وكريت وبلاد العرب ورقي إلى رتبة مشير لانتصاراته في بلاد الصرب (١٨٧٦م) دافع ببسالة عن بلافنا في بلغاريا في الحرب الروسية التركية (١٨٧٧م-١٨٧٨م) ضد هجمات الروس المتكررة التي أجبرته على الاستسلام في النهاية. غربال، مرجع سابق، ج٢، ص ١١٨٨.

(٧) بلفنا: قرية بلغارية على الشاطئ الأيمن من ر فيد اشتهرت في التاريخ بتحصن القائد العثماني عثمان باشا ا في الحروب التي نشبت فيها بين الروس والدولة العثمانية سنة (١٨٧٦م). وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م، ١٠ أجزاء، ا لد الثاني، ص ٣٤٣.

(٨) جرانت وتمبرلي، مرجع سابق، ص ١٨.

وقد حاول الروس مراراً وتكراراً الهجوم على حصون هذه القلعة، ولكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل، فقد فقدوا في مرة واحدة فقط خمسة عشر ألف عسكري، ولكن مع نفاذ ذخيرة عثمان باشا ووصول الإمدادات العسكرية والمادية من الإمارة الرومانية، حيث أن القيصر الروسي إسكندر الثاني ذهب بنفسه إلى رومانية واستصرخ شعبها واستنجد بهم باسم النصرانية فأمده الرومانيون بسبعين ألف جندي.

وبذلك أطبق الروس على القوات العثمانية في بلفنا، وازداد الوضع تأزماً مع إصابة القائد العثماني عثمان باشا بجروح بليغة في أرض المعركة مما دفعه إلى طلب الاستسلام، وفعلاً تم الأمر وزحفت القوات الروسية على الآستانة واحتلت أدرنة ووصلت حتى سان استفانو[(١)(★)].

قُدر عدد الجيش العثماني في هذه المعركة بحوالي (٥٠) ألف جندي عثماني مقابل (١٥٠) ألف روسي و(٧٧) مدفع عثماني مقابل (٦٠٠) مدفع روسي[(٢)].

لقد قام العثمانيون بإعداد العدة من أجل التصدي للزحف الروسي على الآستانة رغم إدراكهم لضخامة عدد وعتاد الجيش الروسي[(٣)].

استغل الإنكليز ظروف الهزيمة العثمانية وقام الأسطول الإنكليزي باجتياز مضيق الدردنيل ووصلوا إلى مياه الآستانة بحجة حماية الرعايا الإنكليز في الآستانة، واستطاعوا التوصل إلى عقد معاهدة مع الباب العالي تقضي بصد غارات الروس عن

---

(١) أرسلان، مرجع سابق، ص ٣٠١-٣١٢.

(★) سان استيفانو: وهي قرية تقع بالقرب من استانبول وتسمى حاليا يزيلكوي وفيها وقعت معاهدة سان استيفانو (١٨٧٨م) التي أ يت بموجبها الحرب الروسية التركية. غربال، مرجع سابق، ج١، ص ٩٥٠.

(٢) حسون، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(٣) البرجاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٩-٢٦٠.

البلاد العثمانية. ولكن النتيجة كانت هي احتلال جزيرة قبرص[١] من قبل الإنكليز وضمها بشكل دائم إلى التاج البريطاني[٢].

ومع ازدياد الأوضاع سوءاً على جبهات القتال من حصول هزائم متلاحقة للعثمانيين واشتداد البرد القارس والثلوج الكثيفة في تلك الفترة من العام، طلب الباب العالي من الدول الأوروبية العظمى التوسط من أجل وقف القتال، ولكن الروس استمروا في تقدمهم فوجهوا جنودهم إلى ما وراء جبل البلقان للإغارة على بلاد البلغار[٣] والروملي الشرقية[٤] ودخلوا صوفيا[٥] في ٤ كانون الثاني ١٨٧٨م ثم فليبة[٦] فأدرنة[٧] في ٢٠ كانون الثاني وتقدموا بسهولة باتجاه الآستانة حتى لم يبق بينهم وبينها إلا (٥٠) كم فقط، واحتل أهالي الجبل الأسود الصرب في الوقت نفسه بعض المدن والمواقع وبذلك أصبح وضع الدولة العثمانية حرجاً جداً فسارع السلطان عبد الحميد الثاني إلى طلب المساعدة من بريطانيا من أجل وقف القتال ولكن القيصر الروسي إسكندر الثاني رفض تدخل أي دولة خارجية بين الدول المتحاربة

---

(١) جزيرة قبرص: جزيرة في شرقي البحر المتوسط ما بين تركيا وسوريا عاصمتها نيقوسيا حالياً احتلها الإنكليز (١٨٧٨م) واستقلت (١٩٥٩م)، نزحت إليها جاليات من الموارنة منذ القرن الثاني عشر حتى السادس عشر. المنجد في الأعلام، ص ٥٤٤.

(٢) العظمة، مرجع سابق، ص ٣٣٨.

(٣) بلاد البلغار: هي نفسها بلغاريا وذكر تعريفها.

(٤) الروملي الشرقية: أو بلاد الروم: اسم أطلقه الأتراك على الإقليم الشامل تراقيا ومقدونيا بين البلقان والبحر الأسود وبحري مرمرة وإيجه وسلسلة جبال البلقان وكانت تؤلف ولاية واحدة عدد سناجقها ٢٤ سنة ١٨٣٠. المنجد في الأعلام، ص ٣١٤-٣١٥.

(٥) صوفيا: عاصمة بلغاريا، تقع غربي البلاد كانت عاصمة داقيا الرومانية. المنجد في الأعلام، ص ٤٢٨.

(٦) فيلبية: مدينة في مقدونية وجه القديس بولس رسالة إلى أهلها. المنجد في الأعلام، ص ٥٣٨.

(٧) أدرنة: مدينة في الجزء الأوربي من تركيا، من مدن الإمبراطورية البيزنطية فتحها الأتراك (١٣٦١م) فأصبحت مقراً لسلاطينهم حتى فتح القسطنطينية (١٤٥٣م). المنجد في الأعلام، ص ٢٦.

وذلك من خلال الجواب الذي رد به على طلب الملكة الإنكليزية فيكتوريا[1] المتعلق بوقف القتال[2].

وهكذا بعد ازدياد الأوضاع سوءاً وجد السلطان عبد الحميد الثاني نفسه مضطراً إلى قبول شروط روسيا ، فأرسل مندوبين من قبله إلى الخطوط الروسية دون أن يعلم بذلك أحد من الدبلوماسيين الأجانب، وذلك عملاً بالشرط الأول الذي وضعه القيصر الروسي بإجراء المفاوضات بسرية تامة. حرص القيصر الروسي على السرية من أجل الحصول على عدد أكبر من المكاسب من الدولة العثمانية من دون تدخل الدول الأجنبية وخاصة إنكلترا ، وكان له ما أراد من خلال توقيعه لمعاهدة سان استفانو الجائرة مع العثمانيين.

معاهدة سان استفانو /٣ آذار / ١٨٧٨ م/:

قضت هذه المعاهدة بما يلي:

١- استقلال إمارة الجبل الأسود وتوسيعها بضم بعض الأراضي لها من البوسنة والهرسك وميناء أنتيفاري [3] على ساحل بحر الأدرياتيك.

٢- استقلال بلاد الصرب وضم مقاطعتي نيس[4] ومتروفتزا[5] إليها.

٣- تطبيق الإصلاحات التي اقترحها مؤتمر الآستانة على الباب العالي من البوسنة والهرسك تحت إشراف روسيا والنمسا معاً.

---

(١) الملكة فيكتوريا: (١٨١٩م-١٩٠١م) ملكة إنكلترا ١٨٣٨م عملت على إحداث تقارب بين إنكلترا وفرنسا، نودي ا إمبراطورة على الهند ١٨٧٦م، خلفها على العرش ابنها إدوارد السابع. المنجد في الأعلام، ص ٥٢٩.

(٢) نص الجواب الذي أرسله القيصر الروسي إلى الملكة فيكتوريا حول طلبها بوقف القتال بين روسية وتركيا: "إن قادة الجيوش الروسية في أوروبا وآسيا هم وحدهم يعرفون الشروط التي تتفق مع تحقيق وقف الحرب". هذا عني طبعاً إلزام الباب العالي بالتفاوض معه مباشرة. البرجاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

(٣) ميناء انتيفاري: أو أنتيفوري: مدينة تقع في جنوبي غربي إمارة الجبل الأسود، ميناء على البحر الأدرياتيكي. أطلس العالم الكبير، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، ص ٤٦٠.

(٤) نيس: أونيش مدينة في الجزء الغربي من يوغسلافيا حكمها الأتراك (١٣٨٦م) إلى (١٨٧٨م)، ومركز هام للسكك الحديدية، غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج٢، ص ١٨٦٦.

(٥) متروفتزا: مقاطعة تقع في شمال غرب صربيا حالياً بالقرب من الحدود الشرقية الكرواتية. أطلس العالم الكبير، مرجع سابق، ص ٤٥٨، ٤٥٩.

٤- تدمير القلاع الواقعة على ضفتي نهر الدانوب.

٥- استقلال رومانيا وضم جزء من إقليم دوبروجيه[١] إليها مقابل تنازلها لروسيا عن جنوب بسارابيا[٢].

٦- تنازل الدولة العثمانية لروسيا عن قلعة قارص[٣] في أرمينيا وعن ميناء باطوم[٤] وأراضٍ أخرى في آسيا.

٧- قيام بلغاريا الكبرى الممتدة من نهر الدانوب إلى بحر إيجة[٥] مع تمتعها بالاستقلال الذاتي تحت الوصاية الروسية.

٨- فرض غرامة مالية كتعويضات على الدولة العثمانية بلغت (١,٤١٠,٠٠٠,٠٠٠) روبل[٦] أي (٢٤٥,٢١٧,٣٩١ ليرة عثمانية)، وبسبب إفلاس الدولة العثمانية وعدم قدرتها على الدفع قَبِل القيصر الروسي بأن تتنازل الدولة العثمانية عن الأراضي التي سيطرت عليها في أثناء الحرب مع الروس.

كما وافقت الدولة العثمانية على فتح المضائق في أوقات السلم والحرب أمام السفن الروسية[٧].

---

(١) إقليم دوبروجيه منطقة في ورمانيا وبلغاريا بين البحر الأسود و .ر الدانوب. المنجد في الأعلام، ص ٢٨٩.

(٢) بسارابيا: منطقة في غرب الاتحاد السوفيتي (سابقاً) على حدود رومانيا وضفاف البحر الأسود. المنجد في الأعلام، ص ١٣١.

(٣) قارص: وهي عبارة عن مدينة موجودة في شرق تركيا في أرمينيا أخذها الروس من الأتراك (١٨٨٢م) ولكنها ردت لهم (١٩٢١م). غربال، مرجع سابق، ج٢، ص ١٣٦٠.

(٤) باطوم : مرفأ على البحر الأسود وهو حالياً لتصدير النفط والفحم الحجري. المنجد في الأعلام، ص ١١٢.

(٥) بحر إيجه أو بحر الأرخبيل: يقع بين اليونان وتركيا وجزيرة كريت اسمه نسبة إلى والدتيزيوس ملك أثينا الأسطوري. المنجد في الأعلام، ص ١٠٠.

(٦) روبل: وهي وحدة العملة في روسيا ويقسم الروبل إلى ١٠٠ كوبيك. عطية الله، أحمد، القاموس السياسي، مرجع سابق، ص ٥٧١.

(٧) حسون، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٣٣-٢٣٤. البرجاوي، مرجع سابق، ص ٢٥٩-٢٦٠. العظمة، مرجع سابق، ص ٣٣٨-٣٣٩. فريد بك، محمد، تاريخ الدولة العلية، تحقيق: إحسان حقي، ٢٠٠٣، ط٩، ص ٦٥١-٦٦٣. للتوسع في معاهدة سان استفانو.

لم تحظ هذه المعاهدة باعتراف كلٍ من إنكلترا وألمانيا فقد دعت هاتان الدولتان إلى مؤتمر ينعقد في برلين[1] لمراجعة هذه المعاهدة وإعادة النظر في بنودها وبالتالي تسوية نتائج الحرب التركية الروسية. وقد وافقت روسيا مرغمة على قبول هذه الدعوة، فاجتمع المؤتمرون في ١٣ حزيران ١٨٧٨م برئاسة الأمير بسمارك[2].

وبعد مناقشات ومفاوضات استمرت مدة الشهر وقعت معاهدة برلين في ١٣ تموز ١٨٧٨م وهي تحتوي على ٦٤ مادة وخلاصة ما جاء فيها ما يلي: منح رومانيا والجبل الأسود الاستقلال التام وبلغاريا استقلالاً ذاتياً على أن تدفع جزية سنوية للسلطان العثماني وانتزعت منها مقدونيا[3].

أما الروملي بلغاريا الجنوبية، فقد جعلت ولاية مع استقلال ذاتي تحت سيادة الدولة العثمانية على أن يحكمها والٍ مسيحي وتخضع لرقابة الدول العظمى المشتركة.

أما روسيا فقد حصلت على باطوم[4] وقارص وإقليم بساربيا من رومانيا على أن تضم هذه الأخيرة إليها إقليم دوبروجيه الذي كان داخلاً في نطاق بلغاريا، وأما النمسا فقد أعطيت الحق باحتلال البوسنة والهرسك وسنجق-نوفي بازار[5] عسكرياً مع إدارتها دون فصلها رسمياً عن الدولة العثمانية أي أنها بقيت تابعة لها اسميًا.

(١) برلين: وهي عاصمة ألمانيا وبروسيا سابقاً، تقع شمال ألمانيا في مقاطعة براندنبرج على نهري شيري وهافل، كانت عاصمة بروسيا (١٧٠١م)، ثم توحدت مع ألمانيا (١٨٧١م)، احتلتها القوات الروسية والنمساوية (١٧٦٠م)، والفرنسيون (١٨٠٥م)، والحلفاء (١٩٤٥م). غربال، مرجع سابق، ج١، ص ٣٥٢.

(٢) بسمارك: (١٨١٥-١٨٨٩) من مشاهير السياسين الألمان، وأحد الذين حققوا الوحدة الألمانية، وجعلوا ألمانيا في مقدمة الدول الاستعمارية في القرن (١٩). المنجد في الأعلام، ص ١٣٢.

(٣) مقدونيا: بلاد في شبه جزيرة البلقان، دخلها الأتراك (١٣١٧م)، تقاسمها بعد الحرب العالمية الأولى كل من بلغاريا ويوغسلافيا واليونان. المنجد في الأعلام، ص ٦٧٩.

(٤) باطوم: مدينة تقع في إقليم جورجيا على البحر الأسود، تنازلت عنها تركيا لروسيا سنة (١٨٧٨م). غربال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج١، ص ٣١٣.

(٥) سنجق نوفي بازار: وهي مدينة في الصرب الغربية، احتلته القوات النمساوية، وكان فيما سبق تركياً (١٨٨٩-١٩٠٨)، وانتقلت السيادة عليه إلى الصرب (١٩١٣م) بعد الحروب البلقانية. غربال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج٢، ص ١٨٦٠.

وأما بالنسبة إلى اليونان فقد أضيف لها جزء من الأراضي لتوسيع حدودها من جهة الشمال مع أنها لم تشترك في الحرب، وطالب المؤتمر أيضاً بإجراء إصلاحات داخلية بشأن تحسين حال المسيحيين وخصوصاً الأرمن[١]، وقد وقع معاهدة برلين كل من مندوبي الدول الآتية: ألمانيا، النمسا، المجر، فرنسا، بريطانيا العظمى، إيطاليا، روسيا - تركيا (الدولة العثمانية).

وكان من أهم نتائج هذه الحرب خسارة الدولة العثمانية لمعظم أجزاء شبه جزيرة البلقان في أوربا حيث لم يبقَ فيها سوى تراقيا[٢] أي ولايتي استانبول وأدرنة ومقدونيا وألبانيا[٣].

لقد جرت أحداث هذه الحرب في فترة ولاية راشد ناشد باشا على دمشق حسبما أورد الحصيني في كتابه منتخبات تواريخ دمشق[٤].

ورغم كل هذه المفاوضات والمعاهدات لم تستقر الأوضاع في منطقة البلقان واستمر التمرد فيها ضد الدولة العثمانية، وكان من أسبابه الرئيسة التحريض الخارجي من قبل الدول المحيطة بهذه المناطق وخاصة روسية، والسبب الآخر هو نمو روح القومية بين هذه الشعوب مع إشراف القرن التاسع عشر على النهاية. ولكن لنا كلمة لقد أذهبت هذه الحرب ونتائجها هيبة الدولة العثمانية وأفقدتها الكثير من ممتلكاتها وكان الأجدر بالسلطان عبد الحميد الثاني أن يدفع بآخر جندي له في أرض المعركة على ألا يفقد جزءاً من هذه الأراضي، فمنذ ذلك الحين بدأ الانهيار الحقيقي في الدولة العثمانية يتراءى للجميع، وبدأت الدولة العثمانية شيئًا فشيئًا تخسر ممتلكاتها، كما استبيحت حدود هذه الدولة حتى أدى في النهاية إلى

---

(١) الأرمن: سنفرد لهم باباً خاصاً في الفقرات القادمة من البحث.

(٢) تراقيا: منطقة جنوب أوربا الشرقية تتقاسمها منذ (١٩١٩) اليونان وبلغاريا وتركيا. اليونان - بلغاريا (تراقيا الشمالية أو الروملي الشرقية) وتركيا (تراقيا الشرقية) وأهم مد ا استانبول. المنجد في الأعلام، ص ١٨٤.

(٣) انظر: البرجاوي، أحمد سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٦٢-٢٦٣-٢٦٤، وانظر: أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، مرجع سابق، ص ٢٤-٣١.

(٤) الحصني، محمد أديب، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٠-٢٧١.

سقوطها بشكل كامل وتقاسم أعدائها أراضي ممالكها ولاسيما العربية منها فيما بينهم.

خامساً: الحرب اليونانية العثمانية (١٣١٤هـ/١٨٩٧م):

استطاعت اليونان أن تحصل على استقلالها من الدولة العثمانية من خلال معاهدة أدرنة[١] وذلك في سنة (١٢٤٥هـ/١٨٣٠م) بعدما خاض الشعب اليوناني العديد من المعارك والمواجهات مع الدولة العثمانية التي بدأت بإعلان الثورة والاستقلال عن الدولة في سنة (١٢٣٧هـ/١٨٢٢م)، فاستدعى الأمر استنجاد السلطان بواليه في مصر. محمد علي باشا الذي كاد أن يحرز الانتصار لولا الهزيمة التي لحقت بالأسطولين العثماني والمصري، وبالتالي اضطر السلطان محمود الثاني[٢] أن يوقع اتفاقية أدرنة التي اعترفت بموجبها الدولة العثمانية باستقلال اليونان عنها بالحدود التي وضعتها الدول الأوربية في تلك المعاهدة[٣].

ولكن اليونان لم تكن مقتنعة بتلك الحدود وكانت دائماً تحاول أن تكسب المزيد من الأراضي وتضمها إلى دولتها بين الحين والآخر، فقد طالبت من خلال حضورها في مؤتمر برلين السابق الذكر الذي عُقد لحل الأزمة الروسية العثمانية

---

(١) أدرنة: هي أكبر مدينة في تركية بعد الآستانة وعاصمة ولاية أدرنة وكانت عاصمة السلطنة العثمانية قبل فتح القسطنطينية.
معاهدة أدرنة: وقعت في ٢٤ أيلول ١٨٢٩ بين السلطان العثماني محمود الثاني والقيصر الروسي نيقولا الأول، وتخلى العثمانيون بموجبها عن جزر الدانوب والمقاطعات التركية في القوقاز، واحتلال روسيا لولايتي الدانوب مقابل جزية تدفعها روسيا للعثمانيين واستقلال اليونان. انظر محمد كمال، الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، ١٩٧٦، ص ١٥١-١٥٢. وحقي العظم، تاريخ حروب الدولة العثمانية مع اليونان، ط١، مطبعة الترقي بمصر، (١٣١٩هـ/١٩٠٢م)، ص ١٠.

(٢) السلطان محمود الثاني: ولد سنة ١١٩٩هـ، وجلس على العرش سنة ١٢٢٣هـ الموافقة ١٨٠٨م وكان عمره ٢٤ سنة مدة سلطنته ٣٢ سنة، ومن أهم أعماله القضاء على الإنكشارية سنة ١٨٢٦م-١٨٢٨م، كما حدث في عهده استقلال اليونان سنة (١٢٤٥هـ-١٨٣٠م). حليم، إبراهيم بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مرجع سابق، ص ٢٨٩-٢٩٤.

(٣) انظر: أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٧٧-٢٨٤.

بضم جزيرة كريت وتسالي وابيروس[١] إلى بلاد اليونان حيث وافق المؤتمرون على ضم كل من تسالية وأبيروس إلى اليونان[٢]. وبالنسبة لجزيرة كريت فقد بقيت تحت الحكم العثماني. ولكن اليونان لم تيأس من الحصول على الجزيرة، فاستمرت في دعم أهالي جزيرة كريت من خلال المنظمات والجمعيات التي شكلتها فيها، وذلك من أجل المطالبة بضمها إلى الوطن الأم اليونان، وازدادت الخلافات حدة وشدة بين المسيحيين في الجزيرة والمسلمين الذين يشكلون الأقلية فيها.

كان أغلبية سكان جزيرة كريت من المسيحيين ذوي الأصول اليونانية، وهؤلاء قاموا بعدة محاولات في سبيل التمرد للتحرر والانضمام إلى الوطن الأم اليونان، ولكن هذه المحاولات كلها باءت بالفشل على الرغم من دعم الدول الأوربية لهم[٣].

وفي أثناء ثورة الأرمن[٤] اغتنم السلطان عبد الحميد الثاني الفرصة لكي يعين حاكماً مسلماً على الجزيرة بدلاً من الحاكم المسيحي (الذي فرضته معاهدة برلين)، وكانت هذه الشعلة التي أوقدت الثورة في الجزيرة ضد العثمانيين حيث استنجد أهلها على الفور بالدولة اليونانية لمساعدتهم ضد العثمانيين، فقامت اليونان بإرسال قوات من الجيش اليوناني إلى الجزيرة.

ومع وصول طلائع الجيش المؤازرة إلى كريت، كانت الوحدات الأخرى من الجيش اليوناني قد اجتازت الحدود التركية، وبموجب أمر عسكري صدر في ١١ رمضان ١٣١٤هـ / ١٢ شباط ١٨٩٧م، أعلنت اليونان التي بلغ عدد جنودها حوالي ٢١٠٠٠٠ جندي الحرب على الدولة العثمانية فصدرت الإرادة السنية في ١٣ رمضان

---

(١) أبيرس: إقليم يقع شمال بلاد اليونان الغربي وجنوبي ألبانيا، أقيمت في عهد الصليبيين دولة مستقلة في اية القرن الثامن عشر، حاول علي باشا أسد يانيا إنشاء دولة مستقلة في أبيروس وألبانيا. غربال، محمد شفيق، مرجع سابق، ج١، ص ٤٢.

(٢) الدسوقي، محمد كمال، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، مرجع سابق، ص ٢٥٨-٢٥٩.

(٣) أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٢٠-٣٢١.

(٤) حول ثورة الأرمن ستذكر بالتفصيل في فقرة لاحقة، ص ٤٦.

١٣١٤هـ الموافق ١٥ شباط ١٨٩٧م بجمع الفرق العسكرية التالية: الفيلق الأول والثاني والثالث والرابع، وذلك لمواجهة القوات اليونانية[1].

لقد وقف كلٌّ من ألمانيا والنمسا على الحياد في هذه الحرب، بينما دعمها كل من إنكلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا. تلاقت السفن اليونانية التي كان أغلب جنودها من المتطوعين مع خمس من السفن العثمانية باتجاه بحر مرمرة[2] محملة بما يقارب (١٥٠) ألف جندي عثماني، واشتبك الجيشان في حرب دامت ثلاثين يوماً أحرز فيها الجيش العثماني انتصاراً ساحقاً على اليونانيين، مما استدعى تدخل الدول الأوربية الكبرى والتي قامت بإرسال سفنها الحربية إلى الجزيرة لمساندة القوات اليونانية.

وطالبت هذه الدول على الفور بعقد مؤتمر سلام في الآستانة من أجل حل القضية بين الطرفين فكانت النتيجة هي تجميد قضية كريت إلى إشعار آخر، وأيضاً إخراج القوات العثمانية من اليونان بعد أن أحرز الجيش العثماني تقدماً فيها، وبالتالي كانت النتيجة الفعلية هي تصحيح الحدود بين تركية واليونان، وكان مجموع ما استردته الدولة من إقليم تساليا هو عبارة عن قريتين فقط، وأجبرت اليونان على دفع غرامة حربية (أربعة ملايين جنيه)[3] كلفة الحملة العثمانية[4]، ومن نتائجها أيضًا تهجير العديد من المسلمين الكريتيين من الجزيرة، وترحيلهم إلى كل من دمشق [وهم الذين سكنوا حي المهاجرين الذي نسب إليهم (سبق ذكره)].

---

(١) للتوسع انظر البرجاوي، أحمد سعيد، الأمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٦٩. وانظر: العظم، حقي، تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٢) بحر مرمرة: بحر داخلي متفرع عن المتوسط يفصل أوربا (تراقيا التركية) عن آسيا (تركيا الآسيوية) يتصل بالبحر الأسود بواسطة البوسفور وبحر إيجه بواسطة الدردنيل فيه العديد من الجزر أهمها مرمرة. المنجد في الأعلام، ص ٦٥٦.

(٣) الجنيه: وهو وحدة عملة الدول المشتركة في مجموعة الكومنولث ويرتبط بالجنيه الإنكليزي (الإسترليني) وهناك جنيه أسترالي ونيوزلندي وإيرلندي وسوداني وغاني وغيرها. عطية الله، أحمد، مرجع سابق، ص ٤١٥.

(٤) انظر: البرجاوي، أحمد سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٦٩-٢٧٠. أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣٢١-٣٢٢. والعظمة، عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٣٥٨. والعظم، حقي، تاريخ حروب الدولة العثمانية مع اليونان، مصر، مطبعة الترقي، ط١، ١٩٠٢، ص ٢٠٥-٢٠٦-٢٠٧.

والبعض ذهب إلى الإسكندرية ومجموعة أخرى أسكنت منطقة الجبل الأخضر في برقة في ليبية[1].

سادساً: مجلس المبعوثان:

لا بد لنا قبل الحديث عن مجلس المبعوثان من أن نتكلم عن أول دستور صدر في الدولة في بداية حكم السلطان عبد الحميد الثاني.

هذا الدستور الذي من خلاله صدرت المراسيم بتشكيل ما سمي بمجلس الأعيان ومجلس المبعوثان (النواب) والذي ضم ممثلين عن الولايات في الدولة العثمانية كما سنورد في شرح كيفية تشكيل هذين المجلسين فيما بعد.

الدستور:

الدستور كلمة فارسية الأصل دخلت اللغة التركية ثم شاعت في اللغة العربية وأصبحت لها عدة معانٍ تطورت مع الزمن، غير أن لفظ دستور يطلق اليوم في أكثر الدول بمعنى القانون النظامي أو القانون الأساسي أو مجموع القواعد الأساسية التي تقرر الحكم للدولة وسلطة الحكومة وطرق توزيع هذه السلطة وكيفية استعمالها كما تبين حقوق الأفراد وواجباتهم[2].ولقد سمى الأتراك الدستور باسم القانون الأساسي، كما اصطلحوا تسمية العهد الدستوري بـ عهد المشروطية، والمشروطية تعني أن تكون سلطة السلطان مقيدة أو مشروطة بقيود يعينها ويقررها الدستور[3].

---

(١) أرسلان، شكيب، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

(٢) أحمد عطية، القاموس السياسي، مرجع سابق، ص ٥٢١-٥٢٢.

(٣) محمد عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤م)، تقديم: أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٥٢١. وانظر: الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ١٩٦٠، ص ٩٧.

الدستور القديم:

توفي السلطان العثماني سليمان القانوني سنة ١٥٦٦م[1] عن ملك ضخم وغادر الدولة إبان مجدها وأوج عظمتها، ولكن خلفاءه من بعده لم يتمكنوا من الحفاظ على كيان هذه الدولة مهابة الجانب كما كانت في عهده، واستبدت الإنكشارية بالحكم وخاصة في عهد السلطان سليم الثالث[2] سنة ١٧٨٩م الذي أراد أن يقوم بشيء من الإصلاح فلمّح وصرّح فيما بعد بميله إلى ترتيب الجند على النمط الحديث، فكانت النتيجة أن بطش به الإنكشارية ومات الإصلاح في مهده. غير أن السلطان محمود الثاني (١٧٨٤هـ-١٨٣٩م)، استطاع أن يطبق هذا الإصلاح وذلك بالقضاء على الجيش الإنكشاري وإحلال جيش منظم مكانه. لكنّ إصلاحاته اقتصرت على النواحي العسكرية، والقليل من المسائل الداخلية. وفي عهد السلطان عبد المجيد[3] قام بإصدار مرسوم الكلخانة (غرفة الورد) المشهور سنة ١٨٣٩م في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥هـ، وكان الهدف منه حل المسألة اليونانية والاتفاق مع محمد علي والي مصر، وذلك إرضاءً للضغوطات الأوربية[4] ولقد أحدث هذا المرسوم ضجة اهتزت لها أوربا وأخذ رجال الدولة منذ ذلك الحين ينظمون القوانين الخاصة لكل

(١) سليمان القانوني: ولد في أول شعبان سنة ٩٠٠هـ- ١٤٩٤م وجلس على العرش في ٤ شوال سنة ٩٢٦هـ- ١٥١٩م من أهم ما جرى في عهده ثورة جان برد الغزالي والي الشام وقد لقب بالقانوني لمحبته لتطبيق القانون وتطويره. حليم بك، إبراهيم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مرجع سابق، ص ١٢١-١٣٠.

(٢) سليم الثالث: ولد سنة (١١٧٥هـ- ١٧٦١م) وجلس على العرش سنة (١٢٠٣هـ-١٧٨٨م)، وكان عمره ٢٨ سنة، مدة سلطنته حوالي ٢٠ سنة، كان غيوراً على المملكة فطيناً استبشر الناس به خيراً، وأهم ما جرى في عهده الحملة الفرنسية على مصر ١٧١٨م، حليم بك، إبراهيم، تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص ٢٦٧-٢٨٢.

(٣) عبد ا يد: ولد سنة ١٢٣٧ﻫ وجلس على العرش سنة ١٢٥٥ﻫ-١٨٣٩م وكان عمره ١٨ سنة ومدة حكمه ٢٢ سنة، وفي عهده صدر مرسوم الكلخانة القاضي بمساواة جميع أفراد ا تمع العثماني ببعضهم). حليم بك، إبراهيم، مرجع سابق، ص ٢٩٩-٣٠٢.

(٤) العنزاوي، قيس جواد، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مركز دراسات الإسلام والعالم، الدار العربية للعلوم، ط١، ١٤١٤ﻫ-١٩٩٤م، ص ٥٩.

فرع من فروع الإدارة والقضاء، وكانت أعظم الأعمال التنظيمية في الدولة في تلك المرحلة هي ما سمي بمجلة الأحكام الشرعية[1].

وقام أيضاً الإصلاحيون قبل تلك المرحلة بنشر قانون الأراضي سنة ١٢٧٤هـ-١٨٥٧م وقانون الطابو وقانون الجزاء سنة ١٢٧٤هـ-١٨٥٧م. وقانون التجارة سنة ١٢٨٨هـ-١٨٧١م[2]، وكانوا يستوحون هذه القوانين من القوانين الأوربية وخاصة الفرنسية منها ناظرين إلى عدم مخالفة النصوص الشرعية. ووضعوا أيضاً قانون التابعية العثمانية، وقانون ترتيب المحاكم الشرعية، والمحاكم النظامية والمحاكم التجارية، ونظام الإدارة والملكية، ونظام إدارة الولايات، ونظام شورى الدولة، ووضعوا نظاماً للمعارف، ونظاماً للمطبوعات والمطابع وحقوق الطبع والتأليف والترجمة، ونظاماً للرسومات، وآخر للمعادن، وآخر للطرق والمعابد، وبذلك لم يتركوا شيئاً من لوازم إدارة الدولة حتى وضعوا لها قانوناً، ومجموع هذه القوانين والنظامات هو الذي كان معروفاً في بلاد

(١) مجلة الأحكام الشرعية وهي عبارة عن كتاب وحد القوانين القضائية في البلاد وذلك اعتماداً على قرار اللجنة التي ألفت في ذلك الوقت، وكان أبرز أعضائها جودت باشا ناظر ديوان الأحكام العدلية وبعض أعضاء ذلك الديوان وأعضاء شورى الدولة والأوقاف وغيرهم من العلماء كعلاء الدين بن عابدين فنظموا ذلك الكتاب، وأصدر السلطان عبد العزيز الإرادة السنية بشأنه سنة ١٨٧٢م). البستاني، سليمان، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، مرجع سابق، ص ٨١-٨٢-٨٣.

والسلطان عبد العزيز ولد سنة ١٢٤٥هـ، وجلس على العرش سنة ١٢٧٧هـ-١٨٦١م، وكان عمره ٣٢ سنة، في عهده حاول مدحت باشا تطبيق القانون الأساسي في البلاد، ولكن رفضه السلطان وعزله عن الصدارة العظمى. حليم بك، إبراهيم، تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق، ص ٣٠٧-٣١١.

(٢) ذكر محمد مختار باشا: صاحب كتاب التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية: أنه في ١٣ تموز سنة ١٢٧٤هـ-١٨٥٧م (٢٤شوال) صدرت لائحة تكفل فصل مشاكل الأطيان الخراجية في الديار المصرية ص ١٣٢٠. دراسة وتحقيق د.محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م). جزآن، الجزء الثاني.

وذكر أيضاً في الكتاب نفسه أنه في ١٣ جمادى الثاني ١٢٨٨هـ-١٨ أب ١٨٧١م: صدر أمر عال بخصوص لائحة المقابلة التي تتعلق بتأسيس إصلاحات مالية في البلاد المصرية، وفي ٦ شوال من العام نفسه صدر أمر عال بترتيب مجالس تفتيش الزراعة بحالة مستديمة بدلاً عما كانت في مواسم معينة في السنة. ص ١٣٣٦.

الدولة العثمانية باسم الدستور(Code).[1] ولكن الحكم كان لا يزال مطلقاً وإرادة السلطان فيه فوق كل إرادة يلغي ويضع ما يشاء من الأحكام وليست ثمة قيود عليه وعلى أفعاله.

الدستور الجديد (القانون الأساسي):

وفي المدة الوجيزة التي جلس فيها السلطان مراد الخامس[2] على عرش السلطنة كان مدحت باشا (أبو الدستور - سالف الذكر ١٢٣٨-١٣٠١هـ/١٨٢٢-١٨٨٤م) وأنصاره قد انتهوا من إعداد القانون الأساسي وترتيب نظام مجلس المبعوثان، فما أن تولى السلطان عبد الحميد الثاني السلطة حتى كانت قوانين الدولة قد أصبحت محكمة الوضع والترتيب تنافس في تنسيقها وأحكامها قوانين وأحكام أرقى الدول الأوربية في تلك المرحلة.

ولدى تكليف السلطان عبد الحميد الثاني مدحت باشا بمنصب الصدارة العظمى في ٤ ذي الحجة ١٢٩٣هـ الموافق ١٦ كانون الأول ١٨٧٦م[3] قام هذا الأخير على الفور بإصدار أول دستور للدولة العثمانية، وذلك لكي يتجنب رغبة الدول الأوربية في التدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية عقب أحداث الحرب مع روسية، وذلك بحجة رعاية حقوق الرعايا العثمانيين المسيحيين فألف مدحت باشا لجنة من ستة عشر موظفاً مدنياً, عشرة من علماء كبار رجال الدين وقائدين كبيرين من قادة الجيش، وعهد إليها مشروع صياغة دستور جديد للبلاد، وحين اجتمع مندوبو الدول الأوربية صباح يوم ٢٣ كانون الأول ١٨٧٦ في أول جلسة لمؤتمر

---

(١) تعني المدونة مجموعة قوانين دستور شفرة كتابة سرية ينظم أو يدرج في مدونة. Code البعلبكي، منير، المورد الوسيط، دار العلم للملايين، ط١، ص ١٢٠.

Moonir baalbaki Dr. Roht Baaibaki alwarri d.al-wasee7, concise diciionry English B:(120)

(٢) السلطان مراد الخامس: (١٨٤٠م-١٩٠٤م): سلطان الدولة (١٨٧٦م) بن السلطان عبد ا يد - ارتقى العرش بعد خلع عبد العزيز ولكن ما لبث أن أعلن أنه مخبول وخلفه أخوه السلطان عبد الحميد الثاني. غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، مرجع سابق، ج٢، ص ١٦٧٧.

(٣) جاء في كتاب التكليف الذي وجه له: (ولما كنتم جامعين للصفات المطلوبة والمستقيمة وجهنا منصب الصدارة لعهدة حميتكم). انظر عبد العزيز، محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٤٠.

القسطنطينية كان أول ما سمعوه هو صوت طلقات المدافع تحيي إعلان إصدار أول دستور للدولة العثمانية، وهذا الدستور الذي أصدره السلطان عبد الحميد الثاني بمساعدة مدحت باشا وإشرافه تحت اسم "قانون أساسي" يمثل خطوة طيبة على طريق الإصلاح في البلاد، فقد نص على إلغاء امتيازات العاصمة استانبول التي كانت تميز سكانها عن بقية سكان المدن والولايات الأخرى التي كانت تتمتع بنظم إدارية خاصة بها، وكان سكانها لا يدفعون ضريبة الدخل ولا يطالبون بأداء الخدمة العسكرية، وأطلق الدستور لفظ العثمانيين على جميع رعايا الدولة دون تفرقة، كما أقر للجميع الحرية الشخصية، ونص الدستور على أن دين الدولة هو الدين الإسلامي وأن الدولة تتولى حماية جميع المذاهب الدينية المعترف بها أيضاً، وتضمن حرية الصحافة في حدود ما يقره القانون، وتفتح المجال أمام كل العثمانيين لشغل مناصب الدولة وفقاً لكفاءتهم ودون تفرقة بشرط إجادتهم للغة التركية، ووضع دستور السلطة التشريعية في البلاد في يد مجلسين أحدهما للنواب وهو مجلس المبعوثان والآخر للشيوخ وهو مجلس الأعيان على أن يتمتع الأعضاء في المجلسين بحصانة برلمانية تمنع عنهم أي ضرر بسبب إبدائهم رأيهم وأن يعين السلطان أعضاء مجلس الأعيان ورئيسهم مدى الحياة، أما أعضاء مجلس النواب فيكون بالانتخاب[1] كما سنورد في الفقرة التالية.

ولقد قررت أيضاً اللجنة الدستورية بأن يكون مجلس النواب مسؤولاً عن ميزانية الدولة وأن تكون جلسات هذا المجلس علنية وأن تنشأ محكمة عليا مؤلفة من عشرة أعضاء في مجلس الأعيان وعشرة مستشاري دولة وعشرة مستشارين في محكمة الاستئناف يكون من صلاحيتها مقاضاة الوزراء والرؤساء وأعضاء محكمة الاستئناف والمتهمين بالعصيان والخيانة العظمى وأن تقوم إدارة الولايات على أساس اللامركزية وأن يكون التعليم الابتدائي إلزامياً بالنسبة إلى جميع العثمانيين[2].

---

(١) الدسوقي، محمد كمال، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، مرجع سابق، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٦٨، ص ٥٨٦-٥٨٧.

اشتقت مواد هذا الدستور من الدستور البلجيكي وذلك بعد تعديله بما يتوافق مع الشريعة الإسلامية باعتبارها دين الدولة العثمانية[١].

وكان نشر الدستور سبباً في التفاف الشعب حول السلطان عبد الحميد الثاني وفشل المؤتمر الأوربي في القيام بأي عمل من شأنه التدخل في سياسة الدولة العثمانية، ولكن سرعان ما بدأ السلطان عبد الحميد الثاني بتحطيم ذلك الدستور، فعزل مدحت باشا (١٢٩٤هـ-١٨٧٧م)[٢]، وأخذ يتعقب الأحرار وينفي دعاة الدستور والحرية، واتُّهم الدستور بأن الهدف من إعلانه هو سياسي أكثر من أن يكون اجتماعياً وأن قوانينه ليست إسلامية وأنها أدت إلى تقوية السلطة المركزية وفتحت الأبواب أمام النفوذ الأجنبي في البلاد، وهكذا صدر الحكم بإعدام مدحت باشا لاتهامه بالخيانة وبقتل السلطان عبد العزيز، ولكن الضغوطات الدولية خففت العقوبة إلى النفي مدى الحياة، والحقيقة أن السلطان عبد الحميد الثاني قد وافق على إصدار الدستور في البداية بهدف مواجهة الضغوطات الدولية ولكن حين واتته الفرصة أزاح مدحت والمصلحين الدستوريين الذين رأى في نشاطهم السياسي ما يفرض قيوداً على سلطته، ثم ما لبث أن أوقف الحياة النيابية ولجأ إلى الحكم الفردي المستند إلى بعض المفاهيم الإسلامية[٣].

ولكن فيما بعد اضطر السلطان عبد الحميد الثاني في أواخر حكمه من أن يعلن الدستور نفسه للمرة الثانية وذلك بسبب الضغوطات التي مارسها عليه أعضاء اللجنة المركزية لحركة الاتحاد والترقي وكان ذلك في ١٨ تموز ١٩٠٨م فصدر الخط الهمايوني الخاص بهذا الموضوع في ٦ رجب ١٣٢٦هـ الموافق ٢٤ تموز ١٩٠٨م[٤].

---

(١) حسون، علي، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٥٠.

(٢) يحيى، جلال، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، د.ط، ص ٢١٦-٢١٧.

(٣) أحمد عبد الرحيم، مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط٢، (١٤١٣هـ-١٩٩٣م)، بيروت، ص ٢٣٣-٢٣٤-٢٣٥-٢٣٦.

(٤) انظر البرجاوي، سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٧٢، وللتوسع في نص الخط الهمايوني، نفس المرجع، ص ٢٧٢-٢٧٣-٢٧٤-٢٧٥.

وبذلك عادت البلاد إلى الحياة النيابية من جديد على الرغم من إرادة السلطان عبد الحميد الثاني.

المجلس العمومي:

مع إعلان الدستور في ٢٣ كانون الأول ١٢٩٤هـ/١٨٧٦م، الذي تضمن ١١٩ مادة مستوحاة من الدستور البلجيكي، كان من ضمن نصوص هذا القانون إقامة ما سمي المجلس العمومي، ويتألف من مجلس المبعوثان (النواب) المنتخب ومجلس الشيوخ (الأعيان) المعين من قبل الباب العالي[١].

إن المجلس العمومي هو محور القانون الأساسي أي أساس الدستور، ويتكون من هيئتين: الأول: هيئة الأعيان والأخرى هيئة المبعوثان، وتجتمع كلتاهما في أول تشرين الثاني من كل عام، ويكون افتتاح وفض دورتيهما العاديتين (وتستغرقان أربعة أشهر) بإرادة سنية[٢]، ويحق للسلطان دعوة المجلس العمومي وافتتاحه قبل الموعد المحدد له، وله الحق أيضاً في إطالة مدة انعقاده.

يفتتح المجلس السلطان أو الصدر الأعظم أو نائب عنه في حالة الغياب، ويتمتع أعضاء المجلس العمومي بحرية إبداء الرأي وبالحصانة ضد التهم الموجهة إليهم بسبب إبداء آرائهم أو بيان أفكارهم، وورد في المادة (٥٠) من القانون الأساسي أيضاً أنه لا يجوز الجمع بين عضوية الأعيان والمبعوثان في الوقت نفسه[٣].

أ - تأليف مجلس الأعيان:

اشترط القانون الأساسي أن يكون عدد أعضاء مجلس الأعيان ثلث أعضاء مجلس المبعوثان، ويتم تعينهم من قبل السلطان مباشرة من الأشخاص الذين لهم خدمات جليلة ومشهورة في الدولة كالوزراء والولاة والمشيرين وقضاة العسكر والسفراء والبطاركة السابقين، ويشترط في العضو أن يكون قد بلغ الأربعين من العمر ومدة العضوية مدى

(١) البرجاوي، سعيد، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(٢) فارس، سليم، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، مطبعة الجوائب بالآستانة العلية، ط١، ١٩٢٥، ص ١٢.

(٣) فارس، سليم، مصدر سابق، ص ١٣-١٤، عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٤٢.

الحياة، وأما بالنسبة لمهمة أعضاء هذا المجلس فهي التدقيق في القوانين واللوائح التي تصدر عن مجلس المبعوثان، ولها الحق في رفض هذه القوانين قطعياً أو ردها إلى مجلس المبعوثان لإعادة النظر فيها وتعديلها، وفي حال تمت الموافقة على هذه القوانين واللوائح فإنها ترفع إلى الصدر الأعظم للموافقة عليها بشكل نهائي[1].

ب - تأليف مجلس المبعوثان:

(وذلك بكسر الحرف الأخير من الكلمة الأولى على قاعدة الإضافة الفارسية وزيادة علامة الجمع على الكلمة الثانية، مبعوث، أي مجلسي مبعوثان)[2].

ونص الدستور على أنه كل خمسين ألف نفس من ذكور الدولة العثمانية يمثله عضو منتخب في مجلس المبعوثان، ويتم هذا الأمر ضمن انتخابات سرية.

وأما بالنسبة لأهم الشروط اللازم توفرها في العضو فهي ما يلي:

١. أن يكون تابعاً للدولة العثمانية أي من مواطنيها.

٢. أن يكون متقناً للغة التركية.

٣. أن يكون قد أكمل الثلاثين عاماً.

٤. أن لا تكون عليه أحكام جزائية أو أحكام بالحجر، ولا يجوز لعضو في هذا المجلس أن يجمع بين عضويته في المجلس ووظيفة حكومية أخرى - باستثناء الوزارة.

وتجرى الانتخابات لهذا المجلس كل أربع سنوات، وتكون هذه مدة عضوية العضو في المجلس، ويحق له أن يرشح نفسه مرة ثانية في دورة أخرى، ويحصل على العضوية مرة أخرى، كما نص الدستور على أن العضو لا يمثل فقط المنطقة التي انتخب عنها أي لا يكون وكيلاً عن الدائرة التي انتخبته وإنما يكون في حكم وكيل عموم العثمانيين، وتناقش قضايا المجلس وتتلى مذكرته بشكل علني ويجتمع الأعضاء بموافقة السلطان وحضور نائب عنه في المجلس[3].

---

(١) فارس، سليم، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، ص ١٥-١٦، عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٤٢.

(٢) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٣) فارس، سليم، مرجع سابق، ص ١٥-١٩.

جـرت الانتخابـات لمجلـس المبعوثـان لأول مـرة في ١٠ شـوال ١٢٩٣هـ / ٢٨ تشـرين الثاني ١٨٧٦م[١]، ولقد قرر عدد النفوس في الولاية بشكل تقريبي فلم يكن قد أُجري إحصـاء لعـدد النفـوس منـذ فـترة طويلـة في الدولـة[٢]، ومنحـت المجـالس الإداريـة حـق انتخاب النواب وذلك باعتبار أن هذه المجالس منتخبة من الشعب فبالتـالي هـي ممثلة لـه فانتخابها بمثابة انتخاب الشعب لهم.

أمـا عـن كيفيـة إجـراء الانتخابـات فتُسـلم كـل ولايـة مـن اسـتانبول لائحـة بعـدد النواب الذين سيجري انتخابهم مـن كـل دائـرة مـن دوائـر الولايـات العثمانيـة موضحـاً فيهـا عـدد النـواب المسـلمين وغـير المسـلمين، ويبلـغ كـلٌ مـن متصـرف الولايـة[٣] وقـائم مقـام[٤] الأقضـية بهـذه اللائحـة، وبعـدها تبـدأ المجـالس الإداريـة المختلفـة في الولايـة وألويتها وأقضيتها بانتخاب النواب المطلوبين، ثم ترفع أسماء المرشـحين ضـمن ظـروف مختومة وترفع إلى الوالي، ثم يرسل الوالي جميع الأوراق الانتخابية إلى مجلس الدولـة في استانبول لإعادة فحصها وتدقيقها[٥].

لقـد فـاز في الانتخابـات الـتي جـرت لأول مـرة في الدولـة العثمانيـة في عـام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م عن ولاية سورية توفيق أفندي القدسـي[٦] وخالد أفندي الأتاسـي[١] عن

(١) عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٢) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، يوسف، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٣) متصرف الولاية: وهو مثل الوالي في اللواء ويعين بإرادة سلطانية ويخول حق الإشراف على الأمور الملكية والمالية والأمن ضمن دائرة الدولة. عوض، عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٤) قائم مقام الأقضية: رتبة عسكرية تقابلها اليوم رتبة عقيد الحاكم الإداري للقضاء باسم القائم مقام، والأقضية هي الأقسام الإدارية للواء وعلى رأس اللواء المتصرف أو المحافظ وما زال الاصطلاح مستعملاً في بعض أنحاء الدول العربية كالعراق وليبيا. عطية الله، أحمد، القاموس السياسي، ص ٩١٤.

(٥) عوض، عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٦) توفيق أفندي القدسي: وهو من بني القدسي في دمشق وهم ينتسبون إلى العائلة الحسينية ويعرفون بآل الحسيني ويرجعون بأصولهم إلى مدينة القدس وكان تاجراً في الآستانة تولى رئاسة محكمة الحقوق في جدة الحجاز ثم انتخب سنة ١٢٩٢هـ عن دمشق عضواً في مجلس الأمة ذهبت ثروته العظيمة في لعب البورصة ومات فقيراً سنة ١٣٣٩هـ. الحصني، محمد أديب، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٨٩٠.

حمص ونوفل بك[٢] عن لواء طرابلس الشام وحسين أفندي بيهم[٣] عن بيروت ويوسف ضيا أفندي الخالدي[٤] عن القدس ونقولا أفندي النقاش[٥] عن طرابلس وخليل أفندي غانم[٦] عن بيروت.

وكان جميع هؤلاء النواب من العرب وقد بلغ عدد الأعضاء العرب في هذا المجلس ستة عشر نائباً منهم خمسة نواب عن ولاية سوريا ونائبان عن الحجاز وأربعة نواب عن ولاية حلب وثلاثة عن ولاية بغداد واثنان عن ولاية طرابلس الغرب، فيما بلغ عدد نواب

---

(١) خالد أفندي الأتاسي: (١٢٥٣-١٣٢٦هـ=١٨٣٧-١٩٠٨م) خالد بن محمد بن عبد الستار الأتاسي - متشرع مفتي حمص مولده ووفاته فيها، اشتغل بالفقه والأدب وهو والد الرئيس هاشم الأتاسي رئيس سوريا بعد الاستقلال. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٩٨.

(٢) نوفل بك: نوفل بن نعمة الله بن جرجس نوفل (١٢٢٧-١٣٠٥هـ=١٨١٢-١٨٨٧م) أديب مترجم من أهل طرابلس الشام مولده ووفاته فيها، تعلم في مصر وعين ترجماناً لبعض القنصليات في بيروت وكان يحسن التركية = = والفرنسية من كتبه (صفاحة الطرب) (زبدة الصحائف في أصول المعارف) و(كشف اللثام في تاريخ مصر والشام) و(الدستور) جزءان و(حقوق الأمة). الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٨، ص ٥٥.

(٣) حسين أفندي بيهم: (١٢٤٩-١٢٩٨هـ=١٨٣٣-١٨٨١م) حسين بن عمر بن حسين العيتاني بيهم البيروتي، مولده ووفاته في بيروت، كان من وجهائها انتخب نائباً عن بيروت في مجلس النواب العثماني وتولى رئاسة الجمعية العلمية السورية ا. وكلمة بيهم عامية بيروتية تعني أبوه. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٢.

(٤) يوسف ضيا أفندي الخالدي (١٢٥٨-١٣٢٤هـ=١٨٤٢-١٩٠٦م) محمد بن السيد علي الخالدي المقدسي: صاحب الهدية الحميدية في اللغة الكردية وهو معجم من اللغة العربية وقواعد لتلك اللغة مولده ووفاته في القدس. كان أبوه قاضياً في ولاية أرضروم تولي عدة مناصب في الدولة فلقد كان رئيس ا لمس البلدي في القدس لمدة ٩ سنوات والترجمة في الباب العالي وذكر في أحد رسائله انه كان نائباً في مجلس المبعوثان العثماني. الزركلي، مرجع سابق، ج٨، ص ٢٣٥.

(٥) نقولا أفندي نقاش: نقولا بن إلياس بن ميخائيل (١٢٤٠-٣١٢هـ=١٨٢٥-١٨٩٤م): محام له علم القضاء مولده ووفاته في بيروت أنشأ جريدة "المصباح" فعاشت ٢٨سنة، عمل بالمحاماة وترجم إلى العربية كثيراً من القوانين العثمانية منها (كليات شرح الجزاء) وكان حسن الإنشاء. الزركلي، مرجع سابق، ج٨، ص ٤٥.

(٦) خليل أفندي غانم: (١٢٦٢-١٣٢١هـ=١٨٤٦-١٩٠٣م) ابن إبراهيم بن خليل غانم باحث في اللغات الأجنبية، ولد في بيروت وولي عدة مناصب واتصل بوالي سوريا أسعد باشا العظم الذي أصبح صدراً أعظم فيما بعد فجعله ترجمانا للصدارة سنة ١٢٩٢هـ أنشأ جريدة البصير وعمل في التجارة والكتابة في الصحف أواخر أيامه. الزركلي، مرجع سابق،ج٢، ص ٣١٣.

الدولة العثمانية ككل ١١٥ عضواً بالإضافة إلى الرئيس ووكيلين للرئيس وبذلك يكون عدد النواب ١١٨ مبعوثاً[١].

وفي ٤ ربيع الأول ١٢٩٤هـ ١٩ آذار ١٨٧٧م افتتح المجلس العثماني أول جلسة له في سراي دولة بانجة (بشكطاش)، وحضر النواب من جميع أنحاء الدولة وألقيت خطبة عن لسان السلطان وبحضوره[٢].

ثم بدأت المناقشات بين النواب حامية محتدمة، وكان النواب يطالبون بإعطاء صلاحيات أكبر لمجلس المبعوثان وعلى جعل الحكم دستورياً تشترك فيه الأمة بواسطة نوابها وغيرها من المطالب وخاصة التي طالبت بالحد من السلطة المطلقة للسلطان، وهذا ما أزعج السلطان وعدَّ الأمر تجاوزاً لصلاحيته، فندم على دعوة البرلمان للانعقاد وأصدر إرادة شاهانية بحله مؤقتاً، وأمر بنفي عدد من الأحرار والمصلحين من البلاد وعلى رأسهم كما أسلفنا مدحت باشا[٣].

وبعد نشوب الحرب الروسية العثمانية في سنة ١٨٧٨م، قام السلطان بدعوة المجلس النيابي مرة ثانية للانعقاد، وألقي فيه الخطاب السلطاني والذي جاء فيه:

١. الثناء على الجيوش العثمانية التي تحارب ببسالة ضد العدو الروسي.

٢. عزم الحكومة على تجنيد الشباب المسيحيين أسوة بالمواطنين المسلمين.

وفي الجلسات التي تلت انتقد النواب الحكومة العثمانية على تقصيرها في مهامها، مما أدى إلى تقدم الجيوش الروسية في الأراضي العثمانية وسقوط قلعة بلافنا في أيديهم، وكذلك انتقدوا احتفاظ الوزراء بكامل رواتبهم بينما يفرضون الضرائب الباهظة على الشعب بحجة إنفاقها في الحرب وهذا بالطبع أدى إلى امتعاض السلطان وغضبه ونتيجة لذلك قام السلطان عبد الحميد الثاني في يوم ١٣ شباط ١٨٧٨م بإصدار مرسوم سلطاني أمر فيه بحل المجلس النيابي بحجة الظروف

---

(١) عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية مرجع سابق ص ٤٣-٤٤. فارس، سليم، مصدر سابق ص ١٠٢-١٠٥. العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام، مرجع سابق، ص ٣٤١.

(٢) للتوسع في خطبة السلطان التي ألقيت في ا لمس انظر: أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٣٥.

(٣) البرجاوي، أحمد سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

الاستثنائية التي تمر بها البلاد وذلك إلى أجل غير مسمى[1] وبالتالي تعليق دستور ١٨٧٦م إلى أن أرغم على إعلانه مرة ثانية في تموز ١٩٠٨م. والغريب في الأمر أن تعليق الدستور من قبل السلطان لم يلقَ أي ردة فعل في البلاد[2]. ويمكن القول إن تعليل ذلك هو أن فكرة الديمقراطية وممارسة الحريات لم تكن قد تبلورت بعد في أذهان الشعوب التي يحكمها العثمانيون، فلقد تعودت هذه الشعوب على أن تسمع وتطيع فقط وليس لها من رأي أو إرادة في الاعتراض ولم يحدث الأمر هزة تذكر إلا بين الأحرار الذين ناضلوا من أجل قيام هذا الدستور وعلى رأسهم مدحت باشا والمفكرين والمستنيرين الذين أحاطوا به.

لقد انتهت حقبة من الحكم الدستوري لم تدم أكثر من عام (١٩ آذار ١٨٧٧ إلى ١٣ شباط ١٨٧٨) وكانت هذه التجربة الديمقراطية الأولى في الدولة العثمانية لكنها كانت تجربة فاشلة، وحسبما تظهر الوقائع في تلك المرحلة، فإن ذلك يعود إلى عدم نضوج فكرة ممارسة الحريات في البلاد، وأيضاً بسبب التخوف من التغيير الذي كان يعتقد أنه سيجلب معه الغرب وأطماعه إلى المنطقة، فكانت النهاية الحتمية لهذه التجربة.

سابعاً: أهم الثورات والحركات القومية في تلك المرحلة:

شهدت هذه المرحلة الكثير من الفتن والثورات ضد الدولة العثمانية وضد فكرها وذلك تزامنًا مع ظهور فكرة القوميات التي بدأت في أوربا، وأخذت تتقدم زاحفة نحو البلاد العثمانية[3]. عابرة إليها من أوربا إلى مناطق البلقان عبر الحدود

(١) الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، مرجع سابق، ص ٢٥. عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٢) عوض، عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٣) القومية: لفظة قومية هي نسبة إلى قوم وقد وضعت حديثاً لترجمة لفظة *Nationalism* التي وجدت في أوربا في القرن الثامن عشر وتعني إرادة مجموعة من الناس وعن طريق خصوصيا ا التاريخية لإنشاء دولة مستقلة لها وتطويرها، وكلمة "قوم" تعني الأمة وقد اشتق مفهوم الأمة كما يدل الأصل اللاتيني من العرق وقد

الشمالية لتركية وخاصة مع روسيا فنما الفكر والوعي القومي في هذه المناطق التي أخذت تطالب باستقلالها عن الدولة العثمانية وأن يكون لها دولة خاصة مستقلة تتمتع فيها بوحدة كيانها الجغرافي والبشري والقومي، فنشبت الثورات في كل من بلاد الصرب والبوسنة والهرسك وجزيرة كريت، واشتعلت منطقة البلقان بالانتفاضات وأدت إلى نشوب حرب دولية ما بين الدولة العثمانية ودول عظمى أخرى مثل روسيا وإنكلترا وفرنسا، وكانت النتيجة كما مر معنا سابقاً استقلال بعض هذه المناطق عن الدولة العثمانية، وقد شجع هذا الأمر باقي الشعوب الخاضعة للحكم العثماني على التمرد والمطالبة باستقلال مماثل عن كيان السلطنة العثمانية، ولكن سنقتصر في هذه الفترة على ذكر الفتن والثورات المحلية التي حصلت في الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وكان من أشهرها وأكثرها خطورة ما سمي بمشكلة الأرمن أو ثورة الأرمن[1]. التي ما تزال هذه القضية مثار جدل في العالم وخاصة بين أرمينية[2] الحديثة وتركيا من أجل حل قضية المذابح الأرمنية التي حصلت في عهد السلطان عبد الحميد الثاني والتي استمرت حتى سقوط الخلافة العثمانية ١٩٢٣ وسقوط حكومة الاتحاديين في تركيا.

تطور المفهوم ليشمل معنى الأرض الذي يعيش عليها أفراد ذوو عرق واحد وثقافة واحدة، ولغة واحدة، وتاريخ واحد. مبيض، عامر رشيد، موسوعة الثقاة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، دار المعارف، حمص، سوريا، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص ١٠٢٥.

(١) الأرمن: شعب هندوأوربي استوطن أولاً بلاد أرمينيا حول بحيرة وان، ثم نزح قسم منهم في القرن ١١ إلى كليكيا حيث أسسوا مملكة أرمينيا الصغرى، بقيت منهم جاليات كبيرة في المدن بعد سقوط هذه المملكة، اصطدموا بالدولة العثمانية في محاولتها التحريرية في أواخر القرن ١٩ وتعرضوا لأحداث دامية ومذابح على يد العثمانيين سنة (١٨٩٤-١٨٩٥) وسنة (١٩٠٩-١٩١٥) و١٩١٦ وتشتتوا في البلدان العربية والأوربية والأمريكيتين. المنجد في الأعلام ص ٣٦.

(٢) أرمينيا هي أنجاد وجبال تتخللها سهول مرتفعة في آسيا الصغرى جنوبي القفقاس بين أنجاد إيران شرقاً والأناضول غرباً وبين بحر قزوين ومسيل الفرات الأعلى يجتازها ر أراس. المنجد في الأعلام ص٣٦.

أ - فتنة الأرمن:

أرمينيا : أرمنستان وهي وطن الشعب الأرميني وإليه يتنسب هذا الشعب وأسلافهم الخالديون الذين كانوا يتألفون من قبائل متحالفة ، وهؤلاء كانوا يسكنون الأراضي الأرمنية الأصلية أو التاريخية والتي كان تسمى نايزي[١].

فالأرمن كانت لهم في العصور القديمة دولة وكان لها سيادتها واستقلالها وكانت تقع في شرق الأناضول بين المملكة البيزنطية والمملكة الفارسية.

وبعد استيلاء الأتراك السلاجقة[٢] بعد واقعة ملاذ كرد سنة (٤٦٤هـ/١٠٧١م)[٣]، على هذه المنطقة رحل قسم كبير منهم إلى غربي الأناضول[٤] وأقاموا في جبال طوروس[٥] وفي سهول كيليكية[٦] ولعبت إماراتهم الصغيرة في تلك

(١) حافظ، فؤاد حسن، تاريخ الشعب الأرميني منذ البداية حتى اليوم، القاهرة، ١٩٩٦، من ص ٩ إلى٢١.

(٢) الأتراك السلاجقة: وهم مجموعة من القبائل التركية التي عرفت باسم (الغز) أو (الأغوز) أصلها من سهوب تركستان في أواسط آسيا وتعود تسمية أفرادها بالسلاجقة إلى قائدهم الذي وحدهم سلجوق بن دقاق، تكونت لهم دولة حكمت في ظل السيادة الاسمية للخلفاء العباسيين وامتدت مناطق نفوذها من أفغانستان شرقاً إلى أسيا الصغرى غرباً ومن أرمينيا شمالاً إلى فلسطين جنوباً دامت من (١٠٣٧ إلى ١١١٧م) في بلاد الشام و(١١٩٤) في العراق و(١٣٠٠) في آسيا الصغرى. الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥، ٤ أجزاء، الجزء الرابع، ص ٥٨١.

(٣) ملاذ كرد: وقعت بين الجيش السلجوقي بقيادة السلطان ألب أرسلان وجيش الدولة الرومية بقيادة الأمبراطور رومانوس سنة (٤٦٣هـ-١٠٧١م) وسببها استيلاء ألب أرسلان على جورجيا وبلاد الأرمن وانتهت بانتصار المسلمين. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٢٤ – ص ٨٤.

(٤) الأناضول: شبه جزيرة آسيوية تشكل القسم الأكبر من تركيا، معظمها أنجاد وجبال يحدها شمالاً البحر الأسود وغرباً بحر مرمرة وبحر إيجه، وجنوباً البحر المتوسط، يطلق عليها أيضاً اسم آسيا الصغرى. المنجد في الأعلام، ص ٧٢.

(٥) جبال طوروس: سلسلة جبال في جنوب تركيا الآسيوية بين قيليقية وكبدوقية. المنجد في الأعلام، ص ٤٣٩.

(٦) كيليكية: منطقة في جنوبي غربي تركيا الآسيوية على ساحل المتوسط من أهم مد ا (أدنة "أضنة" وطرسوس وسيس) عرفت بأرمينيا الصغرى وكانت مملكة مستقلة منذ العهد الصليبي. المنجد في الأعلام ص ٤٣٩.

المناطق دوراً في الحروب الصليبية[1] سواء الإمارات الشرقية أو الغربية، ولكن رغم ذلك لم تكن تشكل بتجمعاتهما الصغيرة والمتفرقة كياناً موحداً مستقلاً بذاته[2].

ومع دخول الأرمن تحت السيادة العثمانية سنة (١٤٥٣) دخل الأرمن ضمن نظام الملل والذي بُدئ بتنفيذه اعتباراً من عام (١٤٥٤م) وبذلك أصبحوا تابعين لبطريركية الروم الأرثوذكس[3] منذ ذلك العام، واستطاع الأرمن أن يصلوا إلى مراكز مرموقة وحساسة في الدولة العثمانية، وذلك بسبب ما امتازوا به من ثقافة وذكاء إضافة إلى إتقانهم لعدة لغات (فعملوا في السفارات الأجنبية وفي التجارة واحتكروا بعض الصناعات وخاصة الحربية، وصناعة الخمور ومهنتي الصياغة والصرافة، وبعض الوظائف الحكومية المتصلة بذلك وبالكتابة، حتى قيل إن الأرمن هم "أصحاب القلم" في هذه الدولة[4].

ومن أشهر الشخصيات الأرمنية التي ظهرت في الدولة العثمانية (الصيدلي والطبيب: أمير دولت الأماسي في القرن الخامس عشر، والمعماري: سنان باشا ذائع الصيت في القرن السادس عشر، والمؤرخ والكاتب: أرميا شبلي قومرجيان في القرن السابع عشر، والمؤرخ والكاتب: مرادجي حسون ترجمان السفارة السويدية في القسطنطينية في القرن الثامن عشر، وأرتين أمير بزجيان مدير دار سك النقود من سنة ١٨٣٢م، والمعماري نقولاس باليان باني سراي دوطة (أي الحديثة المملوءة) بغجة سنة ١٨٥٣م، وداود قرابيد باشا والي لبنان ووزير الأشغال الذي أشرف في سنة ١٨٧١م على مد خط الحديد بين الروملي وأوربا العثمانية، وهاجوب قازاقيان باشا وزير المالية سنة

---

(١) الحروب الصليبية: تعرف ذا الاسم، الحملات العسكرية التي قامت ا أوربا المسيحية إلى الشرق الإسلامي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي (١٠٩٦-١٢٩١م) وقد جرت هذه الحملات تحت ستار الدوافع الدينية (إنقاذ بيت المقدس من المسلمين) ولكن في حقيقتها كانت دوافعها اقتصادية، وبلغت سبع حملات. الموسوعة العسكرية، مرجع سابق، ج١، ص ٨٠١.

(٢) أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق ص ٣١٢.

(٣) بطريركية الروم الأرثوذكس: الروم الأرثوذكس هم أتباع الكنيسة الشرقية التي تستخدم اللاهوت والطقوس البيزنطية - وبطريركية الروم هي الموجودة في القسطنطينية وهي تترأس البطريركيات الثلاث الأخرى في (القدس والإسكندرية وأنطاكية. إبراهيم، سعد الدين، الملل والنحل، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٤) الحافظ، فؤاد حسن، مرجع سابق، ص ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨.

١٨٩١م، وفي مصر نوباريان باشا سنة (١٨٢٤م) مؤسس المحاكم المختلطة في مصر، والدكتور حنا ورتبت سنة (١٨٢٧-١٩٠٨) وهو من وراد تعليم الطب والاستشراق بالجامعة الأمريكية في بيروت، والصحفي والأديب المشهور أديب إسحق (سنة ١٨٥٦م/١٨٨٥م) وهو من تلاميذ جمال الدين الأفغاني ومن أعلام النهضة العربية الحديثة وغيرهم كثير[١].

ب - إرهاصات وأحداث الفتنة:

ومع دخول التغيرات الجديدة في الدولة العثمانية وقيام الثورة الفرنسية وما أحدثته من تطور فكري وظهور القوميات ومطالبة كل من البلغار والصرب بالاستقلال عن الدولة العثمانية، بدأ الأرمن أيضاً المطالبة بالاستقلال الذاتي ضمن الدولة العثمانية والقيام بالإصلاحات الداخلية في الأقاليم الأرمنية، فهم لم يحظوا بالدعم الذي حظي به البلغار والصرب من قبل روسيا، وذلك بسبب الخلاف المذهبي[٢] وخوف روسيا من قيام دولة أرمنية على الأراضي الروسية.

ولذلك كانت روسية تسعى في أغلب الأحيان للعمل ضد مصالح الأرمن وبل وفي كثير من الأوقات قدمت المساعدة للعثمانيين من أجل القضاء على ثورة الأرمن في مهدها[٣].

ولقد حقق الأرمن شيئاً من النجاح بعد مساعٍ كبيرة، وذلك في الحصول على بعض مطالبهم من خلال معاهدة صلح سان استيفانو (سابقة الذكر/٣ آذار ١٨٧٨)

---

(١) حافظ، فؤاد حسن، تاريخ الشعب الأرمني، مرجع سابق، ص ١٩٠-١٩١-١٩٢.

(٢) الخلاف المذهبي بين الروس والأرمن: لقد تنكر رجال الدولة الروسية لأفعال الأرمن وسعوا لدى الباب العالي إلى استبدال بطريرك آخر بالبطريرك إزميرليان الذي كانت ترى روسية فيه مصدر هذه الحركات حيث كان يمارس التعليم الأرمني في القوقاز وروسيا تأبى إلا التعليم الروسي وحده. أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، مرجع سابق، ص ٣١٨.

(٣) البرجاوي، محمد سعيد، الإمبراطورية العثمانية، مرجع سابق، ص ٢٦٦-١٦٧.

حيث نصت المادة (١٦) منها بأن تتعهد الدولة العثمانية بالقيام بالإصلاحات في الأقاليم الأرمنية وتأمين المسيحيين من تعدي الأكراد[١] والشراكسة[٢].

فلقد كان الأرمن يتعرضون للاعتداءات المتكررة من قبل الأكراد تحت أنظار العثمانيين، ولكن رغم ذلك لم يطبق شيء مما ورد في هذا البند على أرض الواقع حيث استمرت الاعتداءات على المسيحيين في المناطق المذكورة، وبالنسبة للإصلاحات التي وعدت الدولة العثمانية بإجرائها في هذه المناطق فلم تقم بأي منها[٣]. وهذا ما دفع الأرمن إلى الاحتجاج والتمرد مرة ثانية، فقوبل الأمر من قبل السلطان عبد الحميد الثاني بمذابح متعددة ما زالت موضع جدل في كتب التاريخ.

ج - المذابح الأرمنية في العهد الحميدي:

فور انتهاء أحداث الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٨م) شرع السلطان عبد الحميد الثاني على الفور بالقيام بمذابح حقيقية في الولايات الأرمنية[٤]، وذلك لمعاقبة الأرمن العثمانيين على إشتراك إخوانهم الأرمن الروس في الحملة الروسية على الأناضول فجرت مذابح في إقليمي بايزيد والشفراد... وقام السلطان عبد الحميد الثاني بتهجير القبائل الكردية من ولاية ديار بكر الأرمينية، إلى الولايات الأرمينية الأخرى وهي (أرضروم، دان، بدليس، خربوط، وسيواس) وذلك بغاية تقليل نسبة الأرمن وفي هذه

---

(١) الأكراد: يقدر عدد الأكراد في الوطن العربي بحوالي خمسة ملايين نسمة- أكثر من ثلاثة أرباعهم في العراق (مرتفعات كردستان) وشمال شرق سوريا (في الفرات الأعلى) الملاصق جغرافياً لمناطق وجودهم في كل من العراق وتركيا، والأكراد في غالبيتهم العظمى مسلمون وهم سكان هضبة كردستان أي أرض الأكراد. إبراهيم، سعد الدين، الملل والنحل، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٢) الشراكسة: وهي شعوب قطنت سابقاً شمال غربي القفقاس والشاطئ الشرقي للبحر الأسود هاجر أغلبها إلى تركيا وسورية والأردن. المنجد في الأعلام ص ٢١١.

(٣) عربش، سمير، أرمينيا أرض وشعب،ومؤسسة دار الريحاوي، ١٩٩١، ص ١١٨. مدور، مروان، الأرمن عبر التاريخ، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٨٢، ص ٣٩٥-٣٩٦-٣٩٧.

(٤) الولايات الأرمينية: وهي سبع ولايات عثمانية: أرضوم، دان، ديار بكر الأرمنية، بدليس، خربوط، سيراس. حافظ، فؤاد حسن، تاريخ الشعب الأرمني، مرجع سابق، ص ٢١٨.

الولايات. وتزايدت المذابح بعد سنة ١٨٨٩م في الولايات الأرمنية وذلك بتزايد اعتداءات الأكراد المقيمين فيها على الأرمن القاطنين[١] في هذه الولايات، وذلك من أجل الضغط عليهم والتخفيف من عددهم، وكانت هذه المذابح تتم بتحريض من الدولة العثمانية لتطبيق سياسة معينة للدولة في هذه الولايات، فالدولة العثمانية كانت حريصة على عدم حصول اتصال ما بين الأرمن الأتراك والأرمن الروس في تلك المناطق حتى لا يكونوا قوة موحدة في وجهها في تلك المناطق الحدودية الهامة مع روسيا.

أشهر هذه المذابح[٢]:

١- مذبحة/٢٠-٢١ حزيران ١٨٩٠م/ في أرضروم، وذلك بتحريض واليها سامي باشا، حيث هوجمت الكنيسة بحجة التفتيش عن السلاح.

٢- مذبحة صمصون (صمسون) /١٥ آب إلى أيلول ١٨٩٤م/ كان يحوي هذا القضاء (١١٠) قرى يسكنها قرابة ٢١ ألف من الجبليين حوالي ٤٠٪ منهم من الأرمن والباقي من الأكراد، كان سبب هذه المذبحة امتناع الأهالي عن تأدية الضرائب، فأرسلت قوات بالأمر من السلطان عبد الحميد الثاني بقيادة المشير زكي باشا قائد الفيلق الرابع إلى هذا القضاء حيث دمرت ٢٤ قرية أرمينية وأُحرقت وقتل الكثير وقيل إنه وصل العدد إلى حوالي ٣٥٠٠ قتيل.

---

(١) حافظ، فؤاد حسن، مرجع سابق، ص ٢١٨.

(٢) أورد فيما يلي رواية عن لسان العقيد المتقاعد: عدنان قبرطاي (شركسي) حول مذبحة ضد المسلمين من قبل الأرمن في تلك المرحلة فقال: إنه سمع مع الضابط (فخر الدين سي) (شركسي أيضاً) والذي كان ضابطاً في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى ما يلي: ذكر قصة جرت في مدينة جنوب شرقي تركية: أنه رأى في يوم صلاة الجمعة أنه قد تعرض أحد المساجد في تلك المدينة إلى حريق، حيث قامت مجموعة من الأرمن بإغلاق أبواب الجامع وكان سقفه من القرميد - حيث بلغ عددهم كما قدر خمسة أشخاص - قاموا بإغلاق أبواب الجامع وصعد قسم منهم إلى السطح وكان معهم مواد حارقة (بـ ين على ما يعتقد) وأشعلوا النيران في المسجد - ويقسم هذا الشخص وهو يبكي: أنه رأى الدهن البشري يسيل من تحت الأبواب - وشبابيك المسجد كانت مصنوعة من الحديد المتداخل كما في شبابيك السليمانية فكان من الصعوبة بمكان أن يهرب أحد من هذه المحرقة - وكان يردد قائلاً بعد أن ينهي الرواية كيف لن يهجر الأتراك الأرمن بعد كل ذلك. عن لسان الضابط المتقاعد: عدنان قبرطاي الخميس ٢٠٠٥/٧/٧ - الساعة ٥.٣٣، في مكتبة الأسد.

٣- مذبحة /٣٠ أيلول ١٨٩٥م/: وفيها خرج الأرمن بمظاهرة في العاصمة القسطنطينية للمطالبة بالإصلاحات ووقف المذابح ضد الأرمن، فردت الشرطة العثمانية بمذبحة استمرت على مدى يومين راح ضحيتها قرابة الألفين من الأرمن.

٤- مذبحة الرها[1] /٢٨-٢٩كانون الأول ١٨٩٥م/ وبلغ عدد ضحاياها ثلاثة آلاف.

٥- مذبحة حي "خاص كوي" وهو حي أرميني في القسطنطينية العاصمة، واستمرت ثلاثة أيام /٢٦-٢٧-٢٨ آب ١٨٩٦م/ وأسفرت عن سقوط سبعة آلاف قتيل أرمني.

لقد بلغت حصيلة هذه المذابح ما بين عامي /١٨٩٤-١٨٩٦/ حوالي مائة وخمسين ألف قتيل من الأرمن العثمانيين، لقد هاجر مائة ألف أرميني عثماني من الدولة العثمانية إلى روسيا ودول البلقان، وأوربا وأمريكا، وهبط عددهم إلى النصف في الولايات الأرمنية العثمانية، وكانت نهاية المذابح في العهد الحميدي (حيث أنها استمرت في عهد الاتحاديين أيضاً) ببلاغ أصدرته الحكومة العثمانية يوم /١١ تشرين الثاني سنة ١٨٩٦م/ وذلك بتطبيق قانون الإصلاح في الولايات الأرمينية، وتطبيق الدستور فيها، والعفو عن بعض الأرمن، ولكن بقيت هذه وعوداً وحبراً على ورق، بل زادت قبضة العثمانيين على الأرمن وخاصة بعد سقوط السلطان عبد الحميد الثاني وتسلم الاتحاديين للحكم في سنة ١٩٠٩[2].

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا قام السلطان عبد الحميد بارتكاب هذه المذابح؟

تعددت الإجابات بهذا الشأن، وليس لدينا ما يثبت صحة أي إدعاء أو رواية.

---

(١) الرها: أو أورفا مدينة بين النهرين في تركيا اشتهرت بمدرستها اللاهوتية التي انتقلت إليها من نصيبين (٣٦٣م) بعد فتح الفرس لهذه المدينة، فأصبحت الرها عاصمة الآداب السريانية حتى القرن السابع. فتحها العرب سنة (٦٣٩م). بقيت مسيحية في عهد الأتراك. المنجد في الأعلام ص ٨٩.

(٢) عربش، سمير، أرمينيا أرض وشعب، مرجع سابق، ص ١٢٤ إلى ١٣٢. حافظ، حسن، تاريخ الشعب الأرمني، مرجع سابق ص ٢١٠-٢١١-٢١٢. مدور، مروان، الأرمن عبر التاريخ، مرجع سابق، ص ١٩٧-١٩٨-١٩٩-٢٠٠. وللتوسع: مذكرات جمال باشا، تعريب علي أحمد شكري، مرجع سابق، من ص ٢٦٩ إلى ٢٨٧.

ليس صحيحًا ما يقال إن السلطان عبد الحميد الثاني كان يكن كراهية للأرمن، فأمه أرمنية الأصل، ومن المستبعد أن تبلغ به الكراهية درجة تدفعه إلى سفك دماء أناس أبرياء، وإذا كانت الروايات الأرمنية تعزي ذلك لأسباب خاصة، فإن احتمال الأخذ بذلك مشكوك به، ولا يمكن اعتماده، أما الروايات التركية فتفيد أن الأرمن تزايد نفوذهم في الدولة العثمانية، هذا النفوذ وتزامنًا مع تزايد الوعي القومي لدى الأرمن دفعهم للمطالبة بدولة خاصة بهم، ولهذا السبب لجأ السلطان عبد الحميد إلى ضربهم بقسوة بعدما فشل في إقناعهم بالتزام الهدوء، والامتناع عن إثارة الاضطرابات والقلاقل.

إن هذا الاحتمال هو الأقرب للصحة، أما ما عدا ذلك من ادعاءات فتظل ادعاءات، وهل يعقل أن يعمد السلطان عبد الحميد الثاني إلى ارتكاب مجازر بحق الأرمن بهدف الشبه الخلقي الذي يدلل على أنه يرتبط مع الأرمن بصلة قرابة. أما بشأن أنه ليس ابن السلطان عبد المجيد فهذا أمر مشكوك بصحته، فأمه الأرمنية كانت راقصة، وقد ماتت بمرض السل.[1]

د- ثورة الموحدين[2]:

هم فئة من سكان بلاد الشام يقنطون القرى الجبلية الواقعة في السفح الجنوبي للحرمون، كمجدل شمس وبقعاتا ومسعدة وعين قنية وهم من جملة الموحدين (الدروز) في وادي التيم القريب منهم، واكثر ما يعتنون بزراعة الكرمة.

والموحدون (الدروز) فرقة من الفرق الإسلامية الباطنية المشتقة من الإسماعيلية الفاطمية، نشأ مذهبهم في القرن الخامس الهجري، على أثر قيام الحاكم

---

(١) *Ali Kemal Maran, Padisah Analare istanbul* ٢٠٠*, s:*٣٥٠-٣٦٠

(٢) الموحدون: «الدروز»: فرقة أسسها الداعيان درزي وحمزة بن علي بن أحمد في أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (انتشرت في سورية وحلب وبانياس) استوطن الدروز في لبنان منذ أواخر القرن (١٢) (وادي التيم) وهاجر قسم منهم إلى سورية في أواخر القرن (١٧) فقطعوا اللجاة ومرتفعات حوران التي دعيت بجبل الدروز. المنجد في الأعلام، ص ٢٨٥.

بأمر[١] الله سادس الخلفاء الفاطميين وادعائه بالألوهية وإرساله محمد بن اسماعيل الدرزي[٢] سنة (٤٠٤هـ) إلى وادي التيم لنشر دعوته فتبعه سكان هذا الوادي منذ ذلك اليوم، وهم يعدون أن دينهم الأصلي هو الإسلام وكتابهم القرآن مع وجود معتقدات خاصة بهم يختلفون بها عن بقية المسلمين اختلافاً بيناً[٣].

والموحدون عامة مشهورون بالشجاعة والإقدام وشدة المراس وإقراء الضيف والغيرة والحفاظ على العرض ولو كان لعدوهم، ومراعاة حق الجوار لمن يسلك معهم بالاستقامة. هذا والموحدون يستقرون غالباً في قرى مرتفعة دفاعية الهدف على منحدرات الجبال كما تراه دائراً ما دار جبل الشيخ في أقضية حاصبيا وراشيا وقطنا والقنيطرة وفي جبل لبنان (قضائي الشوف والمتن) والجبل الأعلى غربي حلب، وجبل حوران محافظة السويداء وفي بعض قرى الجليل (حول صفد) وجبل الكرمل (قرب حيفا)[٤]. إن الأحداث التي جرت ما قبل فترة السلطان عبد الحميد الثاني، تدل على أن الموحدين في جبل حوران حاولوا منذ عهد إبراهيم باشا[٥] أن يتخلصوا من السيادة العثمانية، ويتمتعوا بامتيازات خاصة بهم، وذلك لأن طبيعة هذه الطائفة يصعب عليها أن تحمل حكماً غير حكم مشايخ العقل[٦] عندهم، فهؤلاء يمثلون لدى الموحدين أعلى سلطة دينية وسياسية وإليها يؤدون الطاعة والأمر.

---

(١) الحاكم بأمر الله: (٩٨٥م–١٠٢١م) سادس الخلفاء الفاطميين في مصر ولد بالقاهرة وباشر الملك وعمره (١١) سنة مال إلى آراء الإسماعيلية والتنجيم وفي سيرته متناقضات عجيبة قيل إن أخته ست الملك دست له رجلين قتلاه وأخفياه. غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية المسيرة، ج١، ص ٦٨٦.

(٢) محمد بن إسماعيل الدرزي: هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٤١١هـ/١٠١٩م)، الداعي الأول للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي لجأ إلى لبنان وسورية ونشر فيهما مذهبه. المنجد في الأعلام ص ٢٨٥.

(٣) زكريا، وصفي، الريف السوري، دار البيان، دمشق، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، جزءان، ج٢، ص ٥١١-٥١٢-٥١٣.

(٤) زكريا، وصفي، مرجع سابق، ص ٥١٣.

(٥) إبراهيم باشا: (١٧٨٩م-١٨٤٨م) بن محمد علي عزيز مصر، ولد في قولة (الروملي)، وتوفي في القاهرة رجل سياسة وحرب ساهمت انتصاراته في نجاح والده السياسي، قهر المماليك وانتصر على الوهابيين في الجزيرة العربية وعلى اليونان وتغلب على العثمانيين في سورية، انسحب من سورية تحت الضغط الأوربي. المنجد في الأعلام ص ٦-٧.

(٦) زكريا، وصفي، مرجع سابق، ص ٥١٣-٥١٤.

وكلما حاولت الدولة العثمانية أن تطبق عليهم قانوناً ما، كانوا ينتفضون ويثورون، وكانت الأمور لا تنتهي إلا بحدوث معارك تنتهي بأن يرضى الموحدون بدفع غرامة مالية يؤدونها إلى الدولة.

وفي المقابل كان للدولة العثمانية دور في إثارة هذه الفتن وذلك بأنها اتخذتهم آلة لحربها ضد الطوائف الأخرى وخاصة في لبنان وادي التيم وحوران، كاستخدامهم للانتقام من عدوهم إبراهيم باشا حيث كانوا آلتها لإحداث المذابح في تلك المناطق في أحداث فتنة الستين[1] المشهورة[2]، ولقد كان استقرار الموحدين في جبل حوران نتيجة للهجرة التي تمت في أعقاب أحداث فتنة الستين بين الموارنة والموحدين في جبل لبنان، حيث دعمت بريطانيا الموحدين ودعمت فرنسا الموارنة وعملوا على تأجيج النار بين الطرفين وزادوا في أوارها، وقد سبق وذكرنا قدوم المجموعات الأولى منهم إلى وادي التيم والجبل الأعلى وصفد وعكا وغوطة دمشق ولكنّ التوافد الأكبر كان بعد حوادث الشام، حيث استوطن الموحدون في هذه الأماكن واستقروا فيها مما زاد في قوة شوكتهم، كما ذكرنا سابقاً ألا وهو دعم الدولة العثمانية واستخدامهم كيد تضرب بها العصاة في المنطقة، وذلك لما عرف عنهم من قوة وشجاعة في القتال وشدة المراس. وأشهر وقائعهم في العهد الحميدي ما حدث سنة (١٢٩٦هـ-١٨٧٨م) وذلك في أثناء ولاية المصلح مدحت باشا على دمشق وخلاصة هذه الحادثة أن مجموعة من سكان جبال الموحدين هاجموا قرية (بصر الحرير)[3] وقتلوا بعض القرويين فحاولت الحكومة القبض على الجانين وطلبتهم من رؤسائهم، ولكن هؤلاء رفضوا تسليم الجناة، فاضطر مدحت باشا إلى إرسال قوة من الشام لتأديب العصاة، واستعد الموحدون في الجبل لهذا الأمر، واشتبك الطرفان في معركة قتل فيها (٦٠٠) من أفراد الموحدين فاستسلم أهالي الجبل وحضر رؤساؤهم إلى مركز الولاية وأحضروا معهم أربعة أشخاص من الجناة وسلموهم للحكومة، وهكذا

---

(١) فتنة الستين: مر ذكرها سابقاً ص ١٤.

(٢) كرد علي، محمد، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ٦ أجزاء، ج٣، ص ٧٣ ص١١٤.

(٣) بصر الحرير: (قرية): قرية في محافظة درعا (منطقة أزرع) تبعد عن أزرع ٩كم سكا ا حوالي (٢٥٠٣) نسمة. قدامة، أحمد، معالج وأعلام في بلاد العرب، القسم الأول، القطر السوري، ص ١٣٤.

انتهت هذه الفتنة برضوخ الموحدين لإرادة الحكومة في الولاية، وكان الذي قوى شوكة الموحدين في هذه الواقعة هو دعم الإنكليز لهم، فلقد كتب مدحت باشا في مذكراته حول هذه الواقعة مايلي: "كانت فرنسا تحاول دائماً كسر نفوذ إنكلترا فكانت تحمي جماعة الموارنة، وكانت إنكلترا تتحيز للدروز، فقام قنصل إنكلترا بوظيفة الدفاع عن الدروز وكتب إلى قصر المابين[1] والباب العالي، فكانت الأوامر التلغرافية ترد في كل يوم قاضية لحسم هذه المسألة، وكان قنصل الدولة الإنكليزية يلح علي في كل يوم، فشمخ الدروز إذ رأوا هذه الحركة، فأمرت العساكر باستعمال السلاح فشتتُّ الدروز في معركة قتل فيها ٦٠٠ من أفرادهم"[2].

حدثت فتنة أخرى في عهد الوالي أحمد حمدي باشا الصدر الأسبق والي الشام وذلك في عهد ولايته الثانية سنة (١٢٩٧هـ-١٨٧٩م) حيث تفاقم الخلاف بين الموحدين وأهالي قرية أم ولد من حوران[3] (فقد تعود الموحدون منذ نزولهم في مناطق حوران الاعتداء على القرى والمناطق المجاورة لهم وإثارة الفتن والمشاكل)[4]، ونتج عن هذا الخلاف حدوث مواجهات أفضت إلى مذبحة بين الفريقين، عالج أحمد حمدي باشا، هذه المسألة بالحكمة والروية فعمد إلى إجراء مفاوضات لإيجاد حل سلمي بين الطرفين، فأرسل هيئة من أولي الوجاهة والعلم لحل القضية بين الطرفين، وفعلاً نجح هذا الوالي في إخماد نار الفتنة بين الطرفين، وأقر الصلح بينهم وعادت المياه إلى مجاريها بينهما. وكانت العادة لإخماد أي فتنة في هذه المناطق هي إرسال قوة عسكرية تقوم بتأديب الطرفين وإسكاتهما، ولكن كان لهذا الوالي وجهة نظر مختلفة عن الذين سبقوه من الولاة في المنطقة[5]. ازداد تمرد أهل الجبل وثورتهم في

---

(١) المابين والباب العالي: وهي المقصود ا مركز السلطنة في الآستانة.

(٢) مذكرات مدحت باشا، ترجمة: يوسف كمال بك حتاتة، مرجع سابق، ص ٤١-٤٢-٤٣. كرد علي، محمد، خطط الشام، مرجع سابق، ص ١٠١-١٠٢-١٠٣. لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار التقدم، موسكو، ١٩٧١، ترجمة د. عفيفة البستاني، ص ٣٩١.

(٣) الحصني، محمد أديب، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

(٤) كرد علي، محمد، مرجع سابق، ج٣، ص ١١٢.

(٥) الحصني، محمد أديب، مرجع سابق، ص ٢٧٣.

المنطقة فقاموا سنة (١٣٠٤هـ-١٨٨٦م) بالاستيلاء على قرى اللجاة للتحصن بها عند الحاجة، فاحتشد نحو خمسمئة فارس منهم بقيادة شبلي وفندي الأطرش ووصلوا إلى المسلمة، وهاجموا قلعتها فردوا عنها من قبل الحامية العثمانية، ولكن هذه الثورة لم تنتهِ حتى وافقت الدولة العثمانية على التنازل عن هذه المناطق والاعتراف بالأطرش أميراً للموحدين[(١)].

وحدثت ثورة أخرى في سنة (١٢١٤هـ-١٨٩٦م) وذلك إثر محاولة الدولة العثمانية تطبيق التجنيد الإجباري بين الموحدين[(٢)]. وكانت قد سبقتها ثورة أخرى في عهد الوالي عثمان نوري[(٣)] باشا (١٣١١هـ-١٨٩٣م) على دمشق حدثت بسبب سوء تصرف مأموري الحكومة في المنطقة وسوء إدارتهم فيها واضطرت الدولة إلى سوق جيوش عظيمة لتأديبهم بقيادة الوالي عثمان نوري باشا الذي نجح في القضاء على هذه الثورة وإخمادها في مهدها[(٤)]. وفي سنة (١٣١٧هـ-١٨٩٩م) اندلعت الثورة مرة أخرى عندما شرعت السلطات العثمانية بتشييد ثكنات عسكرية في السويداء[(٥)] المركز الإداري لجبل الموحدين فثار الأهالي في المنطقة على الجنود العثمانيين وحدثت بين الطرفين معركة سقط فيها ٥٠٠ جندي عثماني، وبالرغم من قمع هذه الثورات وإخمادها غير أنها كانت تتجدد بشكل دائم مع حدوث أي مساس بسيادة الجبل في منطقة الموحدين، وكان آخرها سنة (١٣٢٤هـ-١٩٠٦م) وذلك بسبب قلاقل أثارها الموحدون مع القبائل والقرى المجاورة لهم[(٦)]. من خلال استعراض أبرز ثورتين أو حركتين في

---

(١) كرد علي، محمد، خطط الشام، مرجع سابق، ج٣، ص ١٠٨. لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، مرجع سابق، ص ٣٩١.

(٢) لوتسكي، مرجع سابق، ص ٣٩١. كرد علي، محمد، مرجع سابق، ج٣، ص ١٠٨.

(٣) عثمان نوري باشا: مر تعريفه سابقاً (قاهر الصرب) ص ٢٤.

(٤) الحصني، محمد أديب، منتخبات تواريخ دمشق، مرجع سابق، ص ٢٧٥. أبو النصر، عمر، سورية ولبنان في القرن التاسع عشر، ط٢، بيروت، ص ٨٠-٨٢-٨٣.

(٥) السويداء: بلدة سورية قاعدة محافظة السويداء أو جبل الدروز - ولها قضاءان صلخد وشهبا. المنجد في الأعلام ص ٣٧٣.

(٦) كرد علي، محمد، مرجع سابق، ج٣، ص ١١٠-١١١-١١٢. لوتسكي، مرجع سابق، ص ٣٩١. أبو النصر، عمر، مرجع سابق، ص ٨٣.

الدولة العثمانية في العصر الحميدي ثورة الأرمن وثورة الموحدين في حوران: نجد أنه كان للدولة العثمانية دور في إشعال هذه المشاكل وإثارتها ، وذلك بمحاولتها ضرب الأطراف المتصارعة إن كانت طائفية أو مذهبية أو سياسية فيما بينهما من أجل أن تحقق في النهاية هدفها في السيطرة على الجميع من منطلق "فرق تسد" ، ولكنه أيضاً كان للتدخل الخارجي دور كبير في إثارة هذه الثورات وإشعالها وذلك من خلال دعم الدول الأجنبية للفئات الطائفية والمذهبية في المنطقة وتحريضها على بعضها على البعض لكي تستطيع التدخل في شؤون الدولة العثمانية وبالتالي الحصول على امتيازات منها ، فكما أيد الروس الأرمن أيد الفرنسيون الموارنة والإنكليز الموحدين، ولم تكن الضحية الوحيدة في هذه المشاكل والفتن إلا أبناء هذه الطوائف والمذاهب الذين حصدتهم المعارك فيما بينهم أو مع الدولة العثمانية التي قمعت هذه الثورات بقوة السلاح والبطش. ولكن فيما بعد عادت بالوبال والدمار على الدولة حيث زادت من فرقتها ومن تجزئتها ونفور شعبها منها ، وبالتالي أدت إلى انهيار هذا الكيان العظيم في النهاية لأن السوس كان قد نخر في الداخل حتى العظم، فلم تستطع الصمود حتى النهاية ، فكان السقوط النهاية الحتمية لكيان هش متداعٍ من الداخل.

ثامناً - الأحزاب السياسية التي ظهرت في تلك المرحلة:

كان للعوامل الداخلية والخارجية على حد سواء الدور الكبير في نشوء الوعي القومي في منطقة المشرق العربي، فالثورات الداخلية والمؤثرات الخارجية كالحملة الفرنسية على مصر ونظام الامتيازات والإرساليات والبعثات التبشيرية ، كل هذه العوامل عملت مجتمعة على تغذية الروح القومية في المنطقة ، وبالتالي إلى بلورة هذه الروح عبر ما سميت بالأحزاب السياسية أو الجمعيات والصحف، وظهور شخصيات

فكرية سياسية نضالية في تلك المرحلة قادت جماهير الأمة العربية في حركة نضالها التحررية مع بدايات القرن العشرين[1].

أ- جمعية الاتحاد والترقي:

نتيجة للظروف السياسية السابقة الذكر التي مرت بالبلاد، ونتيجة للسياسة الاستبدادية المنفردة من قبل السلطان عبد الحميد الثاني، وعملية تعليق الدستور وتأجيل مجلس المبعوثان تشكلت جمعية سرية في استانبول نواتها كانت جمعية تركية الفتاة وأطلقت على نفسها اسم "حزب الاتحاد والترقي" أو "جمعية الاتحاد والترقي"، وكانت الانطلاقة الفعلية لها في سنة (١٨٨٩م) على يد مجموعة من طلبة المدرسة الطبية العسكرية في استانبول[2].

أنشئت فروع لها في جميع أنحاء البلاد العثمانية (مصر، بلاد الشام، وحتى أوربة) وتجسدت دعوتها بإنشاء صحف متعددة لنشر أفكارها في كل من مصر وأوربة وسلانيك[3] تجاوز عددها الأربعين جريدة تحت أسماء مختلفة، ولكن لم يصمد منها إلا ثلاث فقط[4]. ولقد كان انتشار هذه الجمعية كبيراً وسريعاً حيث انطلقت من المدرسة الطبية العسكرية إلى المدارس الحكومية العالية الأخرى الموجودة في الآستانة فشملت الكلية العسكرية، والمدرسة البيطرية، وكلية الإدارة الملكية، والكلية البحرية، ومدرسة المدفعية والهندسة[5].

---

(١) عبد العزيز، عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢م)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م)، د.ط، من ص ٤٠٣ إلى (٤٣٣.

(٢) يحيى، جلال، العالم العربي الحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص ٤٢١-٤٢٢.

(٣) سلانيك: مرفأ في شمال اليونان (مقدونيا) كان قديماً يسمى تسالونيكي وإليه ينسب مصطفى كمال أتاتورك من سالونيك مؤسس تركيا الحديثة. المنجد في الأعلام، ص ٣٠٩.

(٤) العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام، مرجع سابق - ص٣٦٢ - ص٣٦٣

(٥) يحيى، جلال، العالم العربي الحديث، مرجع سابق، ص ٤٢٢.

أهدافها وبرنامجها السياسي:

كان من أهم أهدافها القضاء على الحكم الاستبدادي وتسلط السلاطين العثمانيين، والعمل على إقامة الحكم في الدولة العثمانية على أساس دستوري يضمن للأمة حريتها وحقوقها ويفتح أمامها الآفاق ويزيل عنها الجهل والتخلف عن ركب الحضارة الأوربية. وقد رأينا كيف نجح شباب هذه الجمعية والمصلحون في عهدهم في الضغط على السلطة الحميدية من أجل إعلان دستور للبلاد كما أسلفنا سنة (١٨٧٦م)، ولكن مع إلغاء الدستور فيما بعد وحل مجلس النواب من قبل السلطان عبد الحميد الثاني بسبب ظروف الحرب الروسية التركية خابت آمال هؤلاء، ولكنهم لم يقنطوا من تحقيق أهدافهم في النهاية مهما كانت المصاعب والتحديات، فأصبحت أبرز أهدافهم في هذه الفترة هي الإطاحة بالحكم الحميدي والعودة بالبلاد إلى الحياة الدستورية من جديد، وفعلاً استطاعت في ٢٤/ تموز ١٩٠٨م/ ثورة عسكرية نظمتها هذه الجمعية أن تجبر السلطان عبد الحميد الثاني على إعلان الدستور وإعادة الحياة النيابة إلى البلاد من جديد[1].

وكان بعض شباب العرب ومستنيريهم مندمجين في هذه الدعوة ومنهم من كان منتسباً إلى تلك الجمعية على اعتبار أنها جمعية سياسية عثمانية، واشترك هؤلاء بالحركة الدستورية، وساهم النواب العرب في إنشاء منظمات حكومية ونيابية في البلاد مع رجال الدولة العثمانيين المستنيرين. لقد ذاق هؤلاء طعم الخيبة، كما حصل مع مجموعة شباب تركيا الجديدة إثر تعليق الدستور من قبل السلطان عبد الحميد الثاني وإيقاف أعمال المجلس النيابي، إلا أنهم ما لبثوا أن استبشروا خيراً بعد إعلان الدستور للمرة الثانية (١٩٠٨م) وتأملوا خيراً من الدولة العثمانية والاتحاديين. ولكنه سرعان ما خابت آمالهم للمرة الثانية بسبب السياسة العنصرية

(١) رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيين، ط٢، دمشق ١٩٩٣، ص ٥٣٣-٥٣٤. دروزة، محمد عزة، حول الحركة العربية الحديثة تاريخ ومذكرات، ستة أجزاء، ج١، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٤٩، ص ٢٠-٢١. قتال هند، وسكري، رفيق، تاريخ ا تمع العربي الحديث والمعاصر، طرابلس، لبنان، ط١، ١٩٨٨م، ص ١٦٧-١٦٨-١٦٩-١٧٠.

التي اتبعها الاتحاديون في الدولة، وفرضهم للغة التركية، وتبنيهم للطورانية[1] التركية وهي التي تؤكد الأصل الطوراني للأتراك، وتنص على أن السبيل الوحيد لإحياء العرق التركي هو الاتحاد مع جميع طورانيي الأصل مع العلم أن أكثرهم يخضع للحكم الروسي، والغاية الأساسية هي مجابهة الجامعة السلافية وخطط روسيا في دعمها وكذلك الحركة القومية العربية التي بدأت بالنهوض في البلاد العربية. انضم لهذه الجمعية كما أسلفنا بعض الأحرار العرب باعتبارهم مواطنين عثمانيين لا قوميين عرب ودخلها أيضاً أعضاء من قوميات أخرى ويهود ومسحيين[2].

"من ممارسات الاتحاديين التي أكدت على العنصرية التركية ومحاربة العرب" إنشاؤهم فروع وأندية لحزبهم في مختلف المدن العربية والشامية والعراقية، حيث جعلوا قيادتها في أيدي موظفين أو ضباط من الترك المتحمسين لغايتهم وأهدافهم العنصرية، وأخذوا يدخلون فيها من رأوا في دخوله فائدة من العرب موظفين وغير موظفين وشباباً وغير شباب لتكون لهم أداة تأييد وتعضيد وتهدئة وتمويه، وقوى انتخابية لانتخاب من يرشحونه للمجلس النيابي ممن يضمنون مسايرتهم وولاءهم وقلة خطرهم، حتى لقد بلغ استهتارهم بالعرب إلى حد ترشيح نواب ترك في بعض الأنحاء العربية وإلى التدخل عنوة وعلناً في الانتخابات لضمان انتخاب من يرشحونه من قبلهم[3].

ولقد تأسس فرع دمشق لحزب الاتحاد والترقي في سنة (١٩٠٦م) أي في الوقت نفسه الذي تشكل في سالونيك، ولقد كان لهذا الفرع الدور الكبير في الضغط على الوالي في دمشق شكري باشا (وهو أحد وزراء الدولة العثمانية) بعد الانقلاب

(١) الطورانية: أشهر دعا ا ضايحوك ألب وأحمد غاني ويوسف آقشورا اللذان قدما من روسية وكثير من الأدباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشء الجديد، وهؤلاء يزعمون بأن الترك هم أقدم أمم الأرض وأعرقها مجداً وأسبقها إلى الحضارة، وأ م هم والجنس المغولي واحد في الأصل ويجب أن يعودوا واحداً ولم يقتصروا فيها على الترك في سيبيريا وتركستان الروس وتركستان الصين وإلى ا ر والقوقاس والأناضول وهم يقولون أ م ترك أولاً ثم مسلمون ثانياً. أرسلان، شكيب، حاضر العالم الإسلامي، ثلاث مجلدات، ا لد الأول، القاهرة، (١٣٥٢هـ/١٩٣٣م)، ص ١٥٨-١٥٩.

(٢) رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيين، مرجع سابق، ص ٥٣٤-٥٣٥.

(٣) دروزة، عزة، حول الحركة العربية الحديثة تاريخ ومذكرات، مرجع سابق، ج١، ص ٢١.

(في تموز ١٩٠٨م) للقيام بطرد عدد من كبار الأعيان الدينيين العلمانيين ومن الذين يعملون في إدارة الولاية ممن كانوا موالين للسلطان عبد الحميد الثاني، ومن بينهم رئيس المجلس الإداري للولاية محمد فوزي باشا العظم[1] ونقيب الأشراف والمفتي الحنفي وأحد القضاة في المحكمة الشرعية وقواد كثيرون من الألوية. كما فقدت عائلات أخرى كآل البكري روابطها الهامة مع الحكومة المركزية، عندما طردت الجمعية أمين سر السلطان عبد الحميد الثاني الدمشقي (عزت باشا العابد)[2].

ولكن كان لهذه الجمعية وما مارسته في النهاية من تمييز ضد العرب دور في إيقاظ الوعي القومي لدى العرب وخاصة لدى الطلاب العسكريين الدارسين في الآستانة، هؤلاء الذين أصبحوا فيما بعد النواة الحقيقية للحركة العربية القومية التي قادت البلاد للتحرر.

ب- جمعية الإخاء العربي العثماني:

وهي أول جمعية عربية، أعلن عن تأسيسها في ٢/ أيلول ١٩٠٨م/ قامت بعد إعلان الدستور في /تموز ١٩٠٨م/ وكانت كردة فعل وطنية للتأكيد على ضرورة الوحدة العربية العثمانية.

وقد افتتحت الجمعية رسمياً وسط الحماس الشديد من الجالية العربية في القسطنطينية وحضر الافتتاح أعضاء من جمعية الاتحاد والترقي، واسمها يدل على مقصدها فقد كان العرب يرغبون في معونة الأتراك، فألفوا هذه الجمعية رغبة في توحيد العمل مع جمعية الاتحاد والترقي لصيانة الدستور ورفع مستوى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لهذه الدولة المنهوكة، ومن ثم إعلاء شأن العرب

---

(١) محمد فوزي باشا العظم: (١٢٩٧-١٣٥٣هـ=١٨٨٠-١٩١٩م) فاضل دمشقي المولد والوفاة، كان يحسن التركية والفرنسية، عين مترجما في ديوان الأمور الخارجية، ثم منشئًا في ديوان مجلس الشورى. وهو والد السياسي السوري خالد العظم. الفرفور، محمد عبد اللطيف صالح، أعلام دمشق في القرن الرابع عشر، مرجع سابق، ص ٢٢٢.

(٢) خوري، فيليب، أعيان المدن والقومية العربية، سياسة دمشق، (١٨٦٠-١٩٢٠م)، بيروت، ١٩٩٣ ط١، ص ٩٥-٩٦.

الذين يكونون الجزء الغالب في الإمبراطورية، وكان من حق كل شخص منتسب إلى العرب موطناً ومولداً الاشتراك في هذه الجمعية على شرط أن يكون متصفاً بالصفات الحسنة[1].

أهدافها:

المحافظة على الدستور وتوحيد العناصر والملل التي تظللها الراية العثمانية بغض النظر عن الفروق الدينية والجنسية تحت راية السلطان العثماني، وتحسين أوضاع المقاطعات العربية على أساس المساواة الحقيقية مع الأجناس الأخرى في الدولة، ونشر التعليم باللغة العربية، وتنمية الشعور بالمحافظة على العادات العربية واتباعها، ونشر المعرفة بشكل عام في الدولة عن طريق تأسيس المدارس وإصدار الجرائد وبناء المعامل وتوطين البدو، والتفاهم مع الاتحاديين الذي أخذوا يسيئون إلى العرب جهراً وعلانية، وقد أسهم الطلاب العرب في الآستانة بتفعيل دور الجمعية وحملوا على الاتحاديين حملة موفقة[2].

من أبرز شخصياتها في استانبول: عارف المارديني، صادق المؤيد[3]، شفيق المؤيد[4]، شكري الأيوبي[1]، وقد لقيت هذه الجمعية تأييداً من الطلاب العرب في

---

(١) صالح، نجيب، تاريخ العرب السياسي (١٨٥٦-١٩٥٦)، دار اقرأ، بيروت، (١٤٠٦هـ-١٩٨٥م)، ص ١٣١. أحمد، عزت عبد الكريم، ومحمد، بديع شريف، وزكي، المحاسني، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، مطبعة الرسالة، القاهرة، د.ت ص ٨٧. دروزة، محمد عزت، مرجع سابق، ج١، ص ٢٥.

(٢) صالح، نجيب، تاريخ العرب السياسي، مرجع سابق ص ١٣١. انطونيوس، جورج، يقظة العرب، ص ١٧٦-١٧٧. دروزة، محمد عزة، حول الحركة العربية الحديثة تاريخ ومذكرات، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٥. فتال، هند، تاريخ ا تمع العربي الحديث والمعاصر، مرجع سابق، ص ١٧١.

(٣) صادق المؤيد: (١٣٢٩هـ=١٩١١م) العظم قائد عسكري في الجيش العثماني مولده ومنشؤه في دمشق - انتدب للقيام بعدة مهمات من قبل السلطان عبد الحميد الثاني منها في بلغاريا وإيصال لأسلاك البرقية إلى الحجاز توفي في دمشق. الزركلي، الأعلام، ج٣، ص ١٨٥.

(٤) شفيق المؤيد: (١٢٧٣-١٣٣٤هـ=١٨٥٧-١٩١٦م) ابن أحمد المؤيد العظم، من طلائع النهضة السياسية في سورية، ولد في دمشق، تعلم في بيروت، سافر إلى الآستانة، انتخب نائباً لدمشق، ا م بتشكيل جمعية اتحاد الإخاء العربي، المعادية للاتحاديين، مات شهيداً. الزركلي، ج٣، ص ١٦٨-١٦٩.

استانبول بدافع من شعورهم القومي والوطني حيث ساءهم تحامل الاتحاديين خاصة والترك عامة على العرب. ولكن هذه الجمعية لم تعش غير سنة واحدة، إذ حُلت بعد الانقلاب المسلح الذي حدث في استانبول في (٣١ آذار ١٩٠٩م) والذي أدى إلى خلع السلطان عبد الحميد الثاني، فما إن استلم الاتحاديون زمام الأمور في الدولة حتى أغلقوا جمعية الإخاء العربي العثماني لما أنسوه فيها من اتجاهات قومية عربية تشكل خطورة على الكيان التركي[٢].

ج- جمعية بيروت السرية:

وتعد أول جهد عربي قومي منظم، تشكلت سنة (١٨٧٥م) من تجمع خمسة من الشباب السوريين الذين درسوا في الكلية البروتستنتية السورية في بيروت، وهي جمعية سياسية سرية استطاعت أن تنظم اثنين وعشرين عضواً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية، مركزها الأساسي في بيروت كما أنشئت فروع لها في دمشق وطرابلس وصيدا[٣]، وقد مارست نشاطها في لصق المنشورات التي تندد بمساوئ الأتراك على الجدران، وأعدت برنامجاً للقضاء على هذا الحكم وعزمت على تنفيذه ولو بحد السيف.

أهدافها:

تضمن منشور الجمعية الصادر في (٣١ كانون الأول ١٨٨٠م) أول برنامج سياسي عربي مدون، إذ طالب بمنح الاستقلال لسورية متحدة مع لبنان والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد وإلغاء الرقابة والقيود الأخرى التي تحول دون حرية

---

(١) شكري الأيوبي: (١٢٦٧-١٣٤٠هـ=١٨٥١-١٩٢٢م) من رجال الوطنية العسكريين في دمشق مولده ووفاته فيها، تخرج من الكلية الحربية في استانبول، عين حاكماً على حلب حتى وفاته. الزركلي، الأعلام، ج٣، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) فتال، هند، مرجع سابق ص ١٧١-١٧٢. رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيين، مرجع سابق، ص ٥٣٥. صالح، نجيب، مرجع سابق ص ١٣١. دروزة، محمد عزة، مرجع سابق، ج١، ص ٢٥.

(٣) أنطونيوس، جورج، اليقظة العربية، مرجع سابق، ص ١٥٠.

الرأي وانتشار العلم، وعدم استخدام الوحدات العسكرية المجندة من أهل سورية ولبنان إلا ضمن حدود بلادهم.

ويظهر بوضوح أثر فكر اليازجي[1] والبستاني[2]، الأول في سعيه لإعلاء شأن اللغة العربية والثاني في حملته على الجهل، ولكن الجمعية فشلت في تحقيق أهدافها السياسية وانتهت فعلياً (١٨٨٢-١٨٨٣م)، وذلك بسبب ضعف الوعي العام لأهمية القومية العربية وضروراتها، فذهبت شعارات الجمعية وأهدافها أدراج الرياح، ولكن برنامج هذه الجمعية كان فيما بعد هو النموذج لما أتى بعده من برامج قومية للأحزاب العربية التي نشأت فيما بعد، وكان بيانها أول بيان معروف يتضمن أهدافاً سياسية وقومية معينة بشأن القضية العربية وحقوق الشعب العربي، مستقلة عن الكيان العثماني[3].

كلمة أخيرة في هذا الباب: إن ازدياد الوعي القومي لدى الشعوب العربية في تلك المرحلة كان ضرورة حتمية لإنجاح عمل هذه الجمعيات السالفة الذكر، ولفهم أفكار وطموحات الكثير من المفكرين العرب الذين ظهروا في تلك المرحلة. ولكن هذا الأمر لم يكن قد تحقق بعد في المنطقة، وذلك بسبب سيطرة فكرة الوحدة المصيرية ما بين الدولة العثمانية باعتبارها إطاراً يحوي الشعوب الإسلامية كلها تحت جناحيه وما بين الشعوب العربية التي تدين بأغلبها بهذه الرابطة الدينية،

---

(١) اليازجي: الشيخ (إبراهيم اليازجي) (١٨٤٧-١٩٠٦م) ولد في بيروت، من أئمة النهضة الأدبية واللغوية، درس العربية عن أبيه الشيخ ناصيف، ألم بالعبرية والسريانية وعلوم القرآن، أسس مجلة الضياء.
المنجد في الأعلام، ص ٧٤٣.

(٢) البستاني: (بطرس) (١٨١٩-١٨٨٣م) من أعظم أركان النهضة، ولد في الدبية (لبنان)، تعلم في مدرسة عين ورقة، أسهم في ترجمة التوراة إلى العربية، أنشأ المدرسة الوطنية في بيروت ١٩٦٣م، وكان أول من نادى بتعليم المرأة، من آثاره: قاموس محيط المحيط ودائرة المعارف، عرف بالمعلم).
المنجد في الأعلام، ص ١٣١.

(٣) عبد العزيز، عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢م)، مرجع سابق، ص ٣٢٤-٣٢٥.

ولكن ما أن تبلورت هذه الفكرة وتطورت حتى أثمرت ثورة عارمة في المنطقة قادها الشريف حسين[1] في بدايات القرن العشرين.

فضلاً عن ذلك كله فإن للعصر ظروفه وللأمة ظروفها، هذه الظروف وتلك المستجدات دفعت الأتراك الطورانيين إلى بلورة قوميتهم، ولم يكن الأتراك الجدد أكثر تطلعًا من العرب الذين تطلعوا إلى بلورة قوميتهم، ومن الخطأ بشيء تجاهل مستجدات العصر، ولن تبالغ أن العرب لم يكونوا يقصدون بحركتهم الانفصال عن الأتراك، لولا تشدد الأتراك الجدد ومحاولتهم إعادة الهيمنة على شعوب تمتلك تراثًا أصيلاً ولديها نسيج قومي متماسك، عجزت الشعوب الغربية عن تقطيعه أو تمزيقه.

(١) الشريف حسين: (١٢٧٠-١٣٥٠هـ=١٨٥٤-١٩٣١م) الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين بن عون، من أحفاد أبي يمن ابن بركات الحسني الهاشمي: أول من قام في الحجاز باستقلال العرب عن الترك وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين، ولد في الآستانة، أمضى بقيت حياته منفيا في جزيرة قبرص سنة (١٩٢٥) فأقام ست سنين ومرض فيها، ثم سمح له الإنكليز بالعودة إلى عمان، ومات فيها، فحمل إلى القدس ودفن في المسجد الأقصى. الزركلي، الأعلام، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٤٩-٢٥٠.

الفصل الثاني

الحياة الدينية في دمشق
في ظل الإدارة الحميدية

أولاً: أهم الطرق الصوفية ونشأتها: تعريف التصوف

أ- أولى الفرق الصوفية في الدولة العثمانية

ب- الطرق الصوفية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وتطورها في الدولة العثمانية وهي:

١. الطريقة المولوية:

٢. الفرق الصوفية الجديدة (الكازرونية - الخلوتية - النقشبندية - البيرامية).

- الطريقة البيرامية.
- الطريقة القادرية.
- الطريقة الخلوتية.
- الطريقة النقشبندية.
- الطريقة البكتاشية.

ج- الطرق الصوفية في مدينة دمشق في أواخر العهد العثماني:

١- أوضاع دمشق الدينية في تلك المرحلة:

٢- أهم الطرق الصوفية في دمشق:

١- الطريقة النقشبندية (أسسها - أتباعها - زواياها - فروعها).

٢- الطريقة الخلوتية (أسسها - أتباعها - زواياها - فروعها).

٣- الطريقة القادرية (أسسها - أتباعها - زواياها - فروعها).

٤- الطريقة المولوية (أسسها - أتباعها - زواياها - فروعها).

٥- الطريقة الرفاعية (أسسها - أتباعها - زواياها - فروعها).

٦- الطريقة الشاذلية (أسسها - أتباعها - زواياها - فروعها).

ثانياً - التكايا والزوايا والربط:

١- لمحة تاريخية عن التكايا في مدينة دمشق:

٢- أهم التكايا:

١- التكية السليمية.

٢- التكية السليمانية.

٣- التكية المولوية.

٤- التكية النقشبندية.

٥- تكية شمسي أحمد باشا.

٦- تكية خالد أبي بهاء ضياء الدين النقشبندي الدمشقي.

٣- الزوايا والربط (تعريف):

٤- أهم الزوايا الموجودة في مدينة دمشق حتى أواخر العهد العثماني.

٥- الزوايا في القرن (العاشر - الحادي عشر - الثاني عشر - الثالث عشر - الرابع عشر).

١- الزاوية السعدية الجباوية.

٢- الزاوية الصمادية.

٣- الزاوية العمرية.

٤- زوايا الشاذلية.

٥- زوايا الطريقة الخلوتية.

٦- زوايا الطريقة المولوية.

٧- زوايا الطريقة الرفاعية.

٦- أهم الربط في دمشق

ثالثاً: مقامات الأولياء والصالحين في مدينة دمشق ومواقعها:

أ - قبور الأنبياء

ب - قبور الصحابة

ج - قبور الأولياء والصالحين والعلماء الدمشقيين المشهورين

رابعاً: المسيحيون في مدينة دمشق:

أشهر الطوائف المسيحية في مدينة دمشق.

١- طائفة الروم الأرذثوكس.

٢- الروم الكاثوليك.

٣- السريان واليعاقبة والكاثوليك.

٤- الأرمن.

٥- الموارنة.

٦- البروتستانت.

خامساً: اليهود في مدينة دمشق:

١- لمحة تاريخية.

٢- أوضاعهم وأحياؤهم في دمشق.

٣- أبرز أسرهم.

٤- دورهم الاقتصادي والسياسي في القرنين التاسع عشر والعشرين.

خاتمة.

الحياة الدينية في دمشق في ظل الإدارة الحميدية

امتازت دمشق عبر التاريخ بأهميتها السياسية والاقتصادية والدينية، فلقد كانت أعظم حاضرة عربية إسلامية زمن الدولة الأموية باعتبارها عاصمة الدولة، ولم تفقد بريقها مع قدوم العثمانيين إليها بل زادوا في رونقها وجمالها وأهميتها السياسية بشكل عام والدينية بشكل خاص. فكانت رابع المدن الإسلامية في الأهمية بعد كل من مكة والمدينة والقدس، وهذا الأمر يبرر غناها بالكثير من مدافن الأنبياء وأزواج النبي وأحفاده وأسباطه والصحابة والتابعين والصالحين، فضلاً عن كونها مركزاً لتجمع قوافل الحجاج المسلمين الوافدين من المناطق الإسلامية الشمالية والشرقية، وقد اكتسبت أهمية أيضاً بالنسبة للمسيحيين، ففيها قدم بولس الرسول وفيها مرقد لرفاة القديسين المسيحيين، حيث أُنشِئ إلى جوارهم كنائس مقدسة.

ولقد حرص العثمانيون على إعطاء دمشق الأهمية الدينية والقدسية التي تستحقها فأطلقوا عليها ((شام شريف))، وشجعوا كل ما له صلة بالدين من طرق صوفية وإقامة التكايا والزوايا والكثير من الأعمال التي وسمت العهد العثماني في دمشق، فازداد التعصب الديني بين عامة الشعب، وازداد التخوف من التجديد ومن الغرب باعتبارهم أعداءَ الإسلام التقليدين وبالتالي فقد أدى هذا الأمر إلى فرض نوع من العزلة على شعوب المنطقة الرافضة للتغيير أو التطوير، فكان ما وصلت إليه البلاد في أواخر عهد الدولة العثمانية والتيار العلماني الجارف الذي ما لبث أن اخترق البلاد شرقاً وغرباً محدثاً فيها تغيراً جذرياً أبدياً[1].

---

(١) نعيسة، يوسف، مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين (١١٨٦-١٢٥٦هـ/١٧٧٢-١٨٤٠م). دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٦، جزأين، ج٢، ص ٣٨١-٣٨٢.

أولاً: أهم الطرق الصوفية ونشأتها:

تعريف التصوف والصوفية: التصوف أو ارتداء الصوف، اسم يطلق على حركة سيطرت على عقول المسلمين وقلوبهم مدة ألف سنة، وما تزال قوية في كثير من أرجاء العالم الإسلامي[1]. والتصوف فكر إسلامي فلسفي نشأ مع الإسلام وبدأ بحركة الزهد ثم تطور إلى فكرة التصوف فالإسلام والقرآن هما المنبع الأول للتصوف.

وكلمة تصوف لم توجد في اللغة العربية إلا في القرن الثاني الهجري، وأول رجال مدرسة التصوف هو الحسن البصري[2] (٢٣هـ/٦٤٣م-١١٠هـ/٧٢٨م)، وكان في البصرة مدرسة صوفية كان من أوائل روادها أبو حمزة الصوفي[3]، وكان المتصوفون في القرن الأول يطلق عليهم النساك والقراء والزهاد والفقراء حتى ظهر في القرن الثاني لفظ تصوف أو صوفي[4]، ويلخص السراج تعريفات الصوفية أنها العلم بالله، وبأحكام الله، العاملون بما أنزله الله تعالى، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل، الواجدون بما تحققوا القانون بما وجدوا لأن كل واحد قد فني بما وجد.

---

(١) الفاروقي، إسماعيل راجي، والفاروقي، لوس لمياء، أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٤٢٥.

(٢) الحسن البصري: ولد (٢٣هـ/٦٤٣م) وتوفي (١١٠هـ/٧٢٨م)، ابن البصرة التابعي، الجليل والورع الزاهد والمفكر الإسلامي الجليل، كان له مدرسة كبيرة في البصرة ضمت صفوة العباد والنساك ويرجع إليه تأسس فكر صوفي أصيل في أواخر القرن الأول الهجري. خفاجي، محمد عبد المنعم، التصوف في الإسلام وأعلامه، الإسكندرية، دار الوفاء، ط١، ٢٠٠٢، ص ١٥.

(٣) أبو حمزة الصوفي: وهو أبو حمزة الخراساني وأصله من نيسابور، صحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد، وكان من أفتى المشايخ وأورعهم توفي سنة (٢٠٩هـ/٨٢٤م). السلمي، عبد الرحمن، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، مصر، ط٢، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٣٢٦. البستاني، بطرس، دائرة معارف البستاني، دار المعرفة، بيروت، (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م)، ١١مجلد، م٢، ص ١١٥.

(٤) خفاجي، محمد عبد المنعم، التصوف في الإسلام وأعلامه، الإسكندرية، دار الوفاء، ط١، ٢٠٠٢، ص ٨.

وأما عن حقيقة التصوف فتقوم على أساسين: (١) التجربة الباطنية المباشرة للاتصال بين العبد والرب. (٢) إمكان الاتحاد بين الصوفي وبين الله[١].

ولقد غذت الحركة الصوفية أرواح المسلمين وطهرت قلوبهم وحققت تشوفهم للتقوى أو الفضيلة والصلاح والقرب من الله وسرعان ما تنامت هذه الحركة داعمة كل زاوية في العالم الإسلامي، كما أنها تسببت في دخول ملايين الناس في حياض الإسلام وفي ظهور عدد من الدول القوية والحركات السياسية الاجتماعية. وتسببت كذلك في اضمحلال القوة الإسلامية، وفي تخلي المسلمين عن العقلانية من أجل الحدس، وعن المعرفة النقدية من أجل الغيبيات، وعن هذا العالم وشؤونه من أجل العالم الآخر. لقد كان التصوف سيفاً ذا حدين بالنسبة للإسلام والمسلمين، فمن جهة كما ذكرنا كان سبباً في دخول الملايين إلى الإسلام، ومن جهة قاد الناس في كثير من الأحيان نحو الخرافة والتوهم والابتعاد عن الدين القويم[٢].

أ- أولى الفرق الصوفية في الدولة العثمانية:

اتسمت الدولة العثمانية بالصفة الدينية عبر مسيرتها التاريخية، ولقد ظهر اهتمامها وتركيزها على هذا الجانب؛ لأنه وسيلة رئيسية في جمع المسلمين حولها. ناهيك عن أنه في العهد السلجوقي كانت الأوساط المتعلمة في مدن وسط الأناضول تأخذ بالثقافة الفارسية الرفيعة بينما كانت تسود في المناطق الحدودية الثقافة الشعبية القديمة للغزاة والدراويش مع تياراتها الصوفية والآخية. وكان هؤلاء الدراويش الذين يعرفون أيضاً باسم ((الأبدال)) أو ((الآخية)) على علاقة وثيقة مع أوائل البكوات العثمانيين، الذين جاؤوا إلى الأناضول منذ القرن الحادي عشر للميلاد مع أمواج الوافدين التركمان، وهؤلاء يمثلون النواة الروحية والاجتماعية للقبائل التركمانية[٣] في المنطقة، وتظهر الدراسات في تلك المرحلة كيف أنه في

(١) بدوي، عبد الرحمن، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى القرن الثاني، الكويت، ط١، ١٩٧٥م، ص ١٧-١٨.
(٢) الفاروقي، مرجع سابق، ص ٤٢٥.
(٣) اينالجيك، خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، د.ت، د.ط، ص ٢٨١.

القرن الثالث عشر كانت بلاد الأناضول قد شهدت هجرات وافدة إليها حيث وصل مع هذه الهجرات أتباع الطرق[1] والجماعات الدينية الصوفية المتعددة الأشكال والألوان من وراء النهر[2] وخوارزم[3] وخراسان[4] وأذربيجان[5]، وانضم إلى هؤلاء من جاؤوا من مصر وسوريا والعراق[6] وهذه المعطيات كلها شكلت النواة الحقيقية لميل الدولة العثمانية نحو الطرق الصوفية وتنشئتها وإنشاء المرافق الخاصة بها وتشجيعها وخاصة في أواخر القرن التاسع عشر، وأهم الطرق التي ظهرت في القرن الرابع عشر في الدولة العثمانية هي: القلندرية واليسوية والحيدرية والوفائية[7] إبان عهد التأسيس[8].

(١) مصطلح الطرق: هو جمع (طريق) والطريق هو السبيل الذي يطرق بالأرجل أي يضرب، أما الطريقة فهي السيرة والحالة وطريقة الرجل مذهبه، وقد ورد اللفظان (طريق وطريقة) في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾ الأحقاف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا يهديهم طريقاً﴾ النساء: ١٦٨]، وقال تعالى: ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾ طه: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ طه: ٦٣]، وورد في القرآن الكريم جمع طريقة كما في قوله تعالى: ﴿وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا﴾ الجن: ١١]، يطلق على شيخ الطريقة شيخ السجادة، ولا يزال هذا اللقب معتمدا في حلب وتعني من يستقيم على الشريعة والطريقة والحقيقة. عبود العسكري، التصوف بين النظرية والممارسة (قراءة فكرية لحالة الطرق الصوفية في سورية) أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة، إشراف: د.سعاد الحكيم، الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٢م)، ص ٦٧.

(٢) ما وراء النهر: اسم أطلقه العرب على البلاد الواقعة شمالي نهر أمودريا (تركستان الروسية) حتى أواسط أسيا. المنجد في الأعلام، ص ٦٣١.

(٣) خوارزم: اسم أطلقه الجغرافيون العرب على بحيرة آرال. المنجد في الأعلام، ص ٢٧٤.

(٤) خراسان: بلاد قديمة في أسيا بين نهر أمودريا شمالاً وشرقاً وجبال هندوكوش جنوباً ومناطق فارس غرباً تتقاسمها اليوم إيران وأفغانستان. المنجد في الأعلام، ص ٢٦٧.

(٥) أذربيجان: تقع على سواحل بحر قزوين- عاصمتها باكو وكانت إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي سابقاً. المنجد في الأعلام، ص ٢.

(٦) أوغلي، أكمال الدين إحسان، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٩٩٩م، مجلدين، م٢، ص ١٧١.

(٧) أوغلي، مرجع سابق، ص ١٧٢.

(٨) القلندرية: طريقة صوفية أسسها قلندر يوسف العربي الإسباني جاء بها إلى دمياط (مصر) الشيخ جمال الدين الساوي، وهي نفسها يطلق عليها اسم أبدال الروم وهذه الطريقة ينحصر أتباعها في اتباع الطرق اليسوية (نسبة إلى بابا إلياس خراساني (ت ٦٣٨هـ/١٢٤٠م) وهو زعيم الثورة البابائية وشيخ الطريقة الوفائية في الأناضول. وأتباع الحيدرية والوفائية كانوا من الدراويش المجاهدين المحاربين ضمن جماعات الحركة البابائية سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م) وهؤلاء يقدسون شخصين بارزين في القرن الرابع عشر أحدهما هو بابا إلياس خراساني والثاني هو (حاجي بكتاش ولي) أحد

ب- الطـرق الصـوفية فـي القـرنين الرابـع عشـر والخـامس عشـر وتطورها في الدولة العثمانية:

١- الطريقة المولوية[(١)]:

تشـكلت هـذه الطريقـة سـنة (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) وانتشـرت بـين حكـام الإمـارات التركمانيـة وفي شـتى أنحـاء الأناضـول، وأقيمـت لهـا تكايـا في تلـك الـبلاد في القـرن الرابـع عشـر الميلادي، وكـان مركـز إدارة هـذه الطريقـة في التكيـة الأم في قونيـة، ولقـد انتهجـت هـذه الطريقـة نهجـاً داعمـاً للسـلطة الحاكمـة ومعارضًـا للحركـات التمردية الهدامة للدولة.

وسياسـتها هـذه أكسـبتها ميـزات خاصـة لـدى السـلطات، فتمكنـت مـن الحصـول علـى أوقـاف غنيـة وواسـعة في الإمـارات الأناضـولية المختلفـة الأمـر الـذي أعطاهـا أساسـاً اقتصادياً قوياً في تلك المرحلة.

وكانت البداية الحقيقية لنهضة هذه الطريقة في أواسط القرن الخـامس عشـر، والدليل على ذلك أن السلطان مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١) أقام تكية كبيرة في أدرنـة للطريقة المولوية[(٢)] ووضع رسمياً هذه الطريقة تحت توجيه ودعم السـلطة المركزيـة في الدولـة وقـد وجـد في القـرن السـادس عشـر نحـو سـت وسـبعين زاويـة في القصـبات

خلفائه البارزين ومن مشايخ الحيدرية في الوقت نفسه، فالوفائية قدست تعاليم بابا إلياس، والحيدرية واليسوية قدسوا تعاليم حاجي بكتاش وسوف تعرف فيما بعد بالطريقة البكتاشية التي ستصبح من أكثر الطرق الصوفية انتشاراً وشعبية في الدولة العثمانية لاسيما في أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. المنجد في الأعلام، ص ٥٥٦، أوغلي، مرجع سابق، ص ١٧٣-١٧٤-١٧٥.

(١) المولوية: نسبة إلى العلامة جلال الدين الرومي، لم تنشأ هذه الطريقة في حياة جلال الدين الرومي نفسه، فقد أخذ الطريقة الكبروية عن والده، والطريقة الملامية والقلندرية عن شمس الدين التبريزي، وعمل تفسير هذه الطرق بالاعتماد على فكرة وحدة الوجود عند ابن عربي، وصاغ لنفسه مفهوما جديدا خاصاً به، ولكن لم يتخذ هذا المذهب الجديد كطريقة صوفية جديدة في بداية الأمر حتى كان تشكلها في أيام جلبي حسام الدين (٦٨٢هـ/١٢٨٣م) ثم سلطان ولد سنة (٧١٢هـ/١٣١٢م) ثم أولو عارف جلبي سنة (٧٢٠هـ/١٣٢٠م)، وبعد هذه المرحلة وضع أساس العبادات فيها وطقوسها الخاصة وزيها. أوغلي، مرجع سابق، م٢، ص ١٧٩.

(٢) أوغلي، مرجع سابق، م٢، ص ١٨١.

الصغيرة ونحو أربع عشرة تكية كبيرة في الحواضر الكبرى في الدولة العثمانية[١]، وما أن حلَّ القرن السابع عشر حتى اكتمل نضج هذه الطريقة فبدأت تظهر منذ ذلك الحين شخصياتها ورموزها البارزة وظهر نفوذها من خلال التقارب الكبير بينها وبين رجالات الدولة في تلك المرحلة[٢]، فأصبحت المولوية منذ ذلك القرن على رأس الجماعات الصوفية الأكثر تقديراً في الدولة العثمانية، ورافق ذلك انتشار كبير للطريقة في الدولة العثمانية فبلغ عدد تكاياها ٣٦٠ تكية وكان مركزها قونية[٣].

٢- الفرق الصوفية الجديدة في الدولة العثمانية:

وصلت إلى البلاد العثمانية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر جماعات صوفية جديدة، قَدِمت من بلاد ما وراء النهر وإيران، أُضيفت إلى الجماعات الصوفية الأساسية في البلاد، والتي هي من مخلفات السلاجقة، وهذه الجماعات هي: الكازرونية والخلوتية والنقشبندية التي ترتكز جميعها في فكرها الديني على أسس صوفية مستوحاة من المذهب السني[٤].

والطريقة الكازرونية نسبة إلى الشيخ أبي إسحاق الكازروني (٤٢٦هـ/١٠٣٤م) نشأت في إيران وهي من الطرق الصوفية ذات الصبغة الحربية، دخلت الأناضول في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، أقيمت لها التكايا في بورصة أنشئت بأمر من بايزيد الأول الملقب يلدرم (الصاعقة)، وفي قونية أقامها أبناء قرمان سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م)، واستمر وجود هذه الطريقة حتى القرن السادس عشر ثم ذابت داخل الطريقة النقشبندية.

ونشأت في أواخر القرن الرابع عشر أيضاً الطريقة النوربخشية (أو الذهبية) وهي فرع من الطريقة الكبروية وذلك على يد الشيخ المتصوف شمس الدين محمد بن علي الحسيني المعروف بأمير سلطان، والطريقة الزينية وقد أنشأها الصوفي زين الدين

(١) أوغلي، مرجع سابق، م٢ ص ١٨١.
(٢) أوغلي، مرجع سابق، م٢، ص ١٧٩-١٨٠-١٨١.
(٣) العسكري، التصوف بين النظرية والممارسة (دراسة ميدانية)، ص ٧٧.
(٤) أوغلي، مرجع سابق، م٢، ص ١٨١.

الحافي (٨٣٩هـ/١٤٣٥م) وضريحه موجود حالياً في هراة[١] وقد تلاشت هذه الطريقة بعد عهد السلطان محمد الفاتح[٢].

❖ **الطريقة البيرامية:**

مؤسسها هو حاجي بيرام ولي (٨٣٣هـ/١٤٢٩م) من قرية ذو الفضل (تعرف القرية اليوم باسم (*Solfasol*) بالقرب من أنقرة، ووجهت هذه الطريقة في البداية إلى الفلاحين والبسطاء من عامة الشعب. وفي القرن السادس عشر تحولت إلى الطريقة الملامية[٣].

❖ **الطريقة القادرية:**

وتسمى بالطريقة الجيلانية أيضاً: وتنتسب إلى الشيخ عبد القادر[٤] الجيلاني الذي أسسها في القرن السادس الهجري في بغداد[٥] سنة (٥١٠هـ/١١١٦م) وقد دخلت الأراضي العثمانية في القرن السادس عشر الميلادي، وحملت القادرية بين تعاليمها الصوفية أثر الطريقة البيرامية، انتسب لها كثير من رجالات الدولة العظام من أمثال الوزير الأعظم محمود باشا، وتفيد بعض المراجع ولاسيما التركية أن الطريقة القادرية انتشرت في الدولة العثمانية وحظيت بانتشار واسع ولا تزال غير معروفة حتى تاريخه[٦].

❖ **الطريقة الخلوتية:**

المؤسس هو إبراهيم زاهد كيلاني (٧٠٥هـ/١٣٠٥م)، وقد طورها ووسعها الشيخ سراج الدين عمر لاهيجي المتوفى في هراة سنة (٨٠١هـ/١٣٩٨م)، كانت بداية

---

(١) هراة: مدينة شمال غربي أفغانستان، ينسب بناؤها إلى الإسكندر المقدوني، وذكرها ياقوت الحموي أ ا من أمهات مدن خراسان، دخلها التتر سنة (٦١٨هـ/١٢١٩م) وخربوها. ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، خمسة أجزاء، ج٥، ص ٤٥٦.

(٢) أوغلي، مرجع سابق، م٢، ص ١٨٢-١٨٣.

(٣) أوغلي، مرجع سابق، م٢، ص ١٨٣-١٨٤.

(٤) الزوبي، ممدوح، محمد، الطرق الصوفية (ظروف النشأة وطبيعة الدور)، دار الأهالي، دمشق، ط١، ٢٠٠٤، ص ١١١.

(٥) تعريف صاحب الطريقة: هو الشيخ عبد القادر الجيلاني: أبو محمد محي الدين بن أبي صالح عبد الله، وقيل ابن أبي موسى جنكي دوست الجيلاني نسبة إلى مدينة جيلان ويعود نسبه إلى الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما. الزوبي، مرجع سابق، ص ١١١.

(٦) أوغلي، مرجع سابق، مجلد٢، ص ١٨٤.

انتشارها في إيران، وقد دخلت الأناضول في بداية القرن الخامس عشر، لم تعرف الخلوتية نظاماً مركزياً مثل بقية الطرق الأخرى كالمولوية والبكتاشية، لذلك انقسمت بعد فترة قصيرة إلى فروع متعددة[1]، برزت هذه الطريقة كقوة سياسية ودينية حقيقية في القرن السابع عشر، وذلك من خلال الحرب التي شنتها الدولة العثمانية ضد الطريقة الخلوتية في تلك المرحلة، ولم تنتهِ هذه الحرب إلا بعد تدخل الصدر الأعظم كوبرلي محمد باشا وحسمه للأمر نهائياً[2].

❖ **الطريقة النقشبندية:**

أسسها محمد بهاء الدين البخاري المشهور بنقشبند (٧٣٠هـ/١٣٢٩م) الذي تتلمذ على يد الشيخ محمد بابا السماسي في القرن الرابع عشر الميلادي، وكانت تسمى في البداية الصديقية نسبة إلى الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ، وتنتشر حالياً في بلاد فارس وتركستان وقازان[3] وتركيا وبلاد الشام[4].

دخلت الأراضي العثمانية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وأقيمت لها التكايا في أنحاء البلاد، توطدت علاقات هذه الطريقة مع السلطة الحاكمة زمن السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني، وما إن أتى القرن السابع عشر حتى انتشرت في جميع أنحاء الدولة. وقد تفرعت في تلك المرحلة إلى فرعين: المجددية والخالدية[5].

❖ **الطريقة البكتاشية أو البكطاشية:**

أسسها الشيخ محمد بن إبراهيم آتا الشهير بالحاج بكتاش. ولد في نيسابور ثم جاء إلى الأناضول حيث قام بتأسيس الطريقة البكطاشية فيها، ودعا لها في عهد

---

(١) أوغلي، مرجع سابق، مجلد٢، ص ١٨٥.

(٢) أوغلي، مرجع سابق، مجلد٢، ص ١٨٤، ١٨٥.

(٣) قازان: مدينة في روسيا على ر الفولغا، عاصمة جمهورية التتر المستقلة. المنجد في الأعلام، ص ٥٤١.

(٤) الزوبي، مرجع سابق، ص ١٨٥.

(٥) أوغلي، مرجع سابق، مجد٢، ص ١٨٥، ١٨٦.

السلطان العثماني أورخان*، توفي سنة (٧٣٧هـ/١٣٣٦م)، والطريقة البكطاشية هي خليط من الطريقة القلندرية والسيوية والحيدرية[(١)].

انتشرت هذه الطريقة في الأراضي التركية بشكل عام وفي الأناضول وأراضي الروملي بشكل خاص، وكان أكثر أتباعها من أمة الأرناؤوط[(٢)].

فلسفتها تقوم على عقيدة وحدة الوجود، ويقول أتباعها إن أصولها انحدرت من الإمام علي بن أبي طالب[(٣)] كرم الله وجهه.

اتصلت البكتاشية بفرقة الإنكشارية وذلك بعد أن سار السلطان العثماني أورخان (١٣٢٤-١٣٦٢م) مع فرقة الإنكشارية إلى الحاج بكتاش وطلب منه أن يباركها فوضع الشيخ يده على رأس أحد جنودها ودعا لهم قائلاً: "فليكن اسمهم إنكشارية، اللهم اجعل وجوههم بيضاء وسيوفهم فواصل، ورماحهم قاتلة، واجعلهم منتصرين قاهرين لأعدائهم"[(٤)].

واعتبارًا من هذه المرحلة بدأ الإنكشارية بتسمية أنفسهم بالبكتاشية، وقويت العلاقة ما بين الطريقة وبين السلطة العثمانية، فأصبحت تكايا البكتاشية المنتشرة في أرجاء البلاد العثمانية موئلاً للإنكشارية وأوجاقها، وكان لكل ثكنة عسكرية إنكشارية مرشد بكتاشي، كما أقيمت تكية بكتاشية قرب كل معسكر للإنكشارية، وبذلك تسلطت البكتاشية على الإنكشارية تسلطًا تامًا إلى أن قضى السلطان محمود الثاني على أتباع هذه الطريقة ومشايخها وعلى الإنكشارية والدولة[(٥)]، وذلك سنة (١٢٤٢هـ/١٨٢٦م) عندما قام بالقضاء على النظام

(*) أورخان: ولد سنة (٦٨٠ه/١٢٨١م)، تولى السلطنة سنة (٧٢٦ه/١٣٢٥م)، وكان يبلغ من العمر ٤٣ سنة، ومدة سلطنته ٣٥ سنة، مات سنة (٧٦١ه/١٣٥٩م). حليم بك، مرجع سابق، ص ٥١، ٥٢.

(١) الزوبي، مرجع سابق، ص ٥١، ٥٢.

(٢) أرسلان، مرجع سابق، ج٤، ص ٣٤٩.

(٣) الزوبي، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٤) الزوبي، مرجع سابق، ص ١٨٣، ١٨٤.

(٥) الزوبي، مرجع سابق، ص ١٨٤.

الإنكشاري بكامله في الدولة، وبذلك تهدم قسم كبير من التكايا البكتاشية، وخاصة التي كانت بالقرب من الآستانة[1].

ولكنه وعلى الرغم من ذلك فقد استمرت هذه الطريقة بالانتشار بين صفوف الشعب، وقد لاقت رواجًا كبيرًا بسبب ما كان في أشعارها من لذة روحية وسهولة في الأسلوب، ولما امتاز به شيوخها من رقة وحلو الحديث والبعد عن الجدل العنيف، كما انتشرت الطريقة في مصر، فكانت لهم تكية في جبل الجيوشي في القاهرة فيها جثمان الشيخ عبد الله المغاوري وهو أحد أقطابها وشعرائها، وتكية أخرى في المعادي في القاهرة آخر شيوخها هو أحمد سري بابا[2]. لكن البكتاشية استأنفت نشاطها بعد ذلك من جديد وبنيت لها تكايا جديدة في البلاد مرة ثانية[3]. كانت هذه أهم الطرق الصوفية التي انتشرت في الدولة العثمانية في تلك المرحلة واستمر الكثير منها حتى فترات لاحقة وذلك لارتباط الكثير منها بالحياة السياسية للدولة العثمانية وستشهد الطرق الصوفية نهضة جديدة في القرن التاسع عشر وخاصة خلال فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني الذي أولى هذه الطرق أهمية خاصة وذلك حسب اعتقاده كان لدعم سياسته الدينية التي انتهجها في أواخر حكمه فقرب إليه زعامات الطرق الصوفية وخاصة الطريقة الشاذلية "اليشرطة" واعتنى بمرافقها وقدم الهبات والمساعدات لها، فاتسمت فترة عبد الحميد الثاني بصفة دينية صوفية وخاصة بلاد الشام (دمشق). وسنورد في الفقرة القادمة أهم الطرق الصوفية في الفترة المذكورة التي كان لها الحظوة والمكانة الرفيعة في تلك المرحلة في مدينة دمشق.

(١) أرسلان، مرجع سابق، ص ٣٤٩، ٣٥٠.
(٢) الزوبي، مرجع سابق، ص ١٨٤.
(٣) أرسلان، مرجع سابق، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

ج- الطرق الصوفية في مدينة دمشق في أواخر العهد العثماني:

يتردد على ألسنة العامة والخاصة وفي المفهوم الصوفي أن عدد الطرق الصوفية بعدد أنفاس الخلق وهذا يعني أننا أمام عدد لا نهائي من الطرق الصوفية، ما دامت التجربة الصوفية تجربة شخصية لها خصوصيتها.

ولكن المُتَصَوِفَة انتظموا ضمن عدد من الطرق الأم الرئيسة مثل: الطريقة الرفاعية، الطريقة القادرية، الطريقة الشاذلية، الطريقة النقشبندية، الطريقة العقيلية، الطريقة الخلوتية، الطريقة البكتاشية (البكطاشية)، ولهذه الطرق فروع تعد بالعشرات لكل منها. أي أن جميع هذه الطرق وغيرها وافدة إلى سورية (بلاد الشام) وإلى دمشق حصراً وذلك لمكانة هذه المدينة في نفوس المسلمين، فمن هاجر من غير العرب فاراً بدينه اتجه إلى شام شريف، ومن هاجر من بلاد المغرب العربي جراء وجود الظلم والاضطهاد والاستعمار اتجه أيضاً إلى دمشق، فكانت دمشق محطة حقيقة ومركزاً لكثير من الطرق الصوفية التي نمت وترعرعت في داخل الديار الشامية منذ الأيام الأولى للدولة العثمانية وحتى ما قبل قدوم العثمانيين إلى أيامنا هذه[١].

ويمكن تصنيف المتصوفين في دمشق في المرحلة المدروسة إلى ثلاثة أصناف اجتماعية متباينة:

<u>الفئة الأولى:</u> فئة المتصوفين الذين عكفوا على العبادة وانقطعوا عن الناس في الزوايا والتكايا وغيرها. ولقد عمل بعضهم كشيوخ للأسواق في دمشق أو شيوخ لطوائف الحرف وصارت لهم سمعة دينية، وقد رفع البعض منهم إلى مرتبة التقديس، حيث ادعوا النسب الشريف لآل البيت، وقصدتهم الهيئة الحاكمة للتبرك وللحصول على ود الشعب من خلال مرضاتهم،

أما <u>الصنف الثاني</u> من المتصوفين فكان ذا نشاط اجتماعي ديني ، تمثل في جمع الأتباع والمريدين. وقد رأى الدمشقيون من خلال تنظيماتهم الصوفية، أو الحرفية،

---

(١) العسكري، مرجع سابق، ص ٦٨.

متنفساً لمعاناتهم اليومية الناتجة عن سوء الأوضاع الأمنية والاقتصادية والسياسية في المدينة، وبرز هذا الصنف في تنظيمات الطرق الصوفية المتعددة.

وأما الصنف الثالث فكان أقل الأصناف السابقة تماسكاً وشمل عدداً كبيراً من المسلمين الدمشقيين والغرباء بطبيعة الانتماء إلى طريقة صوفية واحدة. ولم يعتكف هؤلاء في الزوايا للعبادة، كما لم ينقطعوا عن الناس لهذه الغاية، ولم يعفوا عن المشاركة في الحياة العامة أو في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ،بل أسهموا بدورهم فيها. وكان منهم من يعمل في صفوف طوائف الحرف والصناعات المختلفة. وكان هؤلاء من فئات اجتماعية مختلفة[١].

فكان منهم رجل الدين أو رجل السلطة أو الفلاح أو الإنكشاري الخ... ومن خاصة رجال الدين من أخذ بأكثر من طريقة صوفية فمثلاً الشيخ عبد الغني النابلسي الصوفي الشهير كان نقشبندياً وقادرياً[٢] والشيخ حسين بن سليم الدجاني الشافعي أخذ الطريقة الإبراهيمية والقادرية ثم الأحمدية البدوية[٣] والرفاعية الشاذلية، ومات سنة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م[٤]. ولقد تزايد تشعب الطرق الصوفية الرئيسة في دمشق وتزايد عدد المنتسبين إليها مع ازدياد الأوضاع السياسية والاقتصادية سوءاً في البلاد، وازدادت السطحية في ممارستها وطقوسها، وذلك تزامنًا مع التدهور والانحطاط الذي آلت إليه أحوال الدولة العثمانية بشكل عام ودمشق بشكل خاص ولاسيما في نهايات القرن العشرين، فأصبح الهروب إلى الغيبيات والخرافات

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٠٥-٤٠٦.

(٢) تسمى بالطريقة الجيلانية أيضاً وتنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي أسسها في القرن الخامس للهجرة في مدينة بغداد ومن أهم مبادئها توازي التصوف والشريعة فكل حقيقة لا تشهد بصحتها الشريعة فهي زندقة، وتؤكد على نظافة الثوب وطهارة اللباس وطهارة القلب كما تؤكد على الصبر على البلاء وعدم الهروب منه. الزوبي، مرجع سابق، ص ١١١.

(٣) البدوية: وهي الطريقة التي أسسها الشيخ أحمد البدوي خلال القرن السابع للهجرة وقد أخذت البدوية معظم أسسها عن القطب الصوفي عبد السلام بن مشيش الذي كان ينتمي إلى الطريقة الشاذلية وكذلك عن الإمام أحمد الرفاعي وللبدوية شارة خاصة تميزهم عن أتباع بقية الطرق الصوفية وهي العمامة الحمراء والعلم الأحمر، وغالباً ما يظهر الأتباع ذه الإشارات في شهر آب من كل عام حيث يحتفل بميلاد السيد البدوي في مصر. الزوبي، مرجع سابق، ص ١٤٨.

(٤) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٠٥-٤٠٦.

والخزعبلات التي كثيراً ما وجد فيها أصحاب الطرق الصوفية ورؤساؤها ملجأ وطريقاً للنجاة وربما لتناسي الهموم والمشاكل اليومية التي كان يعاني منها الفرد في تلك المرحلة.

وكان الاعتقاد أن الدخول في هذه الطرق هو الوسيلة المثلى للتخلص من هذه المعاناة، فسادت روح التواكل بين العامة وانشغلت بما كان لمشايخها من كرامات وخوارق وبالتبرك بهم للخلاص من مآسيهم عن المشاكل الحقيقية التي كانوا يعيشونها والكوارث الطبيعية والسياسية التي كانت تحصل في البلاد، وقوبل كثير منها بكثرة الالتجاء إلى هؤلاء المشايخ والتضرع إليهم والاستعانة بهم من أجل تخليصهم من هذه المصائب وكشف الغمة عن البلاد فساد الجهل والتخلف بكل معانيه وصوره. وطبعاً فقد ارتاحت السلطات العثمانية لهذه الحالة فقامت بتشجيع هذه الطرق وكثيراً ما قدمت المساعدات المالية لأصحابها ومشايخها من أجل الاستمرار ودعمت الكثير منها لاسيما تلك التي كانت مؤيدة لعدم الخروج عن أمر الحاكم (حاكم الديار الإسلامية) والركون إلى العبادة والترهبن في الحياة، أما بالنسبة للزعامات الصوفية فكانت تجد في مناصبها هذه وخاصة في دمشق باباً واسعاً ومنفذاً لتحقيق الجاه الاجتماعي والربح المادي في وقت واحد. وأكبر دليل على ذلك أن الكثير من هذه الزعامات والشخصيات حاولت تشكيل طرق صوفية خاصة بها وسميت هذه الطرق أو الفروع عن الطرق الصوفية الأصلية بأسمائهم وانطبعت بشخصيتهم[1].

وأما بالنسبة للحالة العلمية لهؤلاء المتصوفين فلم تكن إلا فئة قليلة منهم لها درجة معينة من العلم وهؤلاء بالطبع هم إما رجال الدين والزعامات الدينية أو بعض أبناء التجار والأعيان في مدينة دمشق، وكان سبب تحصيلهم العلمي هذا هو الثراء المادي الذي تمتع به أبناء هذه الفئات، وأما بالنسبة للجهلة منهم فقد علا شأنهم وعلت مكانتهم الاجتماعية بين الناس فتقرب إليهم الأثرياء والحكام طلباً للرضا والتبرك.

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٠٧-٤٠٨. العسكري، مرجع سابق، ص ٧٠-٧١.

وقد استغلت هذه الفئة نفوذها الديني وادعاءها إحداث الكرامات والخوارق في سبيل الحصول على الكثير من الامتيازات المادية والاجتماعية في المجتمع الدمشقي إن كان من عامة الناس أو من قبل الفئة الحاكمة التي كان الهدف الحقيقي من وراء دعمها لهؤلاء هو كسب تأييد عامة الناس (أو المريدين) التابعين لشيخ هذه الطريقة أو تلك، لقد كانت المساعدات والمعونات تأتيهم بغير حساب فعاشوا في رغد ورخاء في أوقات كان الكثير من فئات الشعب (الذين هم على الأغلب من مريديهم) يعيشون في حالة فقر وعوز شديدين[1].

ولتوضيح الدور الاجتماعي والسياسي الكبير الذي أدته هذه الطرق وأتباعها في التأثير في التاريخ السياسي والاجتماعي لمدينة دمشق في تلك المرحلة، سنفرد الحديث لكل طريقة صوفية اشتهرت في مدينة دمشق، وسنحاول أن نوضح مدى تأثير هذه الطرق من خلال تتبع أخبار أتباعها وطقوس ممارستها ومشاركة زعمائها في الحياة السياسية والاجتماعية في المنطقة، ولكن علينا أن نوضح نقطتين هامتين قبل البدء بالحديث عن هذه الطرق وهما:

أولاً: لم تكن هذه الطرق على درجة واحدة من الأهمية في دمشق فالطريقة الأهم والأبرز هي تلك التي تبنتها الفئة الخاصة في العاصمة استانبول وهي على الأغلب الطرق الصوفية الأصلية أو التي تمتلك وسائل مادية كبيرة.

هذه الطرق التي كما أسلفنا في كثير من الأحيان تفرعت إلى فروع متعددة تسمت بأسماء المشايخ الذين أسسوها ونسبت إليهم وربما كان الأمر بدافع شخصي بحت كما أسلفنا القول.

ثانياً: ترأس هذه الطرق في مدينة دمشق شيخ مشايخ، هذه الشخصية التي كانت بمثابة الرئيس على جميع مشايخ الطرق الصوفية في مدينة دمشق، وهذا الشيخ كانت مهمته التحدث على جميع الخوانق والفقراء، وهو الذي يشرف على أمور الزوايا والتكايا وأوقافها في المدينة ولقد حوت سجلات ووثائق المحاكم الشرعية في مدينة دمشق الكثير من أسماء هؤلاء المشايخ الذين كانت في تلك

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٠٨. العسكري، مرجع سابق، ص ٧٠-٧١.

المرحلة تتحصر أسماؤهم (أو ينحصر هذا المنصب) في شيخ الخانقاه السمسيطاطية الذي كان لديه سجلات وجرائد تحمل أسماء النازلين بالخانقاهات[1] التابعة للطرق الصوفية وسجلاً آخر تدون فيه المبالغ التي كانت تصرف على كل خانقاه وغيرها من الأمور[2].

أما الطرق التي كانت سائدة في مدينة دمشق خلال العهد العثماني فكانت على النحو الآتي:

١- الطريقة النقشبندية:

جاءت هذه الطريقة إلى دمشق عن طريق صلتها بالهند، وأول من أدخل الطريقة النقشبندية إلى بلاد الشام هو مولانا خالد ضياء الدين (١٢٤٢هـ/١٨٢٦م) وإليه تنتسب الطرق النقشبندية في سورية وهو مدفون في تربة تحمل اسمه بسفح جبل قاسيون، وحمل الحي الذي بجانب التربة أيضًا اسمه[3]، ولم تظهر أهميتها في مدينة دمشق إلا في أواخر القرن الثامن عشر وذلك على يد آل المرادي وغيرهم، حيث يعد جد آل المرادي (محمد مراد الأول) من أبرز أقطاب الطريقة النقشبندية ولد في بخارى (١٠٥٠هـ/١٦٤٠م) وتوفي سنة (١١٣٢هـ/١٧٢٩م) اتجه مهاجراً إلى دمشق وزار الهند والقسطنطينية وكان مقره الأخير في دمشق، وأصبح قطباً من أقطاب هذه الطريقة فيها. ولقد كان للظروف الطارئة التي حدثت في الهند دور في دفع الكثير من أتباع هذه الطريقة للهجرة والنزوح نحو مناطق غرب آسيا الإسلامية بما فيها بلاد الشام.

ومن أبرز الشخصيات الدمشقية في هذه الطريقة: مفتي دمشق محمد خليل المرادي (١١٧٣-١٢٠٦هـ/١٧٦٠-١٧٩٢م) والذي كان على صلة برجالات الدولة في استانبول، وله الكثير من المؤلفات، ومن أهم أعماله تصديه لمظالم والي دمشق أحمد باشا الجزار حيث كان له دور في عزله عن ولاية دمشق بسبب المظالم التي

(١) الخانقاه: كلمة فارسية الأصل، أصلها خونكاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك، وهي زوايا الصوفية. فمصطلح خانقاه بالفارسية، بيت، مسكن الدراويش والمرشدين.
كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٠.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٠٩. العسكري، مرجع سابق، ص ٧١.

(٣) العسكري، مرجع سابق، ص ٧٢، الزركلي، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٩٤.

ارتكبها فيها[١]. ومن هنا نستطيع الاستدلال على الدور السياسي والنفوذ الذي كان يتمتع به أئمة الطريقة النقشبندية في الدولة العثمانية، لذلك عدت هذه الطريقة من أهم الطرق الصوفية في المنطقة بشكل عام وفي دمشق بشكل خاص وذلك بسبب الصلة الوثيقة التي كانت تربطها برجالات السلطة العليا في استنابول.

وعلى هذا كنا نجد أن أتباع هذه الطريقة كانوا في كثير من الأحيان من خاصة دمشق والهيئة الحاكمة فيها فوالي دمشق سنة (١٢٢٢هـ/١٨٠٨م) الدالي باش الكنج (أي الكنج يوسف الرأس المجنون) يوسف كان نقشبندياً. مثال آخر على نفوذ النقشبنديين: ما ورد عن حادثة سجن أحد شيوخها وهو الشيخ حسن بن إبراهيم البيطار الشافعي الأشعري النقشبندي الذي قامت ثائرة الناس عند سجنه من قبل السلطات ولم تقعد في المدينة وكادت أن تحدث فتنة، لولا أن السلطات أفرجت عنه ووصل النفوذ بهذه الشخصية "أن قابل السلطان عبد المجيد خان[★] مرات عديدة وعرض عليه السلطان تخصيص راتب معاشي فرفض ذلك"[٢].

وقد لبس خرقة المشيخة النقشبندية في دمشق العديد من الشخصيات الدينية في المدينة من أمثال:

الشيخ أحمد البقاعي المتوفى سنة (١٢٠٥هـ/١٧٩٠-١٧٩١م)، وأشهر زوايا هذه الطريقة الزاوية النقشبندية بالقرب من مَنْزل آل المرادي في سوق ساروجة، أنشأها الشيخ الجليل العارف مراد البخاري النقشبندي باني المدرسة المرادية، وزاوية أخرى (الزاوية الهندية) خارج باب الجابية دفن فيها عَلَمُ الله الهندي النقشبندي[٣] وتقع في محلة القماحين حيث كانت تقام فيها حلقات ذكر كبيرة[٤] وورد في إحدى وثائق

---

(١) نعيسة، يوسف جميل، تاريخ حسن آغا العبد قطعة منه، حوادث سنة ١١٨٦ إلى ١٢٤١هـ، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩، ص ١٠.

(★) السلطان عبد ا يد: ولد سنة ١٢٣٧هـ، جلس على العرش سنة ١٢٥٥هـ، وكان عمره ١٨ سنة، مدة سلطنته ٢٢سنة، وتوفي سنة ١٢٧٧هـ. حليم بك، مرجع سابق، ص ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١١.

(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٨.

(٤) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١١.

مدينة دمشق نص تولية "عثمان نافذ جابي بن محمد" على وقف زاوية الهنود (كما ورد في النص) في باب الجابية في دمشق وتولي أمور الخطابة فيها[1].

تفرعت هذه الطريقة في دمشق إلى عدة فروع: أهمها الطريقة النقشبندية المصلحة أو الخالدية، التي تنسب إلى الشيخ محمد أفندي ابن الشيخ نجم الدين ابن مولانا خالد، والفرع الآخر هو فرع الشيخ أسعد أفندي ابن الشيخ محمود شقيق مولانا خالد، ثم فرع بني الخاني ومن أبرزهم محمد الخاني النقشبندي الذي عينه السلطان عبد المجيد شيخاً للتكية السليمانية بدمشق[2].

وأبرز شيوخ هذه الطريقة من أصول غير عربية ومعظمهم كانوا من التجار والأثرياء ورجال الدين البارزين في المدينة الذين وفدوا إليها وعملوا بالتجارة فبلغوا ما بلغوه من غنى ومكانة اجتماعية.

من أبرز مشايخ النقشبندية في دمشق: الشيخ إسماعيل الأناراني[★]، الشيخ أحمد الأغريبوزي المتوفى سنة (١٢٥٠هـ/١٨٣٥م)، ثم أحمد السركلوي البرزنجي المتوفى سنة (١٢٥٠هـ/١٨٣٥م) ثم إسماعيل البرزنجي المتوفى سنة (١٢٥٠هـ) والشيخ إسماعيل البصري النقشبندي المتوفى سنة (١٢٤٠هـ/١٨٢٥م)، محمد تللو المتوفى سنة (١٢٨٢هـ/١٨٦٥م)، الذي وجهت إليه دعوة لزيارة استانبول في عهد السلطان محمود الثاني، ولقد وجهت دعوات مماثلة لغيره من النقشبنديين، وكان السبب وراء اهتمام السلطان هذا هو حاجته لدعم هؤلاء المشايخ في خطة الإصلاح التي قام بها في تلك المرحلة[3].

---

(١) الحكيم، دعد، الأوامر السلطانية لولاية دمشق في تعيين القضاة والولاة والموظفين من خلال ترجمة السجلات المحفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق للأعوام (١٢٣٦هـ-١٢٣٩هـ)، (١٨٢٠م-١٨٢٣م) منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٢، ص ١١١.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ص ٤١٢.

(★) إسماعيل الأناراني: كان مدرس وإمام الطريقة النقشبندية في جامع العداس في دمشق، توفي في أوائل ذي الحجة سنة ١٢٤٢هـ، دفن في سفح جبل قاسيون، الشطي، مرجع سابق، ص ٦٣.

(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١٢، ٤١٣.

أما بالنسبة إلى الدور السياسي والاجتماعي الذي أدته هذه الطريقة: فقد لاحظنا كيف أن مشايخها كانوا على صلة وثيقة بالدولة والسلطات العثمانية وقد تمتع هؤلاء بنفوذ كبير وخاصة في مدينة دمشق وعلى أهلها، لما كان لهم من القداسة والتقدير لدى العامة. وبالنسبة للدور الاجتماعي فقد كان لهذه الطرق دور لنشر الأخلاق الحميدة والحض عليها وذلك من خلال آداب المريدين التي فرضت عليهم، فهذه الآداب والفضائل كانت من شروط دخول المريد إلى الطريقة، وفي كثير من الأحيان ساعد مشايخ الطرق على حل الكثير من النزاعات بين الفئات الاجتماعية المختلفة في المدينة أي أنهم أدوا دورًا اجتماعياً مهماً.

وقبل بداية القرن التاسع عشر أصبح للطريقة النقشبندية والطرق الأخرى مشيخة عامة، يحق لصاحبها التكلم على جميع الطرق والإشراف عليها لدى السلطات العليا في الدولة العثمانية.

وانحصرت في تلك المرحلة مشيخة المشايخ للطريقة النقشبندية في آل خالد النقشبندي[1].

أما فروع النقشبندية الحالية في بلاد الشام:

١- الطريقة النقشبندية التي شيخها أحمد كفتارو، ولها فروع في سورية ولبنان والعالم الإسلامي.

٢- الطريقة النقشبندية التي شيخها عبد الهادي الباني (تفرع عن كفتارو).

٣- الطريقة النقشبندية التي شيخها محمد الخزنوي، ولها فروع في سوريا والعالم الإسلامي.

٤- الطريقة النقشبندية التي شيخها عبد اللطيف نعسان وهو الوحيد في سوريا الذي لم يأخذ الطريقة عن مولانا خالد (سابق الذكر).

٥- الطريقة النقشبندية التي شيوخها من آل حقي في الجزيرة السورية.

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١٣.

٦- الطريقة النقشبندية التي شيختها (القبيسية)، وهي طريقة صوفية نسائية تهتم بالتربية والتعليم وتختار مريداتها من سوية علمية متقدمة[١].

وأما خارج بلاد الشام فلقد انتشرت هذه الطريقة في العديد من مناطق العالم الإسلامي، وكان لها دور فاعل وخاصة في شمال القوقاز. حيث حارب الشيخ شامل شيخ الطريقة في هذه المنطقة مع مريديه وأتباعه القوات الروسية الغازية لبلادهم وذلك في بدايات القرن التاسع عشر وانتصروا عليها في أكثر من معركة. وعندما تمكنت روسيا من السيطرة على شمال القوقاز، وخاصة الشيشان وداغستان في عام ١٨١٣م، حيث سيطرت روسيا بالقوة على الشيشان فيما تنازلت الدولة الفارسية لروسيا عن داغستان بعد أن كانت تحت سيطرتها، انفجرت في وجهها الثورة التي تزعمها أتباع النقشبندية وشيوخها في المنطقة[٢].

ومن روادها المعاصرين الشيخ محمد ناظم القبرصي الحقاني من مواليد لارنكا في قبرص سنة ١٩٣٣م وله أتباع كثر في لبنان وسورية.

وكذلك الشيخ عثمان سراج الدين الذي عاش أكثر من مئة عام، وهو من أصل عراقي، استقر في استانبول حيث شيد فيها مسجداً ومركزاً للنقشبندية، وتوفي سنة (١٩٩٧م) ودفن في الزاوية النقشبندية في استانبول[٣].

٢- الطريقة الخلوِّتية:

(وجاء الاسم من كلمة الخلوة ولقد أسلفنا التفصيل عن هذه الطريقة ومؤسسها وانتشارها)، وهي من الطرق العامة الهامة في المجتمع الدمشقي كما هي النقشبندية فقد كان لها أتباع كثيرون من الفئات الحاكمة في تركيا وفي دمشق.

---

* سجل رقم (١٣١) تاريخ (١٣١٨هـ) ورد فيه: الموافقة على تولية الشيخ عبد الله الخاني بن الشيخ محمد لوظيفة المشيخة والمحدث على الطريقة النقشبندية على وقف في السويقة. الحكيم، مرجع سابق، ص ٣٤٣.

(١) العسكري، مرجع سابق، ص ٧٣-٧٤.

(٢) الزوبي، مرجع سابق، ص ١٦١.

(٣) الزوبي، مرجع سابق، ص ١٦٠-١٦١.

وكانت منقسمة إلى فئتين وهي (الفئة التدريسية) و(الفئة التجريبية)، ولقد تمتعت الأولى بدور سياسي هام في المنطقة، ويلاحظ أن شيوخ الخلوتية كانوا من أصول محلية.

وأول ذكر لمشايخ هذه الطريقة في الوثائق العثمانية تدل على أنه كان من آل اليافي في دمشق، ويتبع في هذه الطريقة أسلوب النبي ﷺ في اختيار خلف عنه حيث أنه اختار أبا بكر الذي لم يكن من أقاربه، فكان هذا نهج الطريقة في اختيار مشايخها، ومن خلال الاطلاع على أسماء مشايخ هذه الطريقة خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر يمكن إثبات هذه المقولة وهم:

الشيخ شاكر العقاد المولود سنة (١١٥٧هـ/١٧٤٤م-١٧٤٥م)، ثم حسن بن عبد اللطيف الدمشقي، الشهير بالعمري المتوفى سنة (١٢٠٠هـ/١٧٨٦م)، وهو تلميذ أحمد البعلي الدمشقي الخلوتي، ثم عمر اليافي المتوفى سنة (١٢٣٢هـ/١٨١٦م-١٨١٧م)[١]، وصاحب الفتاوى المشهور هاشم التاجي الجنيني المتوفى سنة (١٢٦٤هـ/١٨٤٧م)، ثم الشيخ محمد شمس الدين بن حسن الطباخ المتوفى سنة (١٢٣٧هـ/١٨٢١م)، الذي أخذ الطريقة عن أبيه وأصبح شيخاً للطريقة الخلوتية، ثم الشيخ أمين أفندي الجندي المولود سنة (١٢٢٩هـ/١٨١٣م-١٨١٤م)، والشيخ عبد الله الكتاني الصالحي المولود (١٢٠٨هـ/١٧٩٣م)، والمتوفى سنة (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م)[٢].

وهناك الخلوتية المصلحة وتنسب إلى مصطفى البكري[٣]، ولذلك سميت بالخلوتية البكرية، وكان شيخ هذا الفرع الشيخ محمد المبارك الذي أخذ الطريقة عن المرشد العاقل الشيخ محمد المهدي الكلاوي، ثم عمر أفندي الغزي المتوفى سنة (١٢٦١هـ/١٨٤٥م)، وأخذ الطريقة عن الأستاذ مصطفى النحلاوي البكري،

---

(١) خليل مردم بك، أعيان القرن الثالث عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧١، ط٢، ١٩٧٧، ص ١٤٦-١٤٧.
(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١٤-٤١٥.
(٣) هو الصوفي البكري الكبير أبو المعارف قطب الدين السيد مصطفى بن كمال البكري الصديقي المتوفي سنة ١١٦٢هـ/١٧٤٨م). وتعود نسبة البكري أو الصديقي لشيوخ الطريقة إلى الخليفة الأول أبي بكر الصديق. انظر: باشا، د.عمر موسى، قطب العصر، عمر اليافي، مج١، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٣، ص ٣٣.

ومكـان إقامـة الـذكر لهـذا الفـرع مـن الطريقـة يقـع في المشـهد اليـافي في (حجـرة كبيرة) من الجامع الأموي. ثم هناك الخلوتية المصلحة السفرجلانية، والتي ترأسها تاجر دمشقي ناجح هو خليل أفندي السفرجلاني(★) (١٧٩٠هـ/١٨٣٨م)[١].

وأما الفرع الخلوتي الطباخي فكان الشيخ يوسف الطباخ شيخاً له في سنة ١٧٤٦م[٢]، ومن بعده الشيخ خالد النابلسي الدجاني، ثم ابنه الشهير بالطباخ ومن مشايخ هذا الفرع الشيخ محمد الزهدي ابن عمر الدمياطي الأصل الدمشقي الحنفي، الذي عمل على إحياء هذه الطريقة، والذي أخذ الطريقة عن والده وتوفي سنة (١٢٧٠هـ/١٨٥٤م) ثم الشيخ محمد شمس الدين بن حسن المعروف بالطباخ الذي توفي سنة (١٢٧٣هـ/١٨٥٧م)[٣]. أما بالنسبة لزوايا هذه الطريقة: فكانت لها زاوية تقع بالقرب من باب جيرون، وكان يقيم فيها الشيخ أبو بكر الدسوقي الخلوتي[٤] الشافعي الذكر والتوحيد وتقع الزاوية في حارة النقاشات، بالقرب من الجامع الأموي[٥].

وكانت لها زاوية أخرى وتكية بالقرب من باب الله خارج دمشق وهو ما يعرف اليوم بجامع العسالي أنشأها الوالي أحمد باشا المعروف بكوجك أحمد الأرنؤددي(*)

(★) خليل بن عبد الله بن محمد بن عبد الرزاق السفرجلاني الدمشقي الشافعي، شيخ الطريقة السفرجلانية الخلوتية بدمشق، ولد سنة (١٢٠٥هـ)، وكان مشتغلاً بالتجارة، توفي سنة (١٢٧٥هـ) ودفن في باب الصغير. الشطي، أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر، ص ١١٥.

(١) العسكري، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٢) يوسف الطباخ (١١٥٩هـ) يوسف بن عبد الله الشهير بالطباخ الخلوتي الدمشقي، وهو في الأصل مملوك لبني الميداني التجار، أخذ الطريق الخلوتية عن الشيخ الكبير حسن المرجاني البطائحي المعروف بالطباخ توفي سنة (١١٥٩هـ) دفن في تربة الدحداح المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، تحقيق: العلبي، أكرم، ٤ مجلدات، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٤، ص ٢٨٣-٢٨٤.

(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١٥. العسكري، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٤) هو أبو بكر بن محمد بن عبد الوهاب بن شرف الدين بن أحمد عيسى الدسوقي، الدمشقي الشافعي الخلوتي، ولد سنة (١١٢٤هـ) وتوفي سنة (١١٩٣هـ) ودفن بمقبرة باب الصغير المرادي، مرجع سابق، ج١، ص ٦٢-٦٣.

(٥) المرادي، مرجع سابق، ج١، ص ٦٢.

(*) كوجك: كلمة تركية الأصل تعني الصغير.

الذي حكم دمشق سنة (١٠٣٩هـ/١٦٣٠م) ومن مشايخ الخلوتية في دمشق أبو السعود بن أيوب الحنفي الدمشقي، ثم يوسف المملوك، ثم حسن النخال الذي أخذ الطريقة عن مصطفى الصديقي الدمشقي[١]. وفي القرن التاسع عشر أحمد عابدين (١٢٣٩-١٣٠٧هـ=١٨٢٣-١٨٨٩م) وأخذ الطريقة عن محمد الخاني وأحمد السفرجلاني (١٢٢٣-١٣١٢هـ=١٨١٨-١٨٩٤م) وإسماعيل اليعقوبي (١٣٠٠-١٣٨٠هـ=١٨٨٣-١٩٦٠م) أخذ الطريقة عن عمه الشيخ محمد مزيان اليعقوبي وبكري البعال (١٢٥٠-١٣٠٠هـ=١٨٣٤-١٨٩٣م) وأخذ الطريقة عن الشيخ المهدي السكلاوي وكان إماماً وخطيباً في جامع عز الدين في سويقة دمشق. ثم حسن جينة (١٢٤١-١٣٠٦هـ=١٨٢٥-١٨٨٨م) حلبي الأصل أخذ الطريقة عن الشيخ هاشم التاجي ثم سليم المسوتي (١٢٤٨-١٣٢٤هـ=١٨٣٢-١٩٠٦م) أخذ الطريقة عن الشيخ سعدي التاجي[٢]. ثم محمود الموقع (١٢٥٧-١٣٢١هـ=١٨٤١-١٩٠٤م) عالم وأديب[٣]. والملاحظ أن شيوخ الخلوتية الأوائل الذين أقاموا الخلوتية في دمشق هم من أبناء فلسطين، ويلاحظ أيضاً أنه لكل فرع في هذه الطريقة تقاليد تختلف عن تقاليد الفرع الأخر[٤].

٣- الطريقة القادرية:

وتسمى بالطريقة الجيلانية أيضاً وتنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، والذي أسسها في القرن الخامس للهجرة في مدينة بغداد[٥] أنجب عدة أولاد منهم يحيى وصالح وعبد الرزاق (٥٢٨-٦٠٣هـ) وعبد العزيز المتوفى سنة (٦٠٢هـ) فعمل كلٌ من عبد العزيز وعبد الرزاق على نشر تعاليم والدهما ونشر مذهبه بجد وإخلاص بين الناس، وأبرز تلاميذهم علي الحداد في اليمن ومحمد البطاحي في سورية ومحمد بن عبد الصمد في مصر.

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١٦.

(٢) سعدي التاجي ولد سنة (١٢٣٦هـ) توفي سنة (١٢٧٩هـ)، فقيه وعالم صوفي. الشطي، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٣) محمد عبد اللطيف صالح الفرفور، أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، دار الملاح، دار الإحسان، دمشق، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٧٨م، ص ١٥-١٦-٣٥-٤٨-٧٢-١٢٢-٣٢٩.

(٤) العسكري، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٥) الزوبي، مرجع سابق، ص ١١١.

ولقد تميزت هذه الطريقة بأنها من أكثر الطرق الصوفية اتّباعاً لسلوك الطريق القويم في اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم فلذلك امتدحها ابن تيمية[١].

أما انتشارها فلقد تفرعت إلى عدة فروع شملت أقطار العالم الإسلامي مثل اليمن سورية مصر أفريقا السودان والهند تركيا وأخذت مكانها بين أكبر الطرق الصوفية في العالم الإسلامي ويمكن تمييز مريدي هذه الطريقة من خلال ارتدائهم الزي الأخضر والعمائم البيضاء[٢].

ولقد انتشرت القادرية في دمشق على يد آل الكيلاني الحمويين الذين قدموا إلى دمشق واستقروا فيها ومن أبرزهم إسحق الكيلاني ولد سنة (١١١١هـ/١٧٠٠م) وأخذ الطريقة عن والده، ولقد قصده الناس وعظّمه الحكام والقضاة وكان ذلك بسبب ادعاء آل الكيلاني في نسبهم إلى مؤسس الطريقة عبد القادر الجيلاني، ومن أشهر مشايخهم أيضاً ياسين الكيلاني ومريده الشيخ حسين البيتماني الذي أخذ الطريقة عنه وقام بالتدريس في زاويتهم الكائنة تجاه الشيخ محمد الحميري في ميدان الحصا وكان يقيم الذكر في مدرسة إسماعيل باشا العظم بالخياطين وتوفي سنة (١١٧٥هـ/١٧١٣م) والشيخ أحمد البقاعي والشيخ طه الكردي المتوفى (١٢١٠هـ) والشيخ حامد العطار تلميذ طه الكردي والشيخ قاسم الحلاق المولود في دمشق سنة (١٢٢٣هـ) والشيخ محمد طه غزال[٣]، أما في القرن التاسع عشر فأشهرهم: أحمد الجزائري وهو ابن عم الأمير عبد القادر الجزائري (١٢٤٩-١٣٢٠هـ/١٨٣٣-١٩٠٢م) أخذ القادرية عن الشيخ علي الكيلاني ورشيد الخطيب (الكبير) (١٢٦٧-١٣١٦هـ/١٨٥٠-١٨١٨م) دفن في باب الصغير، وشريف ضبيان (١٢٤٦-١٣٤٦هـ/١٨٣٠-١٩٢٧م) أقام حلقات الذكر في القبيبات في حي الميدان وثم عبد الباقي الجزائري (١٢٦٧-١٣٣٥هـ/١٨٥٠-١٩١٦م) وهو

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٢٢-٤٢٣.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٢٢-٤٢٣.

(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٢٤.

ابن أخ الأمير عبد القادر الجزائري أقام الذكر في جامع الخضيرية ثم محمد حجازي الكيلاني (١٢٨٦-١٣٦٠هـ/١٨٧٠-١٩٤١م)[١].

ولقد اشتهر شيوخ هذه الطريقة بالتواضع وعدم إبراز الأبهة في مواكبهم على عكس بعض شيوخ الطرق الصوفية حينئذ، إلا أنهم من جهة أخرى كانوا يدعون إتيان الخوارق والكرامات. ولقد تفرعت هذه الطريقة كمثيلاتها إلى عدة فروع وكان أهمها في دمشق الفرع الكيلاني وأبرز شيوخها: الشيخ محمد سعيد الكيلاني المولود في دمشق سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م[٢] وكانت لهم زاوية في حي العمارة وهي زاوية الكردي[٣].

ومن فروعها أيضاً الفرع الصمادي الذي ينسب إلى الشيخ إبراهيم الصمادي الذي بنى زاوية للطريقة في داخل باب الصغير الجواني، ومن شيوخها الشيخ عبد القادر بن موسى توفى سنة (١٢٢٤هـ/١٨٠٩م) والشيخ عبد القادر الصمادي الذي خلف والده على مشيخة الطريقة ثم الشيخ أحمد الكزبري توفي سنة (١٢٩٩هـ/١٨٨١م)[٤].

ومن فروع القادرية الفرع المواهبي الذي كان تقام أذكاره في مسجد محلة سويقة الحجازين الذي تحول فيما بعد إلى زاوية لهذا الفرع ومن شيوخها حسن الزيات[٥]، تعد الطريقة القادرية من أكثر الطرق الصوفية تفرعًا وانتشارًا في الوقت الحاضر في العالم الإسلامي، فلقد انتشرت في كل من بلاد المغرب العربي (مراكش - تونس - الجزائر) وفي السودان ومصر والنيجير (انتشرت على يد الصوفي محمد الأنصاري) ثم انتشرت في السنغال، ولقد كان للأزهر الشريف في القاهرة

---

(١) الفرفور، مرجع سابق، ص ١٨-٦٩-١٠٣-١٢٩-١٦٣-٢٥٦.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٢٤-٤٢٥.

(٣) الحكيم، مرجع سابق، ص ٣٢٣. سجلات المحاكم الشرعية (رقم الوثيقة ٧٦) تاريخ ١٣١٥هـ ورد فيها براءة شرعية بتولية الشيخ عبد الله الكزبري ابن الشيخ كمال للتولي على مشيخة وقف مدرسة زاوية الكردي سوق العمارة بدمشق وهي تابعة للطريقة القادرية كما ورد في الوثيقة.

(٤) العسكري، مرجع سابق، ص ٧٦-٧٧.

(٥) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٢٥.

دور إيجابي كبير في نشر أفكار الطريقة القادرية في تلك الأماكن في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي وشملت أيضاً أرتيريا والصومال والصحراء الكبرى وموريتانيا، ولقد ساعد انتشار هذه الطريقة في أفريقيا السوداء على دخول أعداد كبيرة من الناس في الدين الإسلامي في تلك البلاد، ولا بد من أن نشير هنا إلى أن الأمير عبد القادر الجزائري(1) ووالده السلطان محيي الدين كانا من أهم رجال القادرية حيث كان السلطان محيي الدين شيخ القادرية وبعد وفاته خلفه ابنه الأمير عبد القادر في مشيخة الطريقة والإمارة في المنطقة(2).

٤- الطريقة المولوية:

وهي نسبة إلى جلال الدين الرومي "وذكرنا سابقاً تفصيلاً حول تأسيسها"، وجلال الدين الرومي هو "ابن بهاء الدين " الذي هاجر مع زوجته وأولاده ومنهم جلال الدين هاربا من اعتداءات المغول على بلاده أفغانستان متجها إلى الأناضول حيث وصل إلى حدود دولة السلاجقة الذين كانوا يحكمون الأناضول في حوالي (٦٠٦هـ/١٢١٢م) واستقر في قونية، وأنشأ هناك مدرسة للدعوة والإرشاد فيها.

وبعد وفاته ورثه ابنه جلال الدين الذي لقي الدعم من قبل السلطات السلجوقية في تلك الآونة فبنيت له مدرسة خاصة هناك، واجتمع له الكثير من الأتباع والمريدين ولقد جال جلال الدين في البلاد بحثًا عن الحقيقة حتى أنه وصل إلى دمشق فأشعل قلوب أهلها حبًا به وإيمانًا بفتاويه، وعاد بعد ذلك لكي يؤسس لمنهج جديد خاص به في العبادة وفي الحب الإلهي فكان منشأ الطريقة المولوية التي نسبت إليه (مولانا) ولقد اشتهرت هذه الطريقة برقصة (السيما) وهي أشبه برقصة السماح الأندلسية، وحتى أن أتباعه كانوا يعرفون في أوروبا بالدراويش الراقصين وما زال ضريح هذا الولي موجودًا في قونيه وقد أصبح الآن مزاراً للمريدين المتغنين بالمثالية والروحية في عالم مادي جامد

---

(1) عبد القادر الجزائري: (١٨٠٨-١٨٨٣م) ولد قرب معسكر (الجزائر) وتوفي بدمشق أمير عربي حارب الفرنسيين في الجزائر سنة (١٨٣٢-١٨٤٧) ثم اضطر للتسليم بعد معارك عديدة فنفي إلى دمشق دافع عن المسيحيين في دمشق في فتنة الستين ١٨٦٠. المنجد في الأعلام واللغة، ص ٢١٣.

(2) الزوبي، مرجع سابق، ص ١١٣-١١٤-١١٥-١١٦-١١٧.

هـو ﻓﻲ أشـد الحاجـة إلى عـودة الـروح[1]. ولقـد انتشـرت هـذه الطريقـة ﻓﻲ أنحـاء الدولـة العثمانية ﻓﻲ بدايات القرن الرابع عشر وخاصة ﻓﻲ منطقة الأناضول. وكان من الأسـباب الرئيسـية الـتي سـاعدت علـى انتشـارها ﻓﻲ الدولـة العثمانيـة هـو بعـدها عـن الخـوض ﻓﻲ الحيـاة السياسـية والبعـد عـن المشـاركة ﻓﻲ الأنظمـة الـتي هـدفت إلى هـدم النظـام السياسـي والاجتمـاعي القـائم ﻓﻲ الدولـة بـل علـى العكـس حاولـت دائمًـا أن تقـف إلى جانـب السـلطة الحاكمـة وبـذلك حصـلت علـى أوقـاف كـثيرة لهـا ﻓﻲ الـبلاد وانتشـرت تكاياهـا ﻓﻲ جميـع أنحـاء الـبلاد حتـى بلغـت حـوالي ٣٦٠ تكيـة وكـان مركزهـا ﻓﻲ قونية قلب الأناضول[٢]، ولقد أنشأت لها أول تكيـة ﻓﻲ دمشـق ﻓﻲ عهـد الـوالي العثمـاني حسن باشـا (٩٩٣هـ) عرفت بتكيـة الـدراويش وتقـع بـالقرب مـن جـامع (دنكـز) وهـي باقية حتى أيامنا[٣]. وبقيت هذه التكية تقام فيها الرقصات المعروفة للمولوية وحلقـات الذكر حتى مجيء أديب الشيشكلي[٤] حيث أوقفت الأذكـار فيهـا وصـودر قسـم مـن التكية وأعطي إلى وزارة الداخلية ليقـام فيـه مسـتوصـف صـحي ولقـد أعيـدت ممارسـة الأذكـار ﻓﻲ التكيـة مـن جديـد منـذ سـنة ١٩٩٥[٥]، وكـان يـترأس مشـيخة الطريقـة بشكل دائم واحد من سلالة جلال الدين الرومي يطلق عليه اسم جلبي (أي السيد) لـذا لم يستلم أحد الدمشقيين مشيخة هـذه الطريقـة وجميـع مـن ورد ذكـرهم ﻓﻲ مشـيختها ﻓﻲ هذه المرحلة هم من أصل رومي، ولذلك لم يكـن لمشايخها الدور السياسـي البـارز ﻓﻲ دمشق كما هو الحال ﻓﻲ مشايخ الطرق الأخرى ﻓﻲ حين كان لشيوخها السـطوة التامـة

---

(١) فطر، سليمان، المولوية يرقصون السيما على أنغام جلال الدين الرومي مقالة في مجلة العربي، العدد ٣٤٨ – نوفمبر ١٩٧٠، ص ١٣٤-١٣٥-١٣٦-١٣٧-١٣٨-١٥١.

(٢) أوغلي، مرجع سابق، مجلد٢، ص ١٨٠-١٨١.

(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١٨-٤١٩. دائرة المعارف الإسلامية، مادة جلال الدين الرومي، مج٢، ص ٧١-٧٢.

(٤) الشيشكلي: أديب الشيشكلي رئيس جمهورية سورية سابقاً، ولد في تشرين الثاني سنة ١٩٠٩م في مدينة حماه التحق بالمدرسة الحربية سنة ١٩٢٩م كان قائد الانقلاب السوري الثالث، تولى رئاسة الجمهورية سنة ١٩٥٣م وبقي حتى انقلاب شباط ١٩٥٤م). من هم في العالم العربي، ج١، إصدار مكتب الدراسات السورية والعربية، سنة ١٩٧٥، ص ٣٥٩.

(٥) العسكري، مرجع سابق، ص ٧٨.

لدى أركان الدولة في استانبول وخاصة عند سلاطينها، فكان المجلس السلطاني في الآستانة يغص بمشايخها[1]. ومن أبرز مشايخها في دمشق في هذه المرحلة الشيخ عبد الرحمن المولوي الرومي القوني نزيل دمشق وشيخ تكية المولوية ولقد كان حافظاً لكتاب "المنثوي" وهو الكتاب الذي ضمن فيه جلال الدين الرومي جميع أشعاره وحكمه، جاء دمشق واستوطن فيها، وكان شيخ الطريقة فيها وكان خاتمة مشايخ المولوية في دمشق وبعده لم يشابهه أولاده ولا الذين غدوا مشايخ لها من بعدهم وتوفي سنة (١١٥٧هـ/١٧٢٥م) ودفن في التكية المولوية في دمشق. والشيخ عبده أفندي ابن الشيخ صالح أفندي[2] وسعيد الأحمدي المولوي الدمشقي الصالحي شيخ المولوية بدمشق، وكان قائماً على التكية المولوية بدمشق فكان يطبخ الطعام للمريدين والدراويش ويقوم على خدمتهم ورعاية التكية توفي سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ودفن في التكية[3].

ومن مريديها ومشايخها أيضاً في دمشق في هذه المرحلة رشيد عرفة (١٢٥٠-١٣٢٥هـ/ ١٨٣٤-١٩٠٧م)، وكان مؤذناً في جامع بني أمية دخل الطريقة سنة (١٢٧٠هـ) في عهد شيخها سعيد الأحمدي فكان رئيس المنشدين في كافة التكايا والزوايا (أنشد أمام السلطان عبد الحميد الثاني ونزل عند أحمد عزت باشا العابد)[4] وسليم أبو سلوى المولوي (توفي سنة ١٣٦٣هـ-١٩٤٣م) شيخ المولوية[5].

وصالح الدرويش (١٢٤٩-١٣٢٨هـ/١٨٣٤-١٩١٠م) المكنى بالدرويش لانتسابه للمولوية دفن في باب الصغير، وصبري المولوي (شيخ المولوية) توفي سنة ١٣١٥هـ-١٨٩٧م) الحلبي الأصل ثم الدمشقي درويش شيخ المولوية بدمشق دفن بالتكية

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١٩.
(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤١٩.
(٣) الشطي، مرجع سابق، ص ١٣٠-١٣١)
(٤) الفرفور، مرجع سابق، ص ١٠٠.
(٥) الحافظ، محمد مطيع ، و أباظة، نزار، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، قدم له: دار الفكر، ط١، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص ١٨١.

المولوية وعارف الجابي توفي سنة (١٣٠٤هـ-١٨٧٩م) عارف بن محمد عثماني الشهير بالجابي مولوي الطريقة[١].

وكان من عادة هذه الطريقة إذا مات شيخها وضعت على قبره هيئة كسوته المولوية المتميزة التي كان يلبسها في حياته، وكانت تعقد مجالسها في يوم الإثنين والجمعة من كل أسبوع ثم فيما بعد أصبحت تعقد بالإضافة إلى هذين اليومين في ٢٧ رجب والنصف من شعبان وليلة الإسراء والمعراج والمولد النبوي وليلة القدر وتتقدم جنائز الأعيان والأثرياء وبعض الصالحين، وكانت برئاسة شيخها أيضًا تشارك بقية الطرق الصوفية الأخرى في توديع شهر رمضان وذلك في الجامع الأموي[٢] الكبير بدمشق.

٥- الطريقة الرفاعية:

وهي الطريقة التي أسسها الشيخ الصوفي أحمد الرفاعي[٣] في القرن السادس للهجرة وتدعو إلى نبذ البدع وتنقية الدين الإسلامي من الشوائب التي لحقت به، فضلاً عن أنها تحث على العمل وترك الكسل وتشجع على الصدق والإخلاص وحسن الخلق وتؤكد على أن كل حقيقة تخالف الشريعة زندقة[٤]. وتعرف أيضًا بالبطاحية نسبة إلى الشيخ الرفاعي منصور البطاحي، الذي أعطاه الخرقة

---

(١) الفرفور، مرجع سابق، ص ١٤٣-١٤٤-١٦٢.

(٢) نعيسة، مرجع سابق ج٢، ص ٤٢١-٤٢٢.

(٣) أحمد الرفاعي: (٥١٢-٥٧٨هـ=١١١٦-١١٨٢م) هو الشيخ أحمد محي الدين أبو العباس المعروف بالسيد الكبير ابن أبي الحسن علي بن يحيى بن أبي حازم ثابت بن علي الحازم أبي الفواري بن أبي علي أحمد المرتضى ابن علي أبي الفضائل بن الحسن الأصغر ورفاعة الهاشمي الملكي ابن أبي رفاعة المهدي بن أبي القاسم محمد بن الحسن أبي موسى بن عبد الرحمن الرضي بن أحمد الصالح ويقال له الأكبر ابن السيد موسى الثاني بن أبي محمد إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الإمام أمير المؤمنين الحسين الشهيد بكربلاء ابن السيد الإمام أمير المؤمنين وزير سيد المخلوقين أسد الله الغالب سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ . محمد، خطار يوسف، السيرة المرضية في ترجمة مؤسسي الطرق الصوفية، المركز العربي بدمشق، ط١، ١٩٩٨، ص ١٣-١٤..

(٤) الزوبي، مرجع سابق، ص ١٤٢.

الصوفية[1]، ولقد تفرعت الرفاعية إلى فروع عديدة بل كثيرة ولا تزال تتفرع على المستوى الصوفي الشعبي فيكفي أن يضع شيخ الزاوية نسبة الرفاعي إلى نسبته حتى يطلق عليه الشيخ الرفاعي وهم كثر في واقع الحال، فهناك في الوقت الحالي في المنطقة الكثير من الطرق الرفاعية التي لا يعرف سندها أو سلسلتها الصوفية والكثير منهم يدعي النسب العصبي بالرفاعي وبالتالي بآل البيت[2].

وأشهر فروعها في دمشق الفرع الجباوي أو السعدي وينسب إلى سعد الدين أبي محمد الشيباني الجباوي الذي أخذ الطريقة عن والده مؤيد الشيباني واتخذ لها رواقاً في قرية جبا من أعمال دمشق، ولقد اتخذت الطريقة الجباوية اللون الأخضر زياً لها وانتشرت في البلاد الشامية واستنابول، وكان لها في دمشق أكثر من مكان لإقامة الأذكار والأوراد، وكان لها زاوية في القبيبات لإقامة الأذكار فيها ولآل سعد الدين الذين خصص لهم زاوية في الشاغور البراني حيث كان لها أوقاف خاصة بها، وكانت هذه الطريقة تقيم حفلة أذكار لها في الجامع الأموي يوم الجمعة بعد الصلاة، وفي آواخر القرن التاسع عشر كانت تقيم أذكارها في كل أسبوع ليلة الجمعة وليلة الإثنين في المقام التوحيدي في محلة القيمرية، وأقام فقراء هذه الطريقة في مسجد تركي حسن في الميدان الفوقاني[3]. ولقد انحصرت مشيخة هذه الطريقة في أبناء وأحفاد وأسباط مؤسسها سعد الدين الجباوي سواء في دمشق أو في بعض المدن الشامية، فلقد دلت وثائق وسجلات المحاكم الشرعية في دمشق على هذا الأمر، فأغلب فرمانات ومراسم تولية مشايخ[4] الطريقة ورعاية زواياها، أكان في دمشق أو ما حولها بينت بأنهم من أبناء وأحفاد مؤسس الطريقة. ولقد جلبت هذه

(١) العسكري، مرجع سابق، ص ٧٨.

(٢) العسكري، مرجع سابق، ص ٧٩.

(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٤) الحكيم، مرجع سابق، الوثيقة (رقم ٤٢٦ تاريخ ١٢٩٣ قضت بتولية محمد سعد الدين الجباوي على مشيخة وقف زاوية الجباوي في دمشق وثيقة رقم ٣١٦ تاريخ ١٢٩٤، تولية الشيخ محمد تاج جباوي بن إبراهيم على مشيخة زاوية الجباوي في محلة القبيبات في الميدان بدمشق والوثيقة رقم ١٧٢ تاريخ ١٣٢١ والوثيقة رقم ٢٧٣ ١٣٢٧هـ. الحكيم، الأوامر السلطانية، ص ١٤٥، ١٥٨، ٣٦٢، ٣٩١.

الطريقة لآل الجباوي وسعد الدين المال والجاه الاجتماعي في دمشق وغيرها وبسبب هذه الامتيازات نشبت خلافات بين أفراد هذه الأسرة على ترأس مشيختها والملك السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي حظيت به، وكان لها أماكن لإقامة الأذكار والأوراد الخاصة بها[1]، وكان للطريقة زاويا كثيرة في دمشق كما أسلفنا، وكان لها زاوية في حمص وحلب آنذاك والزاوية التي في الميدان في دمشق ما يزال يجتمع بها آل الجباوي ومحبوهم حتى أيامنا هذه ويقيمون الأذكار والأوراد فيها ولكن ليست كممارسة صوفية بل أقرب ما تكون إلى سهرة دينية عائلية، ولقد فتحت منذ وقت قريب بعد أن ألغيت نتيجة المرسوم الجمهوري في عهد الشيشكلي[2].

ولقد عمل شيوخها بمعالجة المجانين وشاركوا في الاحتفالات الدينية والعامة المختلفة سواء في زاويتهم الخاصة أو في الجامع الأموي أو في السيارات التي كانت تطوف في دمشق في تلك المناسبات وعد مشايخها من أعيان دمشق وخاصة رجال دينها وكان يحسب لهم حساب في كل محفل وحين البأس ويشاركون في استقبال الولاة العثمانيين ورجالاتهم.

ومن فروعها في دمشق الفرع الشيباني أو الطريقة الشيبانية وكانت تقيم أذكارها كل ليلة جمعة من الأشهر الثلاث (رجب - شعبان - رمضان) في الساحة البرانية من المدرسة التقوية الشافعية في دمشق[3]، والطريقة التغلبية نسبة إلى آل التغلبي، والطريقة الرشيدية والشاذلية التي سنفرد لها بحثًا خاصًا لأهميتها وانتشارها في دمشق وبلاد الشام بشكل عام[4].

ومن رجالات الطريقة الرفاعية في هذه المرحلة أحمد الحلواني الكبير (١٢٢٨-١٣٠٧هـ/١٨١٣-١٨٩٠م) يصل بنسبه إلى أحمد الرفاعي - أحمد الحارون الحجار

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٢٨.

(٢) العسكري، مرجع سابق، ص ٧٩.

(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٠-٤٣١.

(٤) سجلات المحاكم الشرعية بدمشق رقم الوثيقة (١٥) تاريخ (١٢٩٧هـ) براءة شرعية شريفة باسم الشيخ عبد المحسن بن يونس لوظيفته مشيخة تكية الطريقة الشيبانية في زقاق السبع طوالع الشام). الحكيم، الأوامر السلطانية، ص ٢٤٤.

العسل (١٣١٥-١٣٨٢هـ/١٨٩٨-١٩٦٢م) رفاعي النسب والطريقة واتصل بمحمود أبو الشامات - ثابت الحلواني (١٣٠٩-١٣٩٧هـ/١٨٩٢-١٩٧٧م) صالح تقي الدين (١٢٥٦-١٣١٠هـ/١٨٤٠-١٨٩٢م) نقيب الأشراف - أخذ الطريقة الرفاعية عن الشيخ حسن وادي صيادي - علي الحلواني (١٢٢٧-١٣١٢هـ/١٨١٢-١٨٩٤م) شيخ الطريقة الرفاعية بدمشق[١].

٦- الطريقة الشاذلية:

وهي الطريقة التي أسسها الشيخ أبو الحسن الشاذلي[٢] في تونس في القرن الثالث عشر الميلادي وعنه انتشرت في شمال أفريقيا وفي مصر ولها مريدون حتى اليوم في جميع هذه البلدان وأشهرهم أبو العباس المرسي المدفون في الإسكندرية، ولها فروع بلغت ١٥ فرعاً مثل الوفائية والجزولية وغيرها التي سنورد ذكرها لاحقاً[٣].

وحسب رأي مريدي الطريقة فإنها ترجع بنسبها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني وهذا يؤكد ما أوردناه سابقاً بأنها فرع من الرفاعية وترجع إلى الإمام علي بن أبي طالب ﷺ، ثم إلى محمد ﷺ ثم إلى جبريل ﵇، ثم إلى رب العزة ﷻ. ويرون أنفسهم أنهم مختارون من اللوح المحفوظ[٤].

وتفرعت الشاذلية كغيرها من الطرق الصوفية إلى فروع عديدة ولكل فرع شيخه المتصف بالعلم والعمل معًا وكان من أبرز مشايخها عبد الفتاح السباعي[٥] الذي أخذ

---

(١) الفرفور، مرجع سابق، ص ٥٢-٢٦-٥٧-٤٢-٢٠.

(٢) هو أبو الحسن الشاذلي: ولد سنة (٥٩٣هـ/٧٩٦م)، وتوفي سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) الحسني بن عبد الله بن تميم ابن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال علي بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد ابن سيد شباب الجنة وسبط خير البرية أبي محمد الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وابن فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ.

(٣) الزوبي، مرجع سابق، ص ١٥٣.

(٤) العسكري، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٥) عبد الفتاح السباعي بن محمد المعروف بالسباعي الحنفي الحمصي ألف في النحو والفقه والتوحيد، وأخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ عبد الغني المغربي، وولي إفتاء حمص عدة سنين، توفي في القسطنطينية سنة ١١١١هـ. المرادي، مرجع سابق، ج٣، ص ٥٣.

الطريقة عن الشيخ عبد الغني الغزي المتوفى سنة (١١١١هـ/١٧٠٠م)، وقد سميت فروع الشاذلية بأسماء مؤسسيها في دمشق وفلسطين كآل الوفا والسفرجلاني واليشرطي وغيرهم ومن مشايخها أيضًا آل العش وأبو الشامات والعجلوني والقاسمي ومن أبرز شيوخ الطريقة الشاذلية في دمشق حسن السفرجلاني المتوفى سنة (١٢٢٠هـ/١٨٠٥م)، وصالح العش الذي أخذ الطريقة عن القطب الشهير محمد القاسمي المكي ثم الشيخ أحمد العجلوني المولود في دمشق سنة ١١٧٠ الذي أخذ الطريقة عن والده وتوفي سنة ١٢٥٢هـ[١].

وبالنسبة لفروع الشاذلية في دمشق فهي: الوفائية - السفرجلانية - الأويسية - الهاشمية التلمسانية - الصادية - الدرديرية - اليشرطية - الرشيدية - الدندراوية وهي من فروع الشاذلية المستمرة في دمشق ولا تزال للطريقة الدندراوية زاوية في جسرين في الغوطة الشرقية بدمشق وكذلك لها زاوية في الميدان الفوقاني[٢].

وعلى الرغم من تنوعها فلم يكن لها الأهمية ذاتها في دمشق وكانت أهمها الوفائية ومن أشهر شيوخها أبو الأنوار شمس الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين سبط بني الوفا الذي توفي في ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م وكان لها فرع في حلب[٣].

ثم الفرع السفرجلاني الذي أسسه صالح بن محمد بن عبد الرحمن السفرجلاني (١١٤٨-١٢٢٥هـ/١٧٣٦-١٨٤٠م)، ثم الفرع الأويسي الذي ينسب إلى الشيخ أويس الرومي الذي كان له اثنا عشر ألفًا من المريدين، ولقد اعتقد أصحاب هذا الفرع أن الولي إذا مات انقطع مدده واختفت كراماته[٤]، بينما ترى كافة الطرق أن مدد الشيخ وكراماته لا تنقطع بموته، وبعضهم يرى أن الشيخ عندما يموت كالسيف عندما يسحب من غمده وبذا تبدأ كرامات الولي الميت وتدخله

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٣-٤٣٤.
(٢) العسكري، مرجع سابق، ص ٨٠.
(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٣.
(٤) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٣. والعسكري، مرجع سابق، ص ٨١.

بشـؤون مريديـه الأحيـاء، ومـن شـيوخها سـعيد الغـبرة الـذي كـان يقـيم الـذكر في المدرسة الجقمقية، ثم الشيخ عبد الحليم العجلوني المتوفى سنة ١٢٨٠هـ[١].

ثم الفرع اليشرطي الذي دخل إلى عكا من ترشيحا ثم انتقل منها إلى داريا في دمشق، وكان من شيوخها أبناء أبي ريشة، وأبـي الشـامات، وكانت ولا تـزال زاويـة أبـي الشـامات موجـودة في القنـوات، ومـن شـيوخ الشـاذلية اليشـرطية في دمشـق أيضًـا سعيد الخالدي المولود سنة (١٢٢١هـ/١٨٠٧م) ثم أبو بكر الكـردي، وحسـن البيطـار وعبـد الغـني العطـار وعبـد الـرحمن الكـزبـري وحامـد العطـار ومحمـود أبـو الشـامات وغيرهم. وقد قام بنقل هـذا الفـرع مـن ترشيحا إلى داريـا خالـد البقـاعي حيـث اتصـل بسعيد الخالدي المذكور وأعطاه الطريقـة، ولقـد أثـار نقمـة علمـاء دمشـق بتصـرفاته الشـاذة عـن طريـق الإسـلام مـدعياً أن ذلـك مـن جـوهر الـدين بحسـب فهمـه وقـد ردت فاطمة اليشرطية على هذه الاتهامات وهـي مـن شـيوخ الطريقـة في القـرن الرابـع عشـر الهجري /العشرين الميلادي موضحة منهج الشاذلية اليشرطية[٢].

ومـن مشـايخها أيضًـا محمـد الطيـب الجزائـري (١٨٣٩-١٨٩٥م) ولـد في دلـس في الجزائر ثم قدم مع والـده إلى دمشـق في هجـرة المغاربـة الأولى سـنة ١٢٦٣هـ وهـو شـيخ الطريقة الشاذلية الفاسية التي أخذها عـن الشـيخ محمـد الفاسـي الشـاذلي عنـدما قـدم دمشق سنة (١٢٨٢هـ/١٨٦٥م)[٣].

وعبد الغني البيطار (١٨٢٤-١٨٩٧م) الذي أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمـد الفاسـي، وسـليم بـن محمـد بـن يوسـف سمـارة (١٨٣٨-١٩٠٩م) الـذي أخـذ الطريقـة عـن الشـيخ محمـد الفاسـي، ومحمـود أبـو الشـامات (١٨٤٩-١٩٢٢م) الـذي أخـذ الطريقـة الشاذلية اليشرطية عن الشيخ علي نور الدين اليشرطي المغربي نزيل دمشق وخلفه من بعـده في رياسـة الطريقـة، ومحمـد عبـد البـاري (١٨٧٦-١٩٥٧م) الـذي سـلك الطريقـة على يد الشيخ محمد الهبري الكبير.

(١) الشطي، مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٢) نعيسة، مرجع سابق ج٢، ص ٤٣٤-٤٣٥.

(٣) الحافظ، مرجع سابق، ج١، ص ١٢٢-١٢٣.

وأحمد التلمساني (١٨٩٩-١٩٥٩م) الذي تولى مشيخة الطريقة في الشاذلية في دمشق ولد بتلمسان.

ومحمد الهاشمي (١٨٨٠-١٩٦١م) تلمساني المولد، هاجر مع شيخه محمد بن يلس إلى الشام وهو أحد رجال السلسلة الشاذلية، ومن تلاميذه: محمد سعيد البرهاني وعبد القادر عيسى الحلبي في سورية، سعيد الكردي في الأردن، محمد النبهان الحلبي وهاشم السيد الدوماني ومحمد بشير القهوجي في سورية، وهي من أكثر الطرق الشاذلية انتشارًا في سورية[1]. ومن مشايخ وأتباع الشاذلية في دمشق: أحمد الحارون العسل ولد بدمشق (١٩٠٠-١٩٦٢م) وعبد الوهاب الصلاحي (١٨٩٠-١٩٦٢م) وهو من مشايخ الطريقة الرشيدية، ومحمد سعيد البرهاني (١٨٩٢-١٩٦٧م) وعبد الرحمن الخطيب (١٨٧١-١٩٤٠م) وعمر العيطة (١٨٦٥-١٩٤١م) ومحمد صالح الأمدي (١٨٤٦-١٩٥٠م) ومحمود أبو الشامات (١٨٥٠-١٩٢٢م) وهو من رجال السلطان عبد الحميد الثاني. والشيخ أحمد الحارون وابنه عبد الرحيم، وعبد الله أبو الشامات (١٨٨٠-١٩٦٢م) ومحمد العربي اليعقوبي (١٨٧٤-١٩٦٣م) وغيرهم كثيرون، وتعد هذه الطريقة من أكثر الطرق انتشاراً واتباعاً في الوقت الحالي في دمشق وسورية بشكل عام[2].

من خلال استعراضنا لهذه الطرق التي في أغلبها نشأت وترعرعت في دمشق في العهد العثماني، نلاحظ ما يلي:

على الرغم من الدور الكبير الذي أدته هذه الطرق في الحياة الاجتماعية والسياسية في البلاد إلا أنها لم تكن في المكان الصحيح والمناسب للمسؤولية التي كانت ملقاة على عاتقها من قبل أتباعها ومريديها.

وعلى الرغم من أنه في كثير من البلاد العربية والإسلامية قد كان لكبار رجالات الصوفية ومشايخها دور في الثورات ضد الاحتلال بمختلف أشكاله في البلاد، فهؤلاء عندما حصلت البلاد على حريتها واستقلالها كانوا أبعد ما يكون

---

(١) العسكري، مرجع سابق، ص ٨١-٨٢.

(٢) العسكري، مرجع سابق، ص ٨١-٨٢-٨٣-٨٤-٨٥.

عن السياسة والقيادة في بلادهم، فما السر وراء هذا الأمر؟ على ما يبدو فإن هؤلاء قد اكتفوا بالدور القيادي لهم في الطليعة، واكتفوا بخضوع وطاعة المريدين لهم والتي ما تزال مستمرة حتى الآن، فكثير من مشايخ الطرق ورؤسائها في البلاد العربية ما زالوا يتوارثون هذا المنصب جيلاً بعد جيل، متمتعين بسلطات قوية على أتباعهم ونفوذ قوي في بلادهم وذلك لما لهم من قوة اقتصادية ومن قوة تأثير على العامة، وعلى ما يبدو فإن هذه الطرق على الرغم من أهميتها الكبيرة ودورها في الحياة الاجتماعية للبلاد العربية فقد انحصر دورها بالدور الذي قام به مشايخها والذين كانوا في كثير من الأحيان يقدمون رغباتهم ومصالحهم الشخصية على مصلحة الأمة والبلاد، فتمتع الكثير منهم بالحياة الرغيدة والرفاهية في وقت كان فيه السواد الأعظم من مريديهم يعيش فقرًا مدقعًا وحياة بائسة، ولكن لا بد لنا من أن نقر أن من أولى الشخصيات التي واجهت الاحتلال الأجنبي في أوائل القرن العشرين وأبرزها كانوا من مشايخ الصوفية وأربابها من أمثال الشيخ صالح العلي في سوريا، وعمر المختار في ليبيا، وعبد الكريم الخطابي في المغرب العربي، وغيرهم كثيرون وهذا يدلنا على أنه في بعض الأحيان عندما كان يتوفر في رجالات الصوفية الصدق والغيرة الحقيقية على البلاد يكونون في أوائل المصلحين وأوائل المناضلين في سبيل حرية بلادهم، وهذا بالتالي له دور إيجابي كبير في دفع أعداد كبيرة من مريديهم نحو النضال والتضحية والفداء.

ثانياً- التكايا والزوايا والربط:

لقد اهتم العثمانيون منذ دخولهم البلاد الشامية بالتكايا والتركيز على بنائها ثم ما لبثوا أن استبدلوها بالخوانق التي كانت منتشرة بشكل كبير في دمشق قبل قدوم العثمانيين - عرف صاحب خطط الشام محمد كرد علي الخوانق[1] بما يلي: "الخانقاه: كلمة فارسية قيل: أصلها خونكاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك،

(١) الخوانق، مفرده خانقاه، مصطلح فارسي يعني بيت أي مقر الدراويش والمرشدين. (مر تعريفها سابقًا).

وهي زوايا الصوفية واتخذت على هذا النمط في القرن السادس وكان أول من بناها من الملوك بمصر - كما قال السيوطي(١) - السلطان صلاح الدين الأيوبي ورتب للفقراء الواردين أرزاقاً معلومة".

وقيل إن أول خانقاه بنيت في الإسلام للصوفية زاوية برملة بيت المقدس بناها أمير النصارى حين استولى الفرنج على الديار القدسية.

ولقد بلغ عدد الخوانق في دمشق حوالي ست وعشرين أشهرها : الأسدية في باب الجابية ، والإسكافية على نهر يزيد ، والأندلسية والباسطية في الجسر الأبيض ، والحسامية الشبلية والخاتونية والدويرية والروز نهارية والسمساطية والشومانية والشهابية والشبلية والشبناشية والشريفية وخانقاه الطاحون والطاوسية والعزية وخانقاه القصر والقصاعية والكججانية والمجاهدية والنهرية والنجيبية والناصرية واليونسية. ومن الخوانق الحديثة خانقاه "أحمد باشا" الشهير بين أمراء العثمانيين بشمسي أحمد باشا الذي تولى دمشق، وأثناء ولايته الطويلة بنى خانقاه قبالة قلعة دمشق من الجهة القبلية ملاصقة لخندق القلعة وجعل فيها حجرات للصوفية وهي من محاسن مدينة دمشق وما زالت هذه الخانقاه عامرة ولكن تحولت إلى جامع(٢). لقد انتشرت التكايا أو الربط وتم التركيز عليها كما أسلفنا منذ قدوم العثمانيين. والرباط ويقال له التكية بالتركية وهي نفسها الخانقاه بالعجمية هي دار الصوفية فالزوايا والربط والتكايا والخانقاه هي أماكن مخصصة لأهالي الطرق الصوفية وإقامة الأعمال الصالحة والعبادة فيها(٣).

---

(١) السيوطي: (٨٤٩-٩١١هـ=١٤٤٥-١٥٠٥م) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين، إمام حافظ ومؤرخ وأديب له نحو ٦٠٠ مصنف منها الكتاب الكبير والرسالة الصغيرة من كتبه تاريخ الخلفاء، وتفسير الجلالين وجمع الجوامع أو الكتاب الكبير والحاوي للفتاوي وغيرها كثير، ولد وتوفي في القاهرة ودفن فيها. الزركلي، مرجع سابق، ج٣، ص ٣٠١.

(٢) كرد علي، خطط الشام، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٠-١٣١-١٣٢-١٣٣-١٣٣-١٣٤) ومن أجل التوسع في معاني أسماء هذه الخوانق انظر نفس المصدر ص ١٣١-١٣٢-١٣٣.

(٣) كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٤.

بنى العثمانيون التكايا على أسس متينة وعلى مساحات كبيرة من الأرض وأدخلوا الأنماط الهندسية الروحية في بنائها فكانت غاية في الجمال والروعة.

ولقد أوقفت لهذه التكايا الكثير من الأوقاف للصرف عليها وصيانتها ولتأمين جراية الدراويش المقيمين فيها والصرف على طلاب العلم والموظفين فيها، ويتكون بناؤها من غرف لمبيت الدراويش ومسجد للصلاة وغرف للتدريس ومطابخ ومخابز وكلارات (بيت المؤونة) ودورات مياه وميضآت وبحرات ماء بها فسقيات وسقايات وهي مزودة بالفرش والكتب والقناديل من النحاس.

هذا وقد ألحقوا بها الترب وعينوا لها الموظفين من اختصاصات مختلفة من نظار للأوقاف ومدرسين ومؤذنين وخطباء وأئمة قراءة القرآن وغيرها من الوظائف.

وقد اشتهرت التكايا كمأوى للفقراء واليتامى وأبناء السبيل وكثيراً ما كانت تقدم وجبات الطعام لهؤلاء الفقراء والمحتاجين، ولقد وصل عدد الصوفيين فيها أحياناً إلى ثلاثمائة صوفي لكل واحد منهم عدد من أرغفة الخبز وكمية من اللحم والمرق والحلوى والصابون والكسوة[1].

وأول من أوجد التكية في دمشق هو السلطان سليم الأول ثم سليمان القانوني وسار على منوالهما بعض الولاة العثمانيين والأثرياء، ولقد تهدمت بعض هذه التكايا نتيجة للزلازل والكوارث التي لحقت بالمدينة ولكن أعيد بناؤها مرة أخرى كما حصل بعد زلزال سنة (١١٧٣هـ/١٧٥٩-١٧٦٠م)، وقد حافظت هذه التكايا على دورها في القيام بالمهام الدينية والاجتماعية في المدينة حتى مطلع القرن العشرين[2].

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٥٩-١٦٠.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٥٩-١٦٠.

أهم التكايا:

١- التكية السليمية:

أنشأها السلطان سليم بعد فتح مدينة دمشق مباشرة سنة (٩٢٤هـ/١٥١٨م)[1] في منطقة الصالحية، وتتألف من تكية مستقلة لطبخ الطعام وتوزيعه على الفقراء ومن جامع وتربة أقيمت على ضريح الشيخ محيي الدين[2] بن عربي حيث أقيم هذا العمل العمراني تكريماً لهذه الشخصية حيث كان السلطان يجلها[3]، وقد أوقف لها السلطان أوقافاً خاصة ما يزال بعضها إلى الآن وما زالت آثار هذه التكية باقية حتى الآن وقد ألحقت بمعاهد الجامعة السورية[4].

لقد اشتملت التكية على بيت للفقراء من الرجال وآخر للنساء، وثلاثة حواصل للمؤن ومطبخ كبير، وفيه فرن يخبز قنطارين في اليوم، ويطبخ المطبخ ستين رطلاً (١٥٠كيلو غرام) من اللحم، وفي يوم الخميس يطبخون الرز المفلفل مع اللحم ومعه رز بعسل وقد أغلقت التكية اليوم[5].

٢- التكية السليمانية:

بنيت بأمر من السلطان سليمان القانوني سنة (٩٦٢هـ/١٥٥٤-١٥٥٥م) وذلك في مكان القصر الأبلق الذي بناه الظاهر بيبرس[6] الذي هدم في زمن

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٠.

(٢) محيي الدين بن عربي: محمد بن علي الحاتمي الطائي (ت ٦٣٨هـ/١٢٤٠م): ولد في مرسيه (الأندلس) وتوفي بسفح قاسيون في دمشق صوفي يلقب بالشيخ الأكبر أقام ٣٠ عاماً في إشبيلية ثم رحل إلى الشرق كان ظاهرياً في العبادات باطنياً في الاعتقاد، له أربعمئة مصنف منها: الفتوحات المكية - خصوص الحكم وترجمان الأشواق وجامع الأحكام). المنجد في اللغة والأعلام، ص ١٢.

(٣) الريحاوي، عبد القادر، مدينة دمشق تراثها ومعالمها التاريخية، دمشق، ١٩٦٩، ص ٧٦.

(٤) كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٨.

(٥) العلبي، أكرم، خطط دمشق، دمشق، دار الطباع، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص ٣٥٠.

(٦) الظاهر بيبرس: رابع سلاطين المماليك البحريين (١٢٦٠هـ/١٢٧٧م) ومؤسس سلطان المماليك الحقيقي من مماليك المالك الصالح الأيوبي رافقه بسجنه في الكرك. قاد معركة المنصورة التي انتهت بأسر الملك لويس التاسع الملك الفرنسي، حارب في عين جالوت ضد التتر بقيادة الملك المظفر "قطز". المنجد في الأعلام واللغة، ص ١٥٦.

تيمورلنك[1] ثم بنيت مدرسة في شرقيها ألحقت بالتكية سنة (٩٦٦-٩٦٧هـ/١٥٥٩م) وهي السنة نفسها التي توفي فيها السلطان سليمان القانوني أي (١٥٦٦م)[2].

استغرق بناؤها ست سنوات وكان بناؤها فريداً ومميزاً كما كانت تحفة حقيقة في مدينة دمشق، وهي من تصميم وإشراف المهندس العثماني الشهير سنان باشا، وكان القصد الرئيسي من بنائها هو إيواء الطلبة الغرباء وإنشاء مكان واسع يستقر فيه الحجاج الأتراك ولإقامة الأسواق فيها خارج المدينة المزدحمة[3]، أما بالنسبة للمدرسين ونظار التكية فكانوا يجلبون من استانبول وقد بلغ عددهم حوالي ١٠٠ موظف، وقد تعرضت التكية لزلزال سنة (١١٥٩هـ/١٧٤٦-١٧٤٧م) فقام الدفتردار فتحي القلانسي بتجديد مآذنها وترميمها[4].

ولقد أوقف للتكية تسع وثلاثون قرية منها الزبداني وصيدنايا وعقربا ودوما وغيرها وبلغت المساحة الإجمالية للتكية حوالي أحد عشر ألف متر مربع[5].

رممت التكية أثناء الحرب العالمية الأولى ثم استولت عليها الجامعة السورية بعد الاستقلال وجعلتها مخابرَ لمدرسة الطب[6]، وحالياً اتخذت متحفاً حربياً.

٣- التكية المولوية (المولويخانة):

تقع في ساحة الحجاز غرب جامع دنكز خارج أسوار مدينة دمشق بنيت سنة (٩٩٣هـ/١٥١٧-١٥١٨م) في عهد حسن باشا العثماني للطريقة المولوية، واليوم هي

---

(١) تيمورلنك: أو تيمور الأعرج (١٣٣٦-١٤٠٥م) ملك المغول وحفيد جنكيز خان ولد في كش بالقرب من سمرقند (تركستان)، واحتل موسكو، انتصر على السلطان العثماني بايزيد الثاني في معركة أنقرة (١٤٠٢م) اتخذ سمرقند عاصمة له. المنجد في الأعلام واللغة، ص ٢٠٠.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٠-١٦١.

(٣) العلبي، مرجع سابق، ص ٣١٣-٣١٤.

(٤) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦١. العلبي، مرجع سابق ص ٣١٤.

(٥) العلبي، مرجع سابق ص ٣١٤.

(٦) كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٨- ١٣٩.

عبارة عن مصلى مستطيل قي شماله تابوت من خشب لأحد الأولياء وفي الشرق ساحة وغرف فيها جمعية النهضة الإسلامية[1].

٤- التكية النقشبندية:

وهي تابعة للطريقة النقشبندية في محلة الفحامين بالقرب من باب سريجة.

٥- تكية شمسي أحمد باشا:

الوالي العثماني على دمشق في عهد السلطان سليمان القانوني، تقع مقابل قلعة دمشق وفيها حجرات للصوفيين ولها وقف يطبخ فيه كل ليلة بعد العصر لإطعام زوارها والمجاورين لها.

٦- تكية خالد أبي بهاء ضياء الدين النقشبندي الدمشقي:

وتقع في الصالحية في محلة الأكراد أقيمت سنة (١٢٤٢هـ) بعد وفاته وذلك بأمر من السلطان عبد المجيد، تتألف من قبة فوق ضريحه ومسجد وعدد من المقصورات للمريدين ومطبخ وبركة ماء[2].

الزوايا والربط:

الزوايا كالخانقات والرباطات فهي مأوى للصوفية والمتعبدين إلا أنها تقام فيها الأذكار[3] ولقد كثرت الزوايا بكثرة الطرق الصوفية وكان لبعض الطرق أكثر من زاوية في دمشق سواء كانت مراقد للعظماء أو الصحابة أو التابعين أو العلماء العاملين أو الزهاد أو بنيت خصيصاً لذلك، وكان الناس يقصدونها للزيارة

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٢. العلبي، مرجع سابق، ص ٣١٥.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٢-١٦٣.

(٣) تعددت الآراء حول سبب التسمية: فمنهم من يرى أن كلمة زاوية كانت تطلق على صومعة الراهب المسيحي ثم أطلقت على المسجد الصغير أو المصلى حيث يتحلق المريدون فيه حول شيخهم إن كان حياً أو حول قبره إن كان ميتاً ومنهم من يرى أ ا مدرسة دينية ودار للضيافة ا انية ويرى آخرون أ ا كالخانقات والرباطات إلا أ ا تقام فيها الأذكار. العسكري، عبود، دراسة مقارنة التصوف الإسلامي، مرجع سابق، ص ٥٦. دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها بالعربية أحمد الشناوي وإبراهيم خورشيد وعبد الحميد يوسف، مصر ١٩٣٣، مج١، ص ٢٣١.

والتبرك[1]. وأقدم ذكر للزوايا في دمشق كان في القرن السابع ومن أشهر وأقدم الزوايا التي وجدت بدمشق أوائل القرن السابع هي الزاوية اليونسية (٦١٥هـ) والزاوية القلندرية (٦١٦هـ)، لقد بلغ عدد الزوايا في عهد المماليك (عشرين زاوية) وارتفع عددها في العهد العثماني إلى ما يقارب الخمسين وما يزال بعضها قائماً إلى اليوم يؤمها المريدون ويقيمون فيها الذكر والنوبة ولا سيما في المواسم الدينية، ومن هذه الزوايا: الزاوية السعدية والغواصية في الميدان والرشيدية في الميدان والشاذلية (اليشرطية) في القنوات والسعدية في القيمرية والتكية المولوية في شارع النصر. وحتى عام ١٩٩٥م كانت ما تزال تقام الأذكار في هذه الزوايا[2].

أما الربط فهي جمع رباط وهي دار يسكنها أهل طريق الله، والرباط إذا وجد في مناطق الثغور فهو للجهاد والعبادة، وإن وجد في العواصم فهو للعبادة والعزلة، وهو بذلك لا يختلف عن الخانقاه إلا بالاسم، والرباط للرجال والنساء وإن غلب اسمه على النساء، وكان في دمشق في عصر المماليك عشرون رباطاً تقريباً[3].

أهم الزوايا الموجودة في مدينة دمشق حتى أواخر العهد العثماني:

يعود ذكر أقدم زاوية في دمشق إلى سنة (٦٠٠هـ) وهي الزاوية الأرموية، وكان للزوايا دور اجتماعي هام في مدينة دمشق فهي عبارة عن ملتقى للمؤمنين من أبناء البلد الواحد أو البلدان المجاورة كزاوية المغاربة في دمشق أو أبناء العجم أو الهنود أو الأكراد، وكانت الزاوية تتألف من غرفة للضيوف والحجاج والمسلمين الطلبة ويلحق بها مقبرة يدفن فيها أولئك الذين نذروا حياتهم لهذه الزاوية والتعبد فيها.

ومع ازدياد عدد المريدين وازدياد عدد الطرق الصوفية أصبحت هذه الزوايا ذات أهمية سياسية بالإضافة لأهميتها الاجتماعية، فكان القائمون عليها من أصحاب الطرق ورؤسائها ذوي جاه ومال وسلطة سياسية، وكثيراً ما نشبت نزاعات فيما

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٤. كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٦.

(٢) العسكري، مرجع سابق، ص ٥٦.

(٣) العسكري، مرجع سابق، ص ٥٤. العلبي، مرجع سابق، ص ٣٩٠. كرد علي، مرجع سابق، ص ١٣٤-١٣٥.

بينهم على السيادة حتى وصلت في بعض الأحيان إلى التناحر ما بين أفراد العائلة الواحدة حول زعامة الطرق ورياستها(١).

ومن أشهر الزوايا القديمة في دمشق: الزاوية الأرموية ٦٠٠هـ (اندثرت)، الزاوية الدينورية ٦١٠هـ (اندثرت)، الزاوية القلندرية الدركزنية ٦١٦هـ (آثارها باقية على يسار مقام السيدة سكينة)، الزاوية اليونسية ٦١٥هـ (اندثرت)، الزاوية الدينورية الشيخية ٦٢٠هـ/١٢٢٣م (اندثرت)، الفرنثية ٦٢١هـ/١٢٢٤م (ما تزال قائمة بالقرب من المدرسة المرشدية)، الزاوية الحريرية ٦٢٥هـ/١٢٢٧م (اندثرت)، الزاوية الصوابية ٦٣٢هـ/١٢٣٤م (لا أثر لها اليوم)، الزاوية القوامية البالسية ٦٧٠هـ/١٢٧١م (بقي منها القبور والقبة)، الزاوية الدهستانية ٧٠٠هـ/١٣٠٠م (هدمت سنة ١٣٢٠هـ)، الزاوية الحريرية الأعقفية ٧٠٥هـ/١٣٠٥م (تقع في المزة)، الزاوية السيوفية ٧١٠هـ/١٣١٠م (لا أثر لها اليوم)، زاوية عين الملك ٧١١هـ/١٣١١م (اندثرت)، الزاوية الرشيدية ٧٣٥هـ/١٣٣٤م (لا تزال قائمة في حي الميدان يسمونها المدرسة الرشيدية)، الزاوية الداودية ٨٠٠هـ/١٣٩٧م (بقي منها القبور)، زاوية المغاربة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م (بقي منها آثار شمالي جامع جراح بمقابر باب الصغير)، زاوية الحصني ٨٢٩هـ/١٤٢٥م (معروفة في حي الشاغور ومعظمها صار دوراً للسكن بتولية آل الحصني)(٢).

الزوايا في القرن (العاشر - الحادي عشر - الثاني عشر - الثالث عشر - الرابع عشر):

١- الزاوية السعدية الجباوية (٩١٤هـ/١٥٠٨م):

تقع في حي الميدان الفوقاني شمالي الزاوية الرشيدية، وكانت بالأصل تربة للأمير إينال الجكمي نائب الشام الذي قتل سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ودفن فيها ولم يكن قد تم إنجازها بعد، ثم جاء الشيخ حسن السعدي الجباوي فسقفها وسكن

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٥.

(٢) العلبي، مرجع سابق، من ص ٤١٣-٤٢٩. كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٦-١٤٠. ابن طولون، محمد، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق: محمد أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، جزءان، ج١، ص ٢٨٤-٣٠٨.

فيها والشيخ حسن[١] هو شافعي صوفي معروف يكنى بابن الشيخ سعد الدين الجباوي توفي سنة ٩١٤هـ، ولهذه الزاوية شهرة كبيرة في دمشق وما تزال قائمة حتى اليوم، ولآل السعدي زاوية أخرى في حي القيمرية تقام فيها الأذكار والموالد في المناسبات الدينية كافة، وخاصة في ليلة القدر والمولد النبوي وليلة النصف من شعبان[٢].

٢- الزاوية الصمادية (٩٣٢هـ/١٥٢٥م):

تقع داخل باب الصغير على كتف نهر قليط بالزقاق الممتد إلى باب الجابية، أنشأها الشيخ محمد الصمادي سنة ٩٣٢هـ[٣]، ولقد كانت الطريقة الصمادية معروفة في دمشق منذ القرن التاسع الهجري غير أن أول من بنى زاوية لهذه الطريقة هو الشيخ محمد بن خليل الصمادي وقد كانوا يقيمون حلقات الذكر قبل بناء الزاوية في الجامع الأموي.

جددت الزاوية في عهد السلطان إبراهيم خان الأول (١٠٥٠-١٠٥٨هـ/١٦٤٠-١٦٤٨م) بفضل الشيخ إبراهيم الصمادي سنة ١٠٥٤هـ/١٦٤٤م كما هو مدون فيها، وهي اليوم مصلى كبير في إيوانه الشمالي أربعة قبور، ولا يمارس فيها حالياً شيء من عادات الصمادية، وقد أصبحت مركزاً لجمعية الشاغور الخيرية[٤]، وفي قاسيون زاوية صمادية غربي زاوية عين الملك أنشأها أحد تلامذة الشيخ محمد

---

(١) هو حسن بن محمد بن سعد الدين الكبير بن يونس الشيباني الشافعي الصوفي المعروف بابن الشيخ سعد الدين الجباوي، ويقال إنه كان من قطاع الطرق فحصل له الفتح والكشف فتاب إلى الله تعالى ثم كشف الله له عن كبير الجان فأخذ العهد عليه بذلك فصار لابن السعدي خاصية البرء من الجنون بإذن الله تعالى كما يقول الغزي والله أعلم). العلبي، مرجع سابق، ص ٤١٩.

(٢) العلبي، مرجع سابق، من ص ٤١٣-٤٢٩، كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٦-١٤٠. ابن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، من ص ٢٨٤-٣٠٨.

(٣) محمد الصمادي: هو محمد بن خليل بن علي الشافعي القادري شيخ الطائفة الصمادية في الشام - كان من أولياء الله تعالى وكان أتباعه يتعممون بالصوف الأخضر لثبوت نسبهم وكان للسلطان سليم الأول اعتقاد كبير م توفي في سنة ٩٤٨هـ خلف ثمانية عشر ولداً. العلبي، مرجع سابق، مرجع سابق، ص ٤٢١.

(٤) العلبي، مرجع سابق، ص ٤١٩. العسكري، مرجع سابق، ص ٦٣.

الصمادي (شيخ الطريقة الصمادية) سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م، وكان يقيم فيها الذكر يوم الجمعة[١].

٣- الزاوية العمرية (٩٢١هـ/١٥١٥م):

تقع في العقيبة غربي جامع التوبة، أنشأها الشيخ عمر الإسكاف الحموي سنة ٩٢١هـ/١٥١٥م وازدادت شهرتها بعد عام واحد، عندما دخل السلطان سليم دمشق[٢]، وكان من أخلص أتباع هذا الشيخ عيسى باشا تلميذه ووالي دمشق الذي اختبره بالمال والمناصب فأثبت فيهما زهده فجعله من أتباعه، وأهم ما يميز مريدي هذا الشيخ وأتباعه أنهم يلبسون الفروة مقلوبة ويعلقون في رقبتهم (معلاق) رأس غنم ويدورون به ويقولون لا إله إلا الله بأعلى صوتهم، وهم لا يسلمون على أحد من غير طريقتهم، ولا يدفنون موتاهم إلا في الزاوية الشمالية الغربية من مقبرة الفراديس.

توفي الشيخ عمر سنة ٩٥١هـ/١٥٤٤م ودفن في الزاوية، ولكن طريقته تلاشت بعد فترة بسيطة من وفاته ونسيها الناس سريعاً، ولا تزال الزاوية العمرية إلى اليوم غربي جامع التوبة وقد جددت حديثاً[٣].

٤- زوايا الطريقة الشاذلية:

تقع شمالي جامع جراح بالشاغور البراني وتعرف أيضاً بزاوية المغاربة، أنشأها الرئيس علي الشهير بابن وطية الموقت سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م[٤]، حيث حبس عليها حوانيت وطباقاً حولها. وكانت ملتقى لأبناء المغرب على اختلاف أقطارهم (فاسيون - جزائريون - سنوسيون - مراكشيون) وكان من شروط وقف هذه الزاوية أن لا يكون النازل فيها مبتدعاً أو سكيراً أو من أهل البلد وأن يكون أفاقياً مغربياً - وكانت الطريقة الشاذلية تقيم الذكر والأوراد في المشهد الشرقي من الجامع الأموي وهو خاص ببني السفرجلاني وأقام الشيخ محمد تقي الدين بن عبد الله بن

(١) العسكري، مرجع سابق ص ٦٤.
(٢) العلبي، مرجع سابق، ص ٤٢٣.
(٣) العلبي، مرجع سابق، ص ٤٢٤.
(٤) كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٧. نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٥-١٦٦.

علي الحنبلي الشاذلي المعروف بأبي شعر زاوية الشاذلية ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م، وكان للشاذلية زاوية أخرى بجامع الصابونية قرب الباب الصغير وكان لهذه الطريقة شيخ مشايخ في دمشق[(١)].

ومن زوايا الشاذلية : الزاوية الحصنية في حي الشاغور البراني أوقفها الشيخ تقي الدين بن بكر بن محمد بن عبد المؤمن الشهير بالحصني الشافعي المنسوب إلى قرية الحصن في حوران، وقد قام باختلاسها بنو العجي فانتزعت منهم وأعيدت إلى وضع أحسن مما كانت عليه، وأيضاً الزاوية الغزالية في الجامع الأموي شمالي مشهد عثمان[(٢)].

زاوية أبي الشامات ١٣٠١هـ/١٨٨٣م: وهي أيضاً من زوايا الطريقة الشاذلية (اليشرطية) الحديثة وهي زاوية حديثة بنيت سنة ١٣٠١هـ/١٨٨٣م بأمر من السلطان عبد الحميد الثاني تكريماً لشيخه محمود أبي الشامات في منطقة القنوات، إلى الغرب من جامع السنانية، وهي مسجد جميل له قبة عالية ضخمة على بابه طغراء (ختم) السلطان عبد الحميد وفي الحائطين الجنوبي والشرقي زخارف فسيفساء قديمة ربما كانت منقولة من مكان آخر، وفي المسجد ضريح الشيخ محمود أبو الشامات وفيه تقام أذكار الشاذلية اليشرطية[(٣)].

٥- زوايا الطريقة الخلوتية:

كان للطريقة الخلوتية أكثر من زاوية في دمشق فمنها زاوية بالقرب من جيرون قرب الجامع الأموي وكانت مشيختها في آل الدسوقي يقيمون الذكر فيها، وزاوية أخرى تقع في ناحية المارستان الأربع مفارق بناها الشيخ يوسف المالكي الخلوتي وكان يقيم الذكر فيها يوم السبت من كل أسبوع في جامع الشيخ محيي الدين بن عربي بالصالحية، ثم الشيخ يوسف الطباخ المتوفى سنة ١١٥٩هـ/١٧٤٦م الذي كان يقيم الذكر في المدرسة السميسياطية، وفي جامع التوبة، وهناك زاوية لآل التغلبي الحنابلة

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٦. العلبي، مرجع سابق، ص ٤٢٨-٤٢٩.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٦. كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٧.

(٣) العلبي، مرجع سابق، ص ٤١٣. العسكري، مرجع سابق، ص ٦٥.

وهـي الزاويـة التقويـة حيـث كـانوا يقيمـون الأذكـار فيهـا وتقـع داخـل دارهـم في حـي العمارة وكان خادماً عليها سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م الشيخ علي بن محمد الفتلة.

وكـان أتبـاع الطريقـة القادريـة يقيمـون حلقـات الـذكر في المدرسـة الإسماعيليـة المعروفة بالخياطين وكانت زاوية الطريقـة الأحمدية في المدرسـة النوريـة وكانـت لآل النحلاوي كما كانوا يقيمون الأذكار في المدرسة الخاتونية.

٦- أما الطريقة المولوية:

فكانــت زاويــتهم تقــع غربــي جــامع دنكــز وكــان شــيخاً عليهــا ســنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م محمد صالح أفندي، وهناك أيضاً الزاوية الداوودية وكان شيخها من آل الداوودي وتقع في صالحية دمشق[1] (أنشأها الشيخ أبو بكر بن داود الصوفي الصـالحاني الحنبلـي في سـنة ٨٠٠هـ/١٣٩٧م)[2]، ثـم هنـاك زاويـة آل الصـديقي وقـام بوظيفة البوابة والقيامة عليها في سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م مصطفى بن بايزيد الصفوري وأطلق عليها جمال الدين القاسمي اسم الزاويـة الصفورية وتقـع في محلـة قبر عاتكـة بالقرب من مقبرة الدقاقين من الغرب، ثم هناك الزاويـة الطالبيـة الرفاعيـة في قصـر حجـاج، وهنـاك زاويـة في سـوق سـاروجة غير معروف لأي طريقـة ثـم الزاويـة النجاريـة النقشية ومشيختها في بني المرادي وتقع في سوق ساروجة أنشأها الشيخ مراد البخاري النقشبندي وهو باني المدرسة المرادية، وللطريقة النقشبندية زاوية أخرى وهـي الزاويـة الهندية التي كانت خارج باب الجابية ودفن فيها علم الله الهندي النقشبندي، وهنـاك الزاوية الكردية في محلة العمارة بالقرب من باب الفراديس أقامها حسن الكـردي ومات ودفن فيها سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م.

٧- وكان للطريقة الرفاعية:

زاوية في سفح قاسيون تقام فيها الأذكار وزاوية أخرى في ميدان الحصى، وقد وجد للطريقة البكتاشية زوايا في دمشق، وقد جاءت هذه الطريقة إلى دمشق مع

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٧.

(٢) ابن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، القسم الأول، ص ٢٩٨-٢٩٩.

قدوم الإنكشارية إليها وألغيت بالقضاء على الإنكشارية وإلغاء أوجاقها في دمشق - في عهد السلطان محمود الثاني[1].

أما بالنسبة للربط فعلى الرغم من كثرتها في الفترة السابقة للقرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي فلم يعد لها وجود في القرون اللاحقة، وكانت وقفاً على النساء المتصوفات والمنقطعات للعبادة أو المهجورات والمطلقات أو العجائز والأرامل، وكان لهن جرايات ومقامات مشهورة في مجلس الوعظ، وقد حظيت فيما سبق بأهمية اجتماعية ولكن الدولة العثمانية لم تعرها أي اهتمام في القرون الأخيرة من حكمها للبلاد، وربما يعود ذلك حسبما يذكر الدكتور يوسف نعيسة في كتابه مجتمع مدينة دمشق إلى انتشار الفوضى في البلاد وعدم وجود الأمن وبالتالي أصبح الأهالي يخافون على نسائهم من تعرضهن للاعتداء من قبل الجند الغرباء والقوى المتناحرة في دمشق، وبالتالي كان من الأفضل إبقاء النساء في البيوت وعدم ارتيادهن لهذه الربط فاضمحلت وتلاشت وزال نشاطها من دمشق[2].

وسنذكر فيما يلي أهم الربط التي كانت موجودة في مدينة دمشق فيما قبل تلك الفترة حسبما أوردها صاحب كتاب خطط الشام وهي كما يلي:

(رباط البياني - رباط التكريتي - رباط الشيخ محيي الدين - رباط صفية القلعية - رباط زهرة - رباط طومان - رباط جاروخ التركماني - رباط غرس الدين خليل - رباط المهراني - رباط البخاري - رباط البافلاطوني - رباط الفلكي - رباط بنت السلار - رباط غدار خاتون - رباط بدر الدين عمر - رباط الحبشية - رباط أسد الدين شيركوه - رباط القصاعين - رباط بنت الدفين - رباط بنت عز الدين مسعود صاحب الموصل - رباط الداوداري - رباط الفقاعي - رباط الوزار - رباط نجم الدين أيوب)[3].

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٦٧-١٦٨.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ص ١٦٨-١٦٩.

(٣) كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ١٣٥-١٣٦.

وهناك الكثير من الزوايا والربط التي أغفلنا ذكرها وذلك خشية الإطالة، فدمشق من أكثر المدن الإسلامية غنى بالمعالم والرموز الدينية وما زالت حتى أيامنا هذه، ولذلك كانت دائماً محط أنظار المتعبدين.

ولقد أدت هذه الزوايا والتكايا دوراً اجتماعياً كبيراً في مدينة دمشق فكانت في كثير من الأحيان مأوى للفقراء والمحتاجين ومكانًا لإيواء المتشردين والثائرين على السلطات، وفي كثير من الأحيان كانت تتعرض للإغلاق بسبب هذا النهج الذي اتبعه بعضها، ولكن الزوايا في حقيقتها كانت عبارة عن مكان يجتمع فيه المريدون للذكر ويقومون بالتصدق عليها والتبرع لها بسخاء والحفاظ عليها حتى بالروح، وما أدل على ذلك إلا صمود الكثير منها حتى أيامنا هذه ببهائها وحلتها وزينتها الفاخرة وزينة قبور الأولياء الذين دفنوا فيها والتي أصبح البعض منها في أيامنا محجاً للمريدين ومزاراً لكثير من طالبي القرب والعطاء من أصحاب قبورها وأوليائها.

ثالثاً - مقامات الأولياء والصالحين في مدينة دمشق ومواقعها:

يعد ثرى مدينة دمشق من أغنى الأماكن بالمقامات والمزارات وقبور الأنبياء والأشراف والأولياء، فهذه الأرض كانت وما تزال من أطهر وأشرف الأماكن التي يمكن أن يشد إليها الرحال، وكانت هذه البقعة عبر التاريخ مقراً ومسكناً لكثير من الأنبياء والصالحين باعتبارها أرض الرسالات وأرض التوحيد منذ القدم. فقد حوى هذا الثرى أجساد كثير من الأنبياء كما أكدت ذلك كثير من الروايات التاريخية، وسنورد فيما يلي أهم هذه القبور والمقامات كل حسب شرفه ورتبته مع ذكر الأدلة والشواهد قدر المستطاع حول تأكيد وجودها في دمشق:

أ - قبور الأنبياء:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[١]: "إن جميع قبور الأنبياء غير صحيحة غير قبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم". هذا رأي ولكن هناك الكثير من الأدلة والشواهد والروايات التي تدل على مصداقية وجود قبور الأنبياء في أماكن كثيرة من بلاد الشام خاصة، فمثلاً قبر النبي إبراهيم الخليل تؤكد كثير من الراويات أنه في مغارة داخل السور ببلدة قريبة من القدس وهذه البلدة سميت باسمه وهي مدينة الخليل الحالية في فلسطين، وثبت أيضاً دفن ولديه إسحاق وإسماعيل معه في المكان نفسه[٢].

أما بالنسبة لقبور غيرهم من الأنبياء فلم يثبت وجود روايات تؤكد دفنهم في أماكن محددة من بقاع الأرض، ولكن بالنسبة لقبور الأنبياء في دمشق فسنذكر الروايات التي أوردت وجود قبور بعض الأنبياء فيها كما أوردتها كتب التاريخ والسير.

عن عثمان بن أبي العاتكة[٣] قال: "قبلة مسجد دمشق قبر هود النبي عليه السلام".

و"عن عبد الله بن سلام قال: بالشام من قبور الأنبياء ألفا قبر وسبع مائة قبر، وقبر موسى عليه السلام بدمشق، فإن دمشق معقل الناس في آخر الزمان من الملاحم"، و"عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: من أراد أن يرى الموضع الذي قال الله عز وجل: ﴿وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ فليأت النيرب الأعلى بدمشق بين النهرين، وليصعد إلى الغار بجبل قاسيون فليصلِّ فيه فإنه بيت عيسى وأمه، وهو كان معقلهم من اليهود، ومن أراد أن ينظر إلى إرم فليأت نهراً في حصن دمشق يقال

---

(١) ابن تيمية: (تقي الدين أحمد): (٦٦١-٧٢٨هـ=١٢٦٣-١٣٢٨م) فقيه حنبلي إمام من الأعلام - جدد المذهب - ولد في حران (سورية) وأقام في دمشق، ودرس فيها، له مجموعة الفتاوى وكثيرها. المنجد في الأعلام، ص ٩.

(٢) الحصني، منتخبات تواريخ دمشق، ج١، ص ٣٧٤.

(٣) عثمان بن أبي العاتكة: هو عثمان بن أبي العاتكة سليمان الأزدي الدمشقي، صحابي توفي سنة ٥٢ هجرية. الصيادي، محمد عز الدين بن حسين عربي كاتبي (١٢٧٠-١٣١٥هـ)، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، دمشق، الفارابي للمعارف، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٧٧.

له بردى، ومن أراد أن ينظر إلى المقبرة التي فيها مريم بنت عمران والحواريون فليأتِ مقبرة الفراديس"[١].

وأورد صاحب كتاب منتخبات تواريخ دمشق الكثير من الأدلة والروايات حول وجود قبر النبي موسى عليه السلام في دمشق ومنها رواية "نقل عبد الله الربعي[٢] في مصنفه ما نصه: والمشهور في دمشق أن قبر موسى عليه السلام بالكثيب الأحمر بقرب قرية قريبة من دمشق يقال لها مسجد القدم وقد عثرت للحافظ ابن طولون الدمشقي على مؤلف لطيف سماه تحفة الحبيب بإخبار الكثيب جمع فيه أقوال العلماء واعتمد فيه أن موسى الكليم بهذا الكثيب وأنه قد بنى عليه الشيخ محمد بن قيصر بناء يحيط به"[٣].

وذكر أيضاً أن قبر النبي أيوب في الجولان في نواحي دمشق وهو معروف ومشهور وفيه أيضاً العين التي برئ بها أيوب من مرضه ويقال إن قبر هابيل عليه السلام موجود في قرية من قرى ناحية سوق وادي بردى. "وذكر العلامة ابن الوردي: أنه يقولون إنه في مغارة تقرب من مغارة الدم في جبل قاسيون المشرف على دمشق قتل هناك قابيل أخاه هابيل ويقال إنه اغتاله في برية قاع وأن ذلك ببلاد الشام يعني دمشق وهي المعروفة اليوم بأراضي البقاع"[٤].

وقيل إن قبر نبي الله ذي الكفل عليه السلام يقع بسفح جبل قاسيون، وقد ظهر ذلك القبر وتجدد على يد السيد محمد المرادي الدمشقي وبنى عليه بناء محيطاً به، وفي الجامع الأموي يوجد مرقد رأس النبي يحيى بن زكريا عليه السلام على أشهر

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد الربعي المالكي: فضائل الشام ودمشق، مطبوعات ا مع العلمي العربي بدمشق، تحقيق: صلاح الدين المنجد، ص ٥٠-٥١.

(٢) الربعي: هو علي بن محمد بن صافي بن شجاع الربعي، أبو الحسن، ويعرف بأبي الهول، فاضل مالكي، من أهل دمشق روى الحديث واهتم في بعض سماعه توفي في دمشق سنة (٤٤٤هـ=١٠٥٢م) الصيادي، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، ص ١٤٣.

(٣) الحصني، مرجع سابق، ج١، ص ٣٧٦. الصيادي، مرجع سابق، ص ١٤٧.

(٤) الحصني، مرجع سابق، ج١، ص ٣٧٩.

الأقوال هذا بالنسبة للرأس أما جسده الشريف فالمشهور والمتواتر عند حملة الأخبار أنه مدفون في جامع الدلم في ناحية من نواحي دمشق يقال لها الزبداني[1].

وذكر صاحب كتاب الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية الراوية التالية: وداخل الجامع (الجامع الأموي) ضريح رأس النبي يحيى بن زكريا عليه الصلاة والسلام كما روى زيد بن واقد[2]، وكان موكلاً على العمال في بناء الجامع قال: بينما نحن والبناؤون يبنون إذ وجدنا مغارة في الجهة الشرقية من حرم الجامع فأخبرنا الوليد، فلما كان الليل جاء الوليد وبيده الشمع فنَزل فإذا موضع ثلاثة أذرع في ثلاثة أذرع وفيه صندوق ففتحه فإذا فيه طشت وفي الطشت (رأس) ومكتوب على الطشت هذا رأس نبي الله يحيى بن زكريا عليهما السلام فرده إلى مكانه وقال: اجعلوا للعمود الذي فوقه علامة تفرقه عن الأعمدة فجعل عليه عمود مسقط الرأس، وفي رواية: وكانت البشرة والشعر على الرأس لم يتغيرا، وقال أبو مسهر[3]: رأس يحيى عليه السلام تحت العمود المسقط شرقي دمشق، وقد بني عليه ضريح من الرخام الأبيض وعليه قبة خضراء مطرزة بالذهب والآن هو مركز للزيارة والدعاء[4].

وقيل إن قبر نبي الله إليسع عليه السلام في أعمال بلاد حوران بالقرب من دمشق، وقبر النبي يوشع بن نون عليه السلام في الشام في قرية يقال لها المنية في بطن جبل تربل من قرى طرابلس الشام داخل غار وقبره الشريف ظاهر[5].

---

(١) الحصني، مرجع سابق، ج١، ص ٣٨٣.

(٢) هو زيد بن واقد بن عبد الله اليربوعي التميمي: تابعي من موالي بني أمية بدمشق، مولده بمكة ووفاته بدمشق سنة: ١٣٨هـ =٧٥٥م تقريباً. الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وصحبه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩١، ج٦، ص ٢٩٦.

(٣) هو عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي من حفاظ الحديث كان شيخ الشام وعالمها بالحديث والمغازي وأيام الناس وأنساب الشاميين مولده ١٤٠هـ =٧٥٧م، ووفاته ببغداد سنة ٢١٨هـ=٨٣٣م). الزركلي، مرجع سابق، ج٣، ص ٢٦٩.

(٤) الصيادي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٥) الحصني، مرجع سابق، ج١، ص ٣٨٦.

ب - قبور الصحابة:

ذكر صاحب كتاب منتخبات تواريخ دمشق على حسب ما أورد من رواية الهروري في كتابه الإشارات "إن جبانة باب الصغير في دمشق يقال بها سبعون رجلاً من الصحابة معلومة قبورهم وأسماؤهم، وأنه نقل بأن بعض تلك الجبانة حرثت وزرعت بقدرماية سنة ثم رجع الدفن إليها فلذلك لا تعرف القبور"[1]، ومنهم أبو الدرداء الصحابي وأوس بن أوس الثقفي الذي نزل دمشق ومات بها في خلافة الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقبره معروف بباب الصغير، وبلال الحبشي بن رباح مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي حضر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح القدس واختلف في مكان دفنه فمنهم من قال إنه دفن بحلب وقيل بداريا وقيل بدمشق في مقبرة باب الصغير، وسهل بن ربيع الأنصاري الصحابي الذي توفي في خلافة معاوية ودفن في مقبرة باب الصغير، وشمعون الصحابي وفضالة بن عبيد الصحابي الذي ولي قضاء دمشق في فترة معاوية ودفن بباب الصغير، وآثلة بن الأسقع الذي توفي في خلافة عبد الملك بن مروان وأيضاً دفن بباب الصغير.

ودفن في مقبرة باب الصغير أيضاً من الصحابة قبور ثلاث من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم[2] وهن السيدة حفصة بنت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والسيدة رملة بنت أبي سفيان، والسيدة هند بنت سهيل أبي أمية أم سلمة القرشية المخزومية".

وفيها قبر فضة جارية السيدة فاطمة الزهراء[3]، وأم الدرداء، وفضالة بن عبيد، وسهيل بن الحنظلية، وقبر ضرار بن الأزور الأسدي، وخولة بنت الأزور، وقبر أبي الدحداح، أما في قرى دمشق: ففي المزة قبر رضية الكلبي الصحابي المشهور، وفي داريا قبر تميم الداري بن أوس بن خارجة، وحرملة بن يزيد الصحابي الأنصاري، وفي

---

(١) الحصني، مرجع سابق، ج١، ص ٣٨٨.

(٢) قساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ص ١٣١.

(٣) الصيادي، مرجع سابق، ص ٢١٥.

جوبر قبر سعد بن عبادة الخزرجي الصحابي مات بالشام سنة ١٤هـ في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقبر السيدة زينب بنت أم كلثوم ابنة الإمام علي ماتت في الشام ودفنت في قرية راوية (هي قبر الست حالياً)، وذكر أيضاً أن قبر السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب بمقبرة باب الصغير يزار ويتبرك به، وقبر سكينة بنت الحسين بتربة القلندرية داخل القبة، وقبر السيدة فاطمة بنت الإمام علي أيضاً بمقبرة باب الصغير وعليه بناء معروف يقصد للزيارة ولكن المعروف عند أهل دمشق أن قبر السيدة زينب في تربة نسبت إليها ويقال لها الآن قبر الست كما ذكرنا سابقاً في ضواحي دمشق[1]. وهناك الكثير من أسماء الصحابة الذين ورد ذكرهم في كثير من المؤلفات على أنهم دفنوا في مدينة دمشق ولكن اكتفينا بذكر الأهم منها والله المستعان.

ج - قبور الأولياء والصالحين:

من أشهرهم: أبو البيان بن محفوظ القرشي من أبناء الطائفة البيانية المنسوبة إليه بدمشق توفي سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م ودفن بباب الصغير، ابن عساكر بن حسين بن هبة الله مؤلف كتاب تاريخ الشام المشهور (٨٠ مجلداً) توفي سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م ودفن بباب الصغير، ابن قيم الجوزية الحنبلي فقيه ومفسر مات سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م ودفن بباب الصغير تجاه المدرسة الصابونية وبني على قبره قبة، ابن رجب شيخ الحنابلة والمحدثين صاحب كتاب طبقات الحنابلة ومات بدمشق ودفن بباب الصغير، وإبراهيم الناجي شيخ المحدثين بدمشق، أحمد أبو العباس المغربي شيخ المالكية، وإسماعيل بن علي المفتي المعروف بابن الحائك توفي سنة ١١١٣هـ/١٧٠١م ودفن بباب الصغير أيضاً، بدر الدين بن جمال الدين بن مالك توفي سنة ٦٨٦هـ/١٢٨٧م ودفن بباب الصغير، والحافظ الذهبي صاحب التاريخ المشهور توفي سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م وقبره في باب الصغير، والشيخ عمر بن حسن الخرقي، عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع المفتي، عبد الله بن عمر العجلوني الحنفي النحوي، محمد علاء الدين بن علي الحصيني توفي سنة

---

(١) قساطلي، مرجع سابق، ص ١٣١-١٣٢.

١٠٨٨هـ/١٦٧٧م ودفن بباب الصغير، كعب الأحبار وهو من المحدثين دفن بباب الصغير، محمد اليتيم صوفي شافعي توفي سنة ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م دفن بباب الصغير أيضاً، محمد بن محمد بن سلطان الحنفي توفي سنة ٩٠٥هـ/١٤٩٩م ودفن بباب الصغير، تقي الدين بن الصلاح (الشهرزوري) توفي سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م دفن بمقابر الصوفية، الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي إمام الصوفية ولد بمرسية وتوفي بدمشق سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م ودفن بسفح جبل قاسيون وقد بني على قبره مقام ومزار من قبل السلطان سليم كما أسلفنا الذكر سابقاً، أبو شامة شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الدمشقي النحوي الفقيه المحدث مات سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م ودفن بباب الفراديس، الحسن بن محمد البوريني الشافعي توفي سنة ١٠٢٤هـ/١٦١٥م ودفن بمقبرة باب الفراديس. مسعود بن محمد النيسابوري توفي سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ودفن بمقبرة الصوفية بدمشق، عماد الدين بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي كان عالماً بالأصول والحديث توفي سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٤م ودفن بمقبرة الصوفية.

أيضًا العلامة تاج الدين السبكي صاحب الطبقات جمع الجوامع والتصانيف المفيدة توفي سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م ودفن بقاسيون بتربة السباكيين المشهورة بهم، الشيخ أبو عمر الدمشقي الصالحي الزاهد باني مدرسة الصالحية توفي سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م ودفن بسفح قاسيون، قاضي القضاة ابن خلكان صاحب التاريخ المشهور المسمى بوفيات الأعيان توفي سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م ودفن بسفح قاسيون(١).

ومن قبور المشاهير أيضاً قبر السلطان الصالح محمود بن زنكي الملك العادل، وقبر الملك الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبي بالكلاسة، وقبر الملك الظاهر بيبرس وقبر ولده الملك العادل، وقبر الإمام ابن تيمية في مقابر الصوفية بدمشق(٢).

وأغلب هذه القبور والصالحين وخاصة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصحابة الكرام تقصد للزيارة وللتبرك بها حتى أيامنا هذه، ومنها ما أصبح مزاراً

(١) قساطلي، مرجع سابق، ص ١٣٣-١٣٩.

(٢) الصيادي، مرجع سابق، ص ٢٢١-٢٢٤.

رسمياً كما هو الحال في قبر السيدة زينب والسيدة رقية بالقرب من الجامع الأموي بدمشق.

رابعاً - المسيحيون في مدينة دمشق:

وهم يعدون من أهل الذمة في الشرع الإسلامي، وأهل الذمة هم العناصر غير المسلمة في البلاد الإسلامية (أي المسيحيون واليهود) ويسمون أيضا الكتابيون وقد سموا كذلك لأنهم أهل كتاب مُنْزل. ولم ينخرط أهل الذمة في الجيوش والفتوحات التي تهدف إلى نشر الإسلام ففرضت عليهم الجزية وهي بمثابة البدل الذي يدفع اليوم لقاء الإعفاء من الخدمة العسكرية[1]. وبدخول الأجزاء الجنوبية الشرقية من أوروبة فقد دخل في محيطها عدد ضخم من المسيحيين يفوق عدد المسلمين فيها، وقد عاملهم العثمانيون معاملة المسلمين العرب للمسيحيين عندما قاموا بفتح سوريا[2].

وبالنسبة لأشهر الطوائف المسيحية في مدينة دمشق فهي:

١- طائفة الروم الأرثوذكس:

وهم أتباع الكنيسة الشرقية التي تستخدم اللاهوت والطقوس البيزنطية[3]، وقد نظم محمد الفاتح بعد سقوط القسطنطينية أمر هذه الطائفة وأخضع كنيستها إلى البطريرك وسمي أتباعها "روم ملتى" أي الملة أو الطائفة، ومنح بطريركها رتبة الباشوية الشريفة بثلاث أطواغ[4]، وجعل له محكمة خاصة وسجن خاص به في حي الفنار في استانبول. واتبع القسم الأعظم من مسيحيي ولاية سورية الكنيسة الأرثوذكسية فكان لهم بطريركيتان في بلاد الشام، الأولى في القدس وتشرف على كنائس الروم الأرثوذكس في فلسطين والثانية في دمشق وتشرف على مصالح

---

(١) الصباغ، ليلى، ا تمع العربي في مطلع العهد العثماني، دمشق وزارة الثقافة، ١٩٧٣، ص ١٣٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٣٠.

(٣) سعد الدين إبراهيم، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٤) طوغ: ذيل الفرس، وهو مصطلح عثماني.

الكنائس الشرقية من صور حتى الأناضول ويلحق بها أبرشيات (أسقفيات) الشام وحلب[١].

ولقد لاقى أتباع هذه الطائفة احتراماً من قبل ولاة دمشق والهيئة الحاكمة فيها طالما أن الدولة العثمانية ليست في حالة حرب أو صدام مع روسية الأرثوذكسية، وأشهر ما وقع لهم من مضايقات في عهد الدولة العثمانية هو فترة الثورة اليونانية ضد الدولة العثمانية، حيث صب السلطان العثماني محمود الثاني جام غضبه على أتباع هذه الطائفة فأوعز إلى والي دمشق بقتل بطريركها، وتصفية رجال دينها والتضييق على أتباعها، وعلى العكس في فترة الحكم المصري لبلاد الشام وكانت في أثنائها روسيا إلى جانب الدولة العثمانية فلقد لاقى الأرثوذكس قبولاً من الدولة العثمانية حتى بعد خروج المصريين من بلاد الشام بعد الضغط عليهم من قبل روسيا وإنكلترا حيث لاقى بطريرك الأرثوذكس أمتوديوس إكراماً كبيراً من والي دمشق العثماني[٢].

وللروم الأرثوذكس في دمشق سبعة عشر كنيسة أقدمها الكنيسة المريمية التي أعطاها عمر بن عبد العزيز للروم تعويضًا لهم عن كنيسة ماريوحنا التي أصبحت الجامع الأموي. وبنى الروم بعد حوادث ١٨٦٠م كنيسة جديدة في حي الميدان، ورمموا كنائسهم التي احترقت في أثناء الفتنة، ورمموا وأصلحوا كنائس أخرى في عكا[٣].

ولهم أيضًا كنيسة "مار يوحنا" الدمشقي وقد بنيت بعد حوادث ١٨٦٠م بمساعدة روسيا، وأخرى في حي الميدان[٤]. ولقد بلغ عدد الروم الأرثوذكس في دمشق في سنة ١٨٧٣م حوالي ٧٠٠ نسمة[٥]. وقد منيت هذه الطائفة بانشقاق في صفوفها حيث انفصل

---

(١) محمد عوض، مرجع سابق، ص ٣٠٣.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٣٦.

(٣) غرايبة، عبد الكريم، سوريا في القرن التاسع عشر (١٨٤٠-١٨٧٦)، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٢م، ص ١١٧.

(٤) قساطلي، مرجع سابق، ص ١٠١-١٠٢.

(٥) محمد عوض، مرجع سابق، ص ٣٠٢.

قسم منها وشكل طائفة جديدة عرفت باسم الروم الكاثوليك[1]، وكان للطائفة دور كبير في نشر العلم في دمشق وحمص وبيروت حيث تألفت جمعية المدارس الأرثوذكسية في حمص والجمعية السورية الأرثوذكسية في بيروت وشكل الأرثوذكس أقليات كبيرة في مدن دمشق وحمص وحماه وحلب واللاذقية وطرابلس وعكا والناصرية وبيت لحم وكانوا في جميع هذه المدن يشكلون أكبر الطوائف المسيحية[2].

٢- الروم الكاثوليك:

انشق هؤلاء عن الروم الأرثوذكس ولقد اضطهدهم الأرثوذكس في أول الأمر وذلك بمساعدة السلطات العثمانية[3]، وقد كانت بداية دخول الكثلكة إلى الشام مع بدايات القرن الثامن عشر[4].

ولقد استطاع المنشقون أن يشكلوا طائفة جديدة وانتخبوا عام ١٧٢٤ بطريركاً خاصا بهم واعترفوا برئاسة البابا، وبرز في القرن التاسع عشر البطريرك مكسيميوس مظلوم (١٨٢٣-١٨٥٥) الذي اعترف به كل من محمد علي والسلطان العثماني وأنشأ ثلاثًا وأربعين كنيسة في ولاية دمشق وغيرها[5]. وأشهر الكنائس التي بنيت في باب مصلى والقرشي من الميدان والمدرسة البطريركية في حي الميدان[6]، ويبلغ عدد الروم الكاثوليك في دمشق (١٢٠,٠٠٠) تقريبا[7].

---

(١) محمد عوض، مرجع سابق، ص ٣٠٢.

(٢) غرابية، مرجع سابق، ص ١١٧.

(٣) غرابية، مرجع سابق ص ١١٧.

(٤) ميخائيل بريك الدمشقي تاريخ الشام (١٧٢٠-١٧٨٢)، ص ١٦) - حيث أورد مايلي: وكذلك صارت عادة أخرى في أثناء هذه السنة (١٧٤٧) وهو أنه من نحو خمسة وثلاثين سنة من ظهور أفتيميوس مطران صيدا وظهور اثناسيوس الدباس البطريرك الأنطاكي، ظهر أول دين الكاثوليكية وابتدأ ينمو ويتزايد شيئا فشيئا".

(٥) غرابية، عبد الكريم، سوريا في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ١١٧-١١٨.

(٦) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٣٩.

(٧) كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ٢٢٩.

٣- السريان واليعاقبة والكاثوليك:

وهي من الكنائس أو الطوائف التي عدّها الأرثوذكس مهرطقة وقد دخلت ضمن إطار الدولة العثمانية. واليعاقبة نسبة إلى يعقوب البرادي أسقف أديسيا الذي نظمها في مطلع القرن السادس عشر في سورية وهي كالكنيسة القبطية في مصر[١]، ولقد عانت الكنيسة السريانية اليعقوبية من انشقاقات أيضًا ومنها بطريركية أنطاكية للسريان التي اعترفت بها الدولة العثمانية عام ١٧٣٩م وكان مركزها حلب، وكان لهم في دمشق كنيستان ولليعاقبة مثل ذلك قرب الباب الشرقي فاحترقت كلها في حوادث ١٨٦٠م بينما لجأ مطران السريان الكاثوليك ورعيته إلى صيدنايا وذلك في أثناء الحريق[٢].

ولقد استقلت هذه الكنيسة منذ القرن السادس الميلادي. واليعاقبة الأرثوذكس يستخدمون اللغة السريانية في اللاهوت والعبادات الكنسية ويصل عددهم في سوريا حوالي ١٥٠,٠٠٠ يتركزون في محافظات الجزيرة وحمص وحلب ودمشق[٣].

٤- الأرمن:

واعترف بهم من قبل الدولة العثمانية عشية سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م وكان مطران الأرمن الأرثوذكس يستقر في أسكودار. وكان بطريركًا على جميع المسيحيين بما فيهم الأرمن حيث كان بعضهم يستقرون في حي خاص بهم في دمشق، وكان لهم خمسة رؤساء دينيون في أوائل القرن التاسع عشر، ويرأسهم في دمشق بطريرك. وكان الأرمن أكثر أبناء الطوائف المسيحية تمسكا بدينهم في مدينة دمشق، فلقد كانوا يختارون رجال دينهم من أبناء طائفتهم فقط[٤].

وكان الأرمن في دمشق يتألفون من طائفتين طائفة الأرمن الأرثوذكس وكانت كنيستهم هي "مارسركيس" في دمشق، وطائفة الأرمن الكاثوليك الذين أنشؤوا

---

(١) محمد عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٢) غرايبة، عبد الكريم، سوريا في القرن التاسع عشر، مرجع سابق، ص ١١٨.

(٣) سعد الدين إبراهيم، الملل والنحل، مرجع سابق، ص ٦٧.

(٤) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٦٦-٣٣٧.

كنيسة لهم بعد أحداث ١٨٦٠م بالقرب من دير الرهبان العازريين[١] وهي كنيسة القديس غريغوريوس[٢] وقدر عددهم في دمشق بعد تلك الأحداث بحوالي (٨٠,٠٠٠)[٣].

٥- الموارنة:

هم جماعة من السريان السوريين ينتسبون إلى القديس "مارمارون القورسي"[٤] وهم يعدون من أهم الطوائف المسيحية في بر الشام وذلك بسبب الدور السياسي الذي أدوه في تاريخ البلاد إضافة إلى الدور القيادي في تقرير مصير لبنان وتوجيه سياسته، وكانوا في أول أمرهم يتبعون الكنيسة الشرقية ويشبهون في ذلك الروم الأرثوذكس إلا أنهم اختلفوا معهم واعترفوا برئاسة البابا لكنيستهم وأدخلوا منذ عام ١٩٠٦م التقويم الغريغوري ولكنهم احتفظوا باستقلال كنيستهم بطقوسها الشرقية ولغتها السريانية[٥].

وكان لهم في دمشق حي خاص بمحلة باب توما داخل أسوار دمشق، ولكن الكتلة الأساسية منهم تسكن في جبال لبنان كما ألمحنا سابقاً. ووجد عدد منهم في المدن الشامية كحلب واللاذقية وبعض قرى جبال اللاذقية[٦]، وكان للموارنة شرع خاص يتقاضون بموجبه أقره لهم جميع الذين حكموا دمشق من نصارى وغيرهم ولا تزال أغلب قوانينه يُعمل بها فيما بينهم في المنطقة حتى أيامنا هذه[٧].

وكانت لهم أسقفيتان: الأولى في دمشق والثانية في بعلبك، وقد بلغ عددهم في دمشق سنة ١٨٥٢م (٤٠٥) أشخاص ثم انخفض إلى (٢٠٠) في سنة ١٨٧٩م وكان ذلك

---

(١) محمد عوض، عبد العزيز، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، مرجع سابق، ص ٣٠٣.
(٢) قساطلي، مرجع سابق، مرجع سابق، ص ١٠٣.
(٣) كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ٣٢٩.
(٤) محمد عوض، مرجع سابق، ص ٣٠٤.
(٥) غرايبة، مرجع سابق، ص ١٢٠.
(٦) نعيسة، مرجع سابق ج١، ص ٣٣٩-٣٤٠.
(٧) كرد علي، مرجع سابق، ص ٢٣١.

على ما يظن بسبب أحداث عام ١٨٦٠م في الشام[١]. وبدءاً من القرن السابع عشر فقد اهتم بهم ملوك فرنسا حيث أرسل كل من لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر منشورًا إليهم يبسطون فيه حمايتهم على الموارنة في بلاد الشام "فعد الموارنة أنفسهم من جملة الفرنسيين وهم إلى هذا اليوم يكرمون هذه الدولة ويحبونها حباً كبيراً ويتظاهرون بالانتماء إليها ولقنصل فرنسا نفوذ الكلام في بلادهم". ولم يكن لهم شأن أو دور يذكر في الحياة الاقتصادية حتى بداية القرن التاسع عشر، حيث أغدقت عليهم فرنسا والباباوية الهبات والعطايا حتى وصل الأمر إلى الحصول على حماية لهم من قبل الباباوية والدول الغربية، ولقد وصل بعضهم إلى منصب القنصل لكثير من الدول الأوروبية في المنطقة[٢].

٦- البروتستانت:

وهي تمثل أكبر الانشقاقات الدينية الكبرى في تاريخ المسيحية وهو انشقاق ديني حدث في أوروبا في القرن السادس عشر، وارتبط بما يسمى حركة الإصلاح الديني التي تزعمها مارتن لوثر[٣]، ولقد تسربت إلى الشرق العربي ابتداءً من القرن التاسع عشر على أيدي المبشرين الأمريكان والبريطانيين[٤]، وقد بدأ نشاط البعثات البروتستانتية على نطاق واسع منذ سنة ١٨٢٠م حيث أسس الأمريكان أول مركز سوري في بيروت، فرأى فيهم المسلمون والسلطات العثمانية بوادر تسلل استعماري إفرنجي بالإضافة إلى صفتهم التبشيرية فقاوموهم، كذلك رأى فيهم الأرثوذكس والكاثوليك تهديدًا خطيرًا لوحدة كنائسهم، وعلى الرغم من ذلك فقد ثابر

---

(١) محمد عوض، مرجع سابق ص ٣٠٤.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٠.

(٣) مارتن لوثر: (١٤٨٣-١٥٤٦) زعيم الإصلاح البروتستاني نال شهادة العلوم من جامعة إيرفورت ١٥٠٥ ودرس القانون فيها دخل دير للرهبان الأوغسطيني حيث رسم قسيسا ١٥٠٧ ولدى زيارته لروما ١٥١٠ ساءه الانحلال الروحي المتفشي في الأوساط الكنسية العليا وكان إعلان أفكاره سنة ١٥١٧ أصدر البابا قرارا رسميا حرم به لوثر من غفران الكنيسة ١٥٢١ استمرت أفكاره وانتشرت وأصبح له مذهب عرف باللوثرية. غربال، الموسوعة العربية الميسرة، ج٢، ص ١٥٧١.

(٤) سعد الدين إبراهيم، مرجع سابق، ص ٦٩.

البروتستانت على عملهم ومدوا نشاطهم إلى دمشق وحلب وحمص وحماة وجبال العلويين وتمتعوا بحماية قناصل بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية. ولم تعترف السلطات العثمانية رسميًا بالطائفة البروتستانتية إلا عام ١٨٥٠م، ولكن البروتستانت نشطوا للعمل وأسسوا أسقفية لهم في القدس وسائر البلاد العربية[١]، وأنشؤوا أول إرسالية في دمشق سنة ١٨٤٣م وبعد عشر سنوات أنشؤوا فيها مدرسة ثم قاموا ببناء كنيستين في دمشق الأولى بنيت سنة ١٨٦٤م والثانية سنة ١٨٦٨م، ولكن رغم ذلك لم يتجاوز عدد أتباع هذه الطائفة (٧٠) في سنة ١٨٥٢م وبقي عددهم تقريبًا كذلك حتى عام ١٨٧٩م، ولقد تمتع المبشرون منهم بامتيازات في الدولة العثمانية فيما بعد وذلك حسب الامتيازات التي منحت للرعايا الأمريكان في الدولة[٢]، وذكر صاحب كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء: "للطائفة البروتستانتية كنيستان في دمشق بنت الأولى منها مسسزموط الإنكليزية سنة ١٨٦٨م وبنيت الثانية سنة ١٨٦٤م بهمة القس يوحنا كروفورد الأميركاني والقس روبصن الإنكليزي وفي دائرتها مدرسة للذكور وفي حنانيا كنيسة صغيرة على اسم القديس حنانيا يقال إنها في المحل الذي كان به بيت حنانيا"[٣].

خامساً - اليهود في مدينة دمشق:

نزل اليهود دمشق منذ أمد بعيد في كنيس في قرية جوبر التي تبعد بضع دقائق عن شرقي دمشق وجاء ذكر ذلك في التلمود منذ أكثر من ألفي سنة، وذلك بقوله بالحرف الواحد (كنشتادييه جوبر) ومعناه كنيسة جوبر القائمة إلى يومنا هذا التي كانت مقرًا للنبيين "إيليا (الخضر) وتلميذه (أليسع) اليشاع" وفي بعض دور الكتب العبرية في دمشق إلى اليوم آثار مخطوطة يرجع عهدها إلى القرن الحادي عشر

(١) غرايبة، مرجع سابق، ص ١٢٣.
(٢) محمد عوض، مرجع سابق، ص ٣٠٦.
(٣) قساطلي، مرجع سابق، ص ١٠٣.

الميلادي. ويفيدنا هذا أن اليهود لم ينقطعوا عن الشام لاسيما بعد فتح المسلمين لها إذ ثبتت أقدامهم فيها وتوفرت لهم أسباب الرخاء والهناء[1].

وبفتح القسطنطينية طبق على اليهود نظام الملل كما جرى على غيرهم من أهل الذمة وفيه نص على اعتبار اليهود "ملة" وسمح لهم محمد الفاتح بالإقامة في استانبول وعين لهم "حاخام باشي" بسلطات تشبه سلطات بطريرك الأرثوذكس وقد تحسنت أوضاع اليهود في الدولة العثمانية بعد ان كانوا في ظل الدولة البيزنطية مجموعة منعزلة ومهملة ومحرومة من الوصول إلى المناصب العامة ومن الشهادة ضد المسيحيين، وتقربوا من السلاطين واكتسبوا ثقتهم لاسيما بعد زواج السلاطين العثمانيين كلهم بنساء يهوديات[2]. ولم يتشدد العثمانيون بضرورة تميزهم بلباس خاص ولذلك تدفقوا من جميع أنحاء العالم إلى الدولة العثمانية وخاصة من إسبانية، وتفسير هذا التقرب من اليهود هو عدم ثقة العثمانيين بالمسيحيين الذين تخوفوا من تعاونهم مع أعداء الدولة المسيحيين والسبب الآخر هو اختلاط النسب اليهودي بالعثماني كما أسلفنا. وهكذا ازداد عدد اليهود في الدولة العثمانية وتعاظمت قوتهم مع قدوم المجموعات التي هاجرت من أسبانيا وأوربا بشكل عام إلى الدولة العثمانية فأضيفت إلى اليهود الموجودين قبل قدوم العثمانيين في كلٍ من سوريا ومصر والعراق. وبالرجوع إلى سجلات الإحصاء التي أجريت في الإمبراطورية العثمانية والوثائق التاريخية يتبين لنا أن أعداد اليهود بدأت تزداد بشكل ملحوظ منذ عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦م) وابنه سليم الثاني (١٥٦٦-١٥٧٤م)، حيث بلغت ١١٥,٤٢٠ فردًا موزعين على ثلاث مدن رئيسية هي سالونيك وإزمير واستانبول[3]، وقد سمح ليهود المجر ومولدافيا وإسبانيا بالهجرة إلى سوريا وكانت صفد والقدس ودمشق هي مركز الاستقرار لليهود الوافدين، وكان يشرف عليهم

(١) كرد علي، مرجع سابق، ج٦، ص ٢١١-٢١٢.

(٢) عامر، محمود، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٣٠-٤٠.

(٣) عامر، محمود، تاريخ الماسونية ويهود الدونمة، دراسة وثائقية في الأهداف والأصول، دمشق، دار الصفدي، ٢٠٠٢م، ص ٦١.

في سوريا ومصر "ربي" يسمى "ناجد" أو "ريس" وسلطته تشبه سلطة "الحاخام باشي" في استنابول[1].

بلغ عددهم في فلسطين خلال القرون الثلاثة الأولى من حكم العثمانيين (عشرة آلاف نسمة) وحوالي "٣٠ ألفاً" في بر الشام كله. وتزايد هذا العدد بسرعة في أواخر القرن التاسع عشر حتى ناهز المائة ألف. وتعرض اليهود خلال عهد إبراهيم باشا لنقمة المسلمين والمسيحيين معًا وكانت متاعبهم مع المسيحيين أخطر إذا اتهموهم بخطف المسيحيين لقتلهم وخلط دمهم بالفطير بدلاً من دم خاروف الفصح، وقد اتهم اليهود بقتل الأب توما الكبوتشي (١٨٤٠م) حيث نشبت أزمة في دمشق واعترف اليهود بقتلهم للأب توما وكان ذلك على يد الحاخام موسى أبو العافية. وتضامن اليهود في دمشق وأنحاء العالم لإثبات براءة المتهمين اليهود ودفعوا مبلغًا من المال إلى محمد علي باشا كتعويض للإفراج عن المتهمين وقد تم إطلاق سراحهم وحفظت القضية وكان الأمر بدعم من قنصلي بريطانيا وروسيا[2].

ولما عاد الحكم العثماني لبلاد الشام تضامن اليهود مطالبين بإخراج القناصل الإفرنج من دمشق وحلب وسلب المسيحيين المزايا التي كسبوها في العهد المصري، وهاجمت العصابات اليهودية المسيحيين في دمشق يوم دخول الوالي العثماني الأول علي باشا دمشق (١٨٤١م) وكادت أن تنشب في المنطقة فتنة إثر انتشار شائعة بين المسلمين والمسيحيين مفادها بأن اليهود يستخدمون دم مسلم أو مسيحي في فطيرهم[3].

سكنهم وأحياؤهم وأهم الكنس اليهودية:

سكن أهل الذمة بشكل عام (من مسيحيين ويهود) في دمشق في أحياء خاصة بهم ضمن أسوارها، وكان الحي اليهودي يقع في الزاوية الجنوبية الشرقية منها[4].

---

(١) محمد عوض، مرجع سابق، ص ١٣٤.

(٢) غرايبة، مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٣) غرايبة، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٤) عبده، سمير، اليهود السوريون، دمشق، دار حسن ملص، ط١، ٢٠٠٣، ص ١٠.

وكـان هـذا الحـي مـن أكـبر أحيـاء اليهـود في دمشـق، وأمـا بالنسـبة لأهـم الكـنس اليهودية في دمشق كنيس في جوبر وكانوا يقيمون فيه صلواتهم، وكنيس آخر في حـيهم الزيتونـة الـذي بقـي مهجـورًا فـترة طويلـة فقـام أحـدهم ببيعـه للمسـيحيين الكاثوليك في دمشق سنة (١٢٤٨هـ/١٨٣٢م) فحولها الكاثوليك إلى كنيسة ما تزال قائمة في دمشق في منطقة باب شرقي إلى الآن، وكذلك قام الكاثوليك أيضًا بضم حارة القرائين إلى كنيستهم وذلك في عهد إبراهيم باشا المصري وذلك اعتمادًا على السياسة التسامحية مع المسيحيين التي اتبعها إبراهيم باشا في الشام، ولكن هذا الأمر آثار خلافا بين علماء المسلمين حول أحقية امتلاك الكاثوليك لهذا الحي[★][١].

وعُرفت في دمشق في القرن التاسع عشر أربع طوائف يهودية وهي: الربانيين والقرائين والسامرة والمستعرب وكان لكل طائفة من هؤلاء حي خاص بها في دمشق، وأطلق على كل حارة اسم الثلاج[٢]، وطبعًا كان لكل من هذه الطوائف الكُنس الخاصة بها في المدينة ولكن لم تذكر لنا المصادر سوى الكنس السابقة الذكر وذكر نعمان القساطلي أنه كان في دمشق كُنس لأتباع فرقتي (الربانيين والسامرة)، وخصص هؤلاء في كل بيت من بيوتهم حجرة كبيرة للعبادة، وكانت كنسهم العامة عديدة ومنتشرة في أحيائهم، وأشهرها كنيس سوق الجمعة وكنيس جوبر (سابق

(★) كان لليهود القرائين في دمشق كنيس في الحي المعروف اليوم بحارة الزيتون، وبقي حتى قدوم إبراهيم باشا المصري إلى دمشق سنة (١٢٤٨هـ/١٨٣٢م)، ولم يكن في ذلك الوقت من بقايا القرائين سوى رجل واحد يقال له المعلم إبراهيم ولد موسى فضول النجار القدسي، وهو الناظر على أوقافهم). فاشترى منه الروم الكاثوليك في تلك السنة موضع الكنيس وما حوله من الدور والأبنية وأقاموا في مكا ا كنيستهم الكبرى المعروفة باسم سيدة النياح وحضر المبيع الحاخام إبراهيم ليولى الإسلامبولي نائبا عن طائفة القرائين في الآستانة والقرم ومصر، وتم العقد في أواسط جمادى الأولى سنة (١٢٤٨هـ/١٨٣٢م)، وببيع هذا الكنيس انقرض وجود فرقة القرائين في دمشق. عبده، مرجع سابق، ص ٩٨.

(١) غرايبة، مرجع سابق، ص ١٢٦.

(٢) عبده مرجع سابق، ص ٩٨، وانظر: نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٢، ٣٤٣.

الذكر) وهو أقدمها[1]. وكان هناك كنيس لليهود السامرة في حارة العنابة بالقرب من برج الروس[2].

وأما أوقاف اليهود فكانت محدودة في دمشق وذلك لقلة عددهم فيها وجل أوقافهم كانت خيرية ومحبوسة على كنيسهم في قرية جوبر، وكان المسؤول عن هذه الأوقاف سنة (١٢١٧هـ/١٨٠٢م) سبتة بن يوسف أرازي. والذي يُعين من قبل طائفته أمام القاضي، وكذلك وقف يعقوب اليهودي وكان ناظرًا عليه في سنة (١٢٢٣هـ/١٨٠٨م) يعقوب إسحاق وبهذا فقد كان لليهود في دمشق أوقاف أهلية وغير أهلية، سجلت جميعها في محاكم دمشق[3].

كان لكل حارة يهودية في دمشق شيخها وإمامها وهو صلة الوصل بينها وبين السلطة الحاكمة في المدينة، وكان مجلس الحارة يمثل حكومة محلية في الحي، وكانت الدولة تستعين بهذا المجلس لجلب المطلوبين في الحي أو تحصيل حقوقها[4].

وشهد القرن التاسع عشر نهضة عمرانية لبيوت اليهود في دمشق كان من أهمها بيت يوسف أفندي عنبر، لم يكن له نظير في دمشق ولا يزال قائمًا إلى الآن (مكتب عنبر) الذي تحول فيما بعد إلى أول مدرسة ثانوية في دمشق، تخرج منها أعيان سوريا في العلم والتربية، وأصبح الآن تابعًا لمحافظة دمشق. ومن البيوت اليهودية الفاخرة أيضًا بيت الخواجه اسلامبولي وبيت شمعايا وبيت الخواجه لزبونا[5].

وأما المقابر اليهودية، فكان في دمشق مقبرتان، الأولى بالقرب من مقام بلال الحبشي وإلى الغرب من مقابر المسيحيين خارج أسوار دمشق، والثانية تقع في الجهة الجنوبية الشرقية من الأولى (وقسمت مقابر اليهود فيما بينهم حسب طوائفهم)[6].

---

(١) عبده، مرجع سابق، ص ٩٨-٩٩.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٤.

(٣) عبده، مرجع سابق، ص ١٠-١١.

(٤) عبده، مرجع نفسه، ص ١٠.

(٥) عبده، مرجع نفسه، ص ١١.

(٦) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ١٩٢.

واستخدم اليهود في دمشق اللغة العبرية في الكتابة على قبورهم، واستخدموا التقويم العبري في تاريخ الوفاة، وأنزلوا الميت في لحد واحد ونقشت نجمة داود على شواهد قبورهم وصورة أداة تدل على الحرفة التي كان يمارسها المتوفى وقد ينقش صورة الشمعدان المقدس ذي الفروع التسعة التي تمثل وصايا موسى عليه السلام. ويدفن الميت رأسه نحو الشمال وقدماه نحو الجنوب.

ولقد أقام اليهود ضمن المقبرة الخاصة بهم كنيسًا صغيرًا لإقام الصلاة الجنائزية فيها[١].

الحياة الاجتماعية لليهود في دمشق في القرن التاسع عشر:

بالنسبة للغة فقد استخدم اليهود اللغتين العربية وهي لغة الحياة اليومية، والعبرية التي استخدمت للدلالة على التواصل الديني والروحي مع معتقداتهم. وذكرنا كيف كانوا يكتبون على شواهد القبور بالعبرية وتليت الصلوات كذلك باللغة العبرية. ولقد استخدم بعض صيارفتهم اللغة العبرية في كتابة السجلات المالية في ولاية دمشق، حيث كان أغلبهم يعملون في مهنة الصرافة في الدولة، وكانت الغاية وراء ذلك هي إجبار ولاة دمشق على عدم الاستغناء عن خدماتهم في هذا المجال، وليتحكموا باقتصاد الولاية[٢] وكان ليهود دمشق لكنة خاصة في نطقهم العربية، يمكن التعرف عليها من قبل الغير أن ناطقها يهودي. واستخدموا عبارات عبرية في سلامهم، خاصة يوم السبت[٣].

أما بالنسبة لأزياء اليهود فالمتعارف عليه أن تكون المرأة محجبة ولو أنها يهودية لغاية القرن التاسع عشر، ولكن باختلاف عن أخواتها المسيحيات والمسلمات، حيث كانت ثياب اليهوديات تختلف فقط باللون حيث قُيدنَّ بلون خاص بهن، ولبست اليهوديات أيضًا الإزار عند خروجهن من بيوتهن ويتركن إحدى الذراعين حرة[٤].

(١) نعيسة، مرجع سابق ص ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ص ٣٤٤-٣٤٥.

(٣) عبده، مرجع سابق، ص ١١.

(٤) عبده، مرجع سابق، ص ١١.

وارتدى اليهود حتى نهاية القرن التاسع عشر قبعات حمراء بدون حواف على رؤوسهم، ولكن صدر فرمان من الدولة العثمانية أجبر اليهود ارتداء القبعات الزرقاء على أن يبقى الشاش أحمر، وألزم اليهود القراؤون الربانيون باللون الأصفر، وعلى المرأة ارتداء الإزار الأصفر، ولكن سرعان ما سعى اليهود لاستخلاص فرمان سلطاني يعفيهم من الالتزام بهذا الزي. وخاصة بعد أن وضعوا أنفسهم تحت حماية القناصل الأجانب وأصبحوا يتزينون بالأزياء الأوربية[1].

وساهم اليهود في وظائف الدولة في الولاية فكان هناك تمثيل دائم لهم في مجلس الولاية ووظائف أخرى حددها الدستور.

ولقد استفاد اليهود الدمشقيون كثيرًا من سياسة التنظيمات التي انتهجتها السلطة العثمانية تجاه غير المسلمين، فقد أتاحت لهم هذه السياسية فرصة استغلال حالة الازدهار الاقتصادي بحرصهم على تعلم اللغات الأجنبية مثل الفرنسية والإنكليزية وهو ما أتاح لهم فرصة التوسع في أنشطتهم التجارية، ولقد شكلت الصيرفة عمود عمل اليهود في دمشق كما هو الشأن في سائر بلدان العالم المتواجدين بها[2].

وعمل اليهود أيضًا في المهن اليدوية أو التجارية وبرعوا فيها ولم يأتِ منتصف القرن التاسع عشر إلا وكان تجار دمشق اليهود من أغنى تجار المدينة على الإطلاق. فبينما كان للمسيحيين ٢٩ بيتاً بلغ عدد البيوتات التجارية اليهودية الشهيرة ٢٤ بيتًا رأسمالها قرابة خمسة ملايين فرنك[3]. فقد تمتع اليهود في بر الشام عامة ودمشق خاصة بنفوذ تجاري كبير فقد سيطروا على تجارة صفد ودمشق ولعبوا دورًا بارزًا في حلب وبيروت وعكا وحيفا، كما سيطروا على تجارة دمشق مع إيطاليا[4]. وحتى مع دخول الامتيازات التجارية الأوربية إلى البلاد العثمانية كان لليهود النصيب الأوفر من الأرباح والمعاملات التجارية مع الغرب وخاصة مع الإنكليز ولم يأتِ النصف الأول من القرن

(١) عبده، مرجع نفسه، ص ١١-١٢.
(٢) عبده، مرجع سابق، ص ٦٦.
(٣) عبده، مرجع سابق، ص ٦٦.
(٤) غرايبة، مرجع سابق، ص ١٢٩.

العشـرين - إلا وكـان اليهـود أصـحاب اليـد العليـا ـفي كـل المجـالات المتعلقـة بـالأموال والتجارة الدولية — وكانت علاقاتهم قوية مع القنصليات الأجنبية وخاصة البريطانية[١].

وأشهر أسرتين لعبتا دوراً كبيراً ـفي الحيـاة الاقتصـادية والإداريـة ـفي دمشـق همـا: آل فارحي (مراد ونسيم فارحي) وأسـرة السـكروج[٢].

ولكـن علـى العمـوم كـان يهـود دمشـق ـفي أقـل ممارسـة للتجـارة عـن غيرهـم مـن يهود المنطقة، فيهـود حلـب مـثلاً عمـل معظمهـم بالتجـارة[٣]. فيهـود دمشـق لم يكونـوا على سوية واحدة من الثراء المادي والنفوذ السياسي. ولم يكـن إلا القليـل منهم يملك رأسمال المال الكبير ويعمل بالتجارة، ـفي حين كام قسم كبير منهم يعمل ـفي حـرف متواضعة بـل محتقـرة ـفي دمشـق (كالبويجيـة والمغنـيين ـفي المقـاهي أو المعـزلين لحفـر قـاذورات المسـاكن والبيـوت أو الجـامعين للخـرق مـن المزابـل وأقنيـة المـاء والحـارات وكان منهم السمكري (لحام التنك) وبياع الأقساط المصنوعة من الحديد ـفي أسـواق مـن دمشـق)[٤]. واشـتغل يهـود دمشـق أيضًـا بصـناعة الأقمشـة والحـدادة وـفي مجـال المنسـوجات والخياطـة، وبـرز يهـود دمشـق بصـفة خاصـة ـفي مجـال صـناعة الأدوات النحاسـية، وحينمـا نشـبت الحـرب العالميـة الأولى كـان ٤٠٪ مـن يهـود دمشـق يعملـون كباعة جوالين واشتغل ٢٠٪ منهم عمالاً وخاصـة ـفي مجـال صـناعة الأدوات النحاسـية واشـتغل ٢٥٪ مـنهم بالتجـارة و١٠٪ مـن الفنـانين والمعلمـين وعـاش ٥٪ مـنهم علـى التبرعات[٥].

أما عن علاقات اليهود الاجتماعية مع بقية الطوائف الأخرى ـفي دمشـق فقـد كانـت محـدودة جـدًا، وقـد حصـل اليهـود مـع بـدايات القـرن التاسـع عشـر علـى حمايـة الـدول الأجنبيـة كمـا أسـلفنا فأصـابهم نصـيب مـن المـدارس الـتي أُحـدثت مـن قبـل البعثـات التبشيرية البروتستانتية (خاصة) فأحدثت مدرسة لبنات اليهود حوت (٤٠ طالبـة) وكـان

---

(١) عبده، مرجع سابق، ص ٦٧، ٦٨.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٧.

(٣) عبده، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٤) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٧، ٣٤٨.

(٥) عبده، مرجع سابق، ص ٦٩.

المدرسون من الأجانب من أصول أمريكية وذلك سنة (١٢٥٦هـ/١٨٤٠م)[١]، وأُسست مدرسة الإليانس الفرنسية في دمشق سنة (١٢٧٣هـ/١٨٦٥م) ومدرسة أخرى لليهود للبنين (١٢٩٨هـ/١٨٨٠م) وللبنات سنة (١٣٠١هـ/١٨٨٣م) ومدرسة أخرى في دمشق سنة (١٣٢٨هـ/١٩١٠م)، التحق بها المئات من تلاميذ اليهود، وشكل الطلاب اليهود في المدارس بشكل عام في بدايات القرن العشرين حوالي ٢١ ٪ من نسبة الطلاب السوريين[٢].

أما أشهر الأسر اليهودية في دمشق فهي: (آل هراري - أبو العافية - شناعة - اللاطي - لنداوا - الفتال سلانيكي - لزبونا - فارحي - إسلام بولي - بيجوتو — نحماد، شمعة - كومان - شحادة - قوشة - كوارع - الأزمرلي - أوديك - دويك - خطوب - زقزوق - ميرو - الشماع - مراد - اللاوي - الترك - الرمانة - الحلبي). وهذه الأسر تعود إلى أصول مختلفة محلية وأجنبية فآل الفارحي من أصل أندلسي هاجروا خلال فترة حوادث التفتيش في إسبانيا[٣]. والبعض الآخر جاء دمشق في مراحل متأخرة نتيجة الهجرة اليهودية التي شجع عليها السلاطين العثمانيون إلى الدولة العثمانية[★].

ولكن لم تأتِ نهاية القرن التاسع عشر إلا وقد أصبح اليهود أغنى أبناء دمشق على الإطلاق وأصبح لهم نفوذ الكلمة لدى ولاتها[٤]. وفي النصف الأول من القرن العشرين وصل الأمر باليهود السوريين إلى أن كانت لهم اليد العليا في كل المجالات المتعلقة بالأحوال والتجارة الدولية[٥] وما إن حلَّ القرن العشرون حتى بدأت الدعوات

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٦، ٣٤٧.

(٢) عبده، مرجع سابق، ص ٧٢، ٧٣.

(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٧.

(★) تفيد المصادر التاريخية أن كل اسم ملون هو من أصل يهودي مثل (الأزرق، الأحمر، الأصفر، البني، الأبيض،... الخ) وتضيف المصادر قائلة: إن اعتناق هؤلاء اليهود للإسلام كانت نتيجة لدعوة سبتاي زيفي (١٠٧٥هـ/١٦١٤م) الذي ظهر في أزمير وأدعى أنه المسيح المنتظر. لزيادة في الإطلاع يراجع عامر، محمود، الماسونية ويهود الدونمة، ص ١١٢، ١١٣، ١١٤....

(٤) نعيسة، مرجع سابق، ج١، ص ٣٤٧-٣٤٨.

(٥) عبده، مرجع سابق، ص ٦٨.

توجه إلى يهود دمشق من أجل الهجرة والتوجه إلى فلسطين وخاصة بعد قيام الدولة الإسرائيلية المزعومة، فبدأ يتسرب العديد منهم بالسر من المدن السورية متوجهًا إلى فلسطين، وفي سنة ١٩٩٣م سمحت سوريا ليهودها بالمغادرة، تعبيرًا عن حسن نواياها تجاه السلام الشامل، وكان عددهم يقدر بحوالي ثلاثة آلاف وخمسمئة يهودي. وعندما سمح لهم بالمغادرة سافر معظم يهود سوريا بعد أن صفوا أعمالهم قاصدين الولايات المتحدة الأمريكية. فيما قلة منهم هاجرت من هناك إلى إسرائيل. وقد تم كل ذلك بفعل الضغط الخارجي الذي مورس عليهم ليهاجروا، مع أن أعمالهم كانت مزدهرة في هذا البلد، ولم يتعرضوا لأي مضايقات في بلدهم سوريا، ولم يبقَ من اليهود السوريين في الوقت الحاضر سوى بضع عشرات من الأفراد، أغلبهم من كبار السن الذين لا يتحملون أعباء الهجرة إلى فلسطين مع كل الإغراءات التي قدمت لهم من الخارج[1].

ويمكن القول في نهاية حديثنا عن الحياة الدينية في دمشق في المرحلة الحميدية نجد أنه سيطرت في هذه المرحلة فكرة الصوفية والتصوف على المنطقة بشكل عام وعلى دمشق بشكل خاص، حيث ازدهرت هذه الطرق وزاد مريدوها وتفرعت إلى الكثير من الطرق الأصلية في دمشق إلى فروع جديدة انتسبت إلى مؤسسيها وأغلبهم كان من الأسر الدمشقية المشهورة، ولقد دعمت هذه الحركة من قبل السلطات العثمانية، وذلك لما كانت تقدمه هذه الطرق من التستر وإلهاء الشعب في المنطقة عن المشاكل الخارجية وتوجيه أنظار الناس للتعبد والتفكر وترك الدنيا لأهلها، وهذا على ما يظن دفع بشريحة كبيرة من سكان دمشق إلى التقوقع على أنفسهم وأخذ دور سلبي ضد الأحداث الجارية في المنطقة في تلك المرحلة الخطيرة.

أما بالنسبة للملل الأخرى فقد دخلت إليها بوادر التفتح والتمدن عن طريق البعثات التبشيرية الأجنبية التي بدأت تفد إلى المنطقة في تلك المرحلة وتلقى الرعاية والدعم من الدولة العثمانية بموجب الاتفاقيات والمعاهدات الموقعة مع الدول الغربية. حيث سمحت لها هذه الامتيازات على إعلان الدول الأوربية كل على حدة الوصاية

(١) عبده، مرجع سابق، ص ٤١.

على ملة من الملل في الشام ورعايتها لها واعتبرت نفسها الوصية الشرعية عليها، وعملت هذه الدول على نقل صراعاتها فيما بينها إلى هذه الفئات ونجحت في كثير من الأحيان في إشعال الفتن في المنطقة وإثارة الثورات فيها ضد الحكم العثماني أو ضد بعضها البعض، نتج عنها في كثير من الأحيان مذابح حقيقية في دمشق.

ولكن من إيجابيات هذه الوصاية أنه كان لغير المسلمين في دمشق النصيب الأوفر من نشر العلم والمعرفة فيما بينها وبناء المدارس الحديثة حيث خرجت هذه المدارس أوائل الثائرين والمتنورين العرب وخاصة في دمشق والذين أصبحوا فيما بعد أبطال ورموز النهضة العربية الحديثة في القرن العشرين.

الفصل الثالث
الجهاز الإداري في مدينة دمشق
في عهد الإدارة الحميدية

أولاً - الوالي:

أ- وظائف واختصاصات الوالي في المسائل المالية.

ب- وظائف الوالي في أمور المعارف والنافعة.

ج- وظائف الوالي في أمور الضابطة.

د- وظائف الوالي في الأمور الجزائية والحقوقية.

ثانياً – أركان الولاية:

أ- معاون الوالي.

ب- الدفتردار

ج- المكتوبجي.

د- القاضي:

١- اختصاصات القاضي.

٢- كيفية إجراء المحاكمات في الولاية:

- المحاكم الشرعية.
- المحاكم النظامية

٣- قضاة دمشق في تلك المرحلة.

ثالثاً – مجلس إدارة الولاية:

اختصاصات مجلس الولاية:

أولاً – في الأمور الإدارية.

ثانيًا – الدعاوى الإدارية.

رابعاً – المجلس العمومي: اختصاصاته:

خامساً – المجلس البلدي:

- اختصاصات المجلس البلدي
- عائدات المجلس ومصروفاته

سادساً – الدوائر المهمة التي حددها الدستور في مركز الولاية:

أ- مدير الأمور الأجنبية.

ب- مدير المعارف.

ج- مدير الزراعة والتجارة.

د- مدير الدفتر الخاقاني.

ه- مأمور الأملاك والنفوس.

و- مدير الأوقاف.

ز- بك آلاي (آلاي بك).

ح- مدير النافعة.

سابعاً – الولاة الذين تعاقبوا على مدينة دمشق في تلك المرحلة:

الجهاز الإداري في مدينة دمشق

أصبح الجهاز الإداري لولاية سورية بعد صدور قانون تشكيل الولايات (١٢٨١هـ-١٨٦٤م) على النحو التالي:

١- والي ولاية سورية (الشام): وهو المسؤول عن الجهاز المدني فيها ويحمل لقب باشا.

٢- أركان الولاية: وهم الدفتردار والنائب والمكتوبجي.

٣- مجلس إدارة الولاية: برئاسة الوالي وعضوية أركان الولاية بمثابة أعضاء دائمين مع سبعة أعضاء منتخبين.

٤- كبار مأموري (موظفي) الولاية: وهم مدير المعارف وآلاي بك ومفتش العدلية، ومدير المصالح الأجنبية ومدير تحرير الويركو ومدير الدفتر الخاقاني ورئيس مديري "باش مدير" التلغراف والبريد ومحاسب الأوقاف ورئيس الولاية "ولاية سر تحصلدار" وناظر النفوس ومدير أوراق الولاية وبيطري الولاية.

وأقام هؤلاء الموظفون في "دمشق" مركز ولاية سورية، وأشرف كل منهم على عدد آخر من الموظفين التابعين له في مراكز الألوية والأقضية.

أما الجهاز المدني في مركز اللواء فكان على النحو التالي:

١- المتصرف: وهو مسؤول عن الجهاز المدني في اللواء ويحمل لقب باشا أو بك.

٢- أركان اللواء: النائب الشرعي في اللواء والمفتي ونقيب الأشراف، والمحاسب ومدير التحريرات.

٣- مجلس إدارة اللواء: ويرأسه المتصرف ويتألف من أعضاء دائمين هم أركان اللواء مع ثمانية أعضاء منتخبين، (ولقد اختلف عدد أعضاء مجلس إدارة اللواء المنتخبين من لواء لآخر فمثلاً بلغ عددهم في لواء حوران ستة أعضاء فقط) ويشرف موظفو مركز اللواء على عدد من الموظفين التابعين لهم في أقضية اللواء.

وأما الجهاز الإداري في القضاء فيرأسه القائمقام وهو يحمل رتبة بك، ويرأس مجلس إدارة القضاء أيضًا ويشرف على موظفي القضاء.

وفيما يلي شرح مفصل عن اختصاصات وصلاحيات أعضاء الجهاز المدني في ولاية الشام عضوًا عضوًا مع بيان للمجالس (مجلس الولاية - المجلس العمومي - المجلس البلدي) في الولاية[1].

أولاً – الوالي:

نصت المادة السادسة من نظام الولايات (١٢٨١هـ-١٨٦٤م) على مايلي: "نظارة أمور الولاية الملكية والمالية والضابطة والبوليقة وإجراءات الأحكام الحقوقية تحال إلى والٍ منصوب من طرف الحضرة السلطانية الشريفة، وكما أن والي الولاية هو مأمور بتنفيذ جميع أوامر الدولة كذلك هو مأمور بإجراء ما هو داخل في حدود المأذونية المعنية له من أحكام ولايته الداخلية"[2].

كانت رتبة حاكم الولاية (الوالي) أدنى من رتبة الوزارة بدرجة واحدة، ومنح الوالي طوخين[3]، وكثيراً ما أسندت ولايتا دمشق وحلب إلى ولاة يحملون رتبة الوزارة أو الصدارة العظمى فحافظوا في مركزهم الجديد على حقهم في الأطواخ[4].

وكان أمر تغيير الولاة اعتيادياً في الدولة العثمانية، فكثير من الولاة لم يقض في ولايته أكثر من عام واحد، بل وبعضهم حكم أقل من شهر، بالرغم من أن مرسوم التعيين (الفرمان)، كان يصدر لعام واحد، ولكن أمر التجديد السنوي كان من الأمور الاعتيادية[5] في الولاية.

حكم ولاية الشام خلال القرن السادس عشر ستةٌ وأربعون والياً، ثلاثة منهم

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٨٢-٨٣.

(٢) نوفل، الدستور العثماني، مجلد ١، ص ٣٨٢.

(٣) الطوخ: ذيل الفرس استعمله التتار والعثمانيون شعارا للسلطة بحيث حددت رتبة الأمير بعدد وأطواخه، فكان للسلطان تسعة أطواخ، وللصدر الأعظم خمسة وللوزير ثلاثة. غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ١٩٦١-١٩٦٢، ص ٤١.

(٤) غرايبة، مرجع سابق، ص ٤١.

(٥) غرايبة، مرجع سابق، ص ٤٢.

حكموا ثلث المدة، وفي القرن السابع عشر ارتفع العدد إلى واحد وتسعين والياً حكم خمسة منهم ربع المدة، وحوالي خمسة وأربعين والياً في القرن الثامن عشر، وفي القرن التاسع عشر بلغ عدد ولاة ولاية الشام أربعة وستين والياً، وفي القرن العشرين وصل عددهم إلى اثنين وعشرين والياً. وإجمالي عدد ولاة دمشق خلال العهد العثماني كله مائتان وسبعون والياً حكموها خلال أربعة قرون من الحكم العثماني للبلاد[1].

ولم تطبق قاعدة ثابتة في تعيين هؤلاء الولاة ونقلهم ومدة حكمهم، فقد يعين أحدهم والياً على ولاية صغيرة ثم ينتقل إلى أخرى كبيرة ليعود بعدها إلى ولاية أصغر، وقد يحكم الوالي الولاية ثلاث مرات أو أكثر، وربما يعزل قبل أن ينهي مدة العام الواحد المقررة لتجديد فرمان الولاية[2].

وباعتبار أن ولاية الشام أو دمشق كانت من أكبر الولايات في بر الشام مساحةً وأكثرها سكاناً، فلقد كان أمر إدارتها مسألة مهمة جداً للسلطة العثمانية، فقسمت ولاية الشام إلى أربعة ألوية واثنين وعشرين قضاءً وثمان وعشرين ناحية، وضمت أكثر من ألف ومائة مدينة وبلدة وقرية ومزرعة[3]، "وبمقتضى التنظيم الإداري الذي تم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، ظلت سورية حتى انتهاء العهد العثماني مقسمة إلى ثلاث ولايات، هي سورية وحلب وبيروت، ومتصرفيتين مستقلتين عن الولاية، مرتبطتين مباشرة بوزارة الداخلية أسوة بالولايات، هي القدس ودير الزور، كان مركز ولاية سورية (أو الشام)، هو دمشق وشملت متصرفيات حماة وحوران والكرك (البلقاء) والأقضية التالية: (النبك، جيرود، دوما، الزبداني، القنيطرة، قطنا، وادي العجم). والأقضية الأربعة التي فكت من سورية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى (١٣٢٧هـ-١٩١٨م). وألحقت بلبنان – وهي البقاع (ومركز إدارته بلدة المعلقة المعروفة بين الأهلين بمعلقة زحلة) – وأقضية راشيا وحاصبيا

(١) غرايبة، مرجع سابق، ص ٤٢.
(٢) غرايبة، مرجع سابق، ص ٤٢، ٤٣.
(٣) غرايبة، مرجع سابق، ص ٧١.

وبعلبك"[1].

كانت الولاية مرتبطة بصورة مباشرة بوزارة الداخلية في اسطنبول، وذلك كما أسلفنا لأهمية ولاية الشام العسكرية والسياسية والاقتصادية، وانحصرت مهمة الوالي في إدارة الشؤون العليا للولاية، والإشراف على الإدارتين المالية والسياسية وشؤون الأمن، وتنفيذ الأحكام والعقوبات الصادرة عن السلطة القضائية، وتطبيق القوانين العامة للدولة في الولاية[2]، وأشرف على الأمور المالية في الولاية "الدفتردار"، ولكن المسؤول المباشر عن مالية الولاية أمام نظارة المالية العليا في الدولة هو الوالي. كما ترأس الوالي مجلس إدارة الولاية المكون من مفتش الحكام الشرعيين والدفتردار والمكتوبجي ومدير الأمور الخارجية وأربعة أعضاء منتخبين منهم اثنان من المسلمين واثنان من غير المسلمين، كما أشرف الوالي أيضًا على أمور ضابطة الولاية التي رأسها ضابط برتبة "ميرالاي" باسم آلاي بك، وكان تحت إمرة الوالي مباشرة وهذه كانت خلاصة ما جاء في صلاحيات الوالي وفق نظام الولايات (١٢٨١هـ-١٨٦٤م)[3].

ولكن هذه الاختصاصات توسعت أكثر في قانون إدارة الولايات العمومية الذي صدر في سنة (١٢٨٧هـ-١٨٧١م)، وقسمت هذه الوظائف إلى عدة أقسام:

الأول منها في توضيح اختصاصات الوالي في الأمور الملكية، ومهمة الوالي تتلخص في هذا المجال في الإشراف على إجراء القوانين والأنظمة والتعليمات التي تصدرها الدولة، ويقوم أيضًا بالتفتيش على تصرفات وأعمال المتصرفين وموظفي الولاية المركزيين إذا وجد خطأ أو نقص يضر بإدارة الولاية ويستلزم عزل الموظف المخطئ فيتخذ التدابير اللازمة من أجل عزله[4].

ومن مهام الوالي أيضًا تعيين مواعيد اجتماع مجالس النواحي والألوية، كما

---

(١) الحكيم، يوسف، سوريا في العهد العثماني، دار النهار، بيروت، ١٩٨٠، ص ٥٠، ٥١.

(٢) سلطان، علي، تاريخ سورية أواخر الحكم التركي، (١٩٠٨-١٩١٨) دراسة اجتماعية واقتصادية وثقافية، دمشق، ١٩٩١، ص ٣٥، ٣٦.

(٣) عوض، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ٨٤.

أُعطي الحق بإجراء الأمور الاعتيادية في الولاية ضمن صلاحياته، أما فيما يتعلق بالأمور الخاصة بالدولة والسلطات العليا فترفع مباشرة إلى الباب العالي.

وعلى الوالي أن يقوم بالتفتيش في أنحاء الولاية مرة أو مرتين في السنة على أن لا تتجاوز المدة ثلاثة أشهر، وإذا اضطر إلى جولة مفاجئة فعليه إخبار الباب العالي عن مدى أهميتها وضرورتها بعد القيام بها[1].

ويمكن تصنيف اختصاصات الوالي حسبما وردت في قانون إدارة الولايات الصادر سنة (١٢٨٧هـ-١٨٧١م) السابق الذكر إلى أربعة أنواع:

١- وظائف واختصاصات الوالي في المسائل المالية:

نصت القوانين الواردة على ضرورة أن يقوم الوالي بتقديم تقرير عن جميع المصروفات والإيرادات التي تأتي إلى الولاية، والتكاليف المالية فيها. والإشراف المباشر من قبله على ضبط الأموال المتحصلة والمنازعات التي تنشأ عن ذلك، ومراقبة الموظفين القائمين على تحصيل هذه الأموال[2].

وأُعطي الحق أيضًا بالإشراف على أمور الملكية، والبت في التعديلات الجزائية التي يجريها مجلس إدارة الولاية، ومن هذه البنود: "تحسين تقييدات حجج الأملاك وتسليمها والمحافظة التامة على السنن عند نقل الأملاك، إجراء كيفية عادلة لدفع النقود عند إنشاء الطرق وغيرها، تنجيح الزراعة وترقية أسبابها والمناظرة على أموال صناديق الزراعة المقامة لنفعها بحيث تستخدم استخدامًا موافقًا وتضبط حساباتها، وتنظيم الأموال الشخصية وتعيين ينابيع الأموال المحلية واتخاذ الوسائل اللازمة لتأكيد جمعها"[3].

ومنع الوالي من التصرف بأموال الولاية خارج حدود الميزانية المخصصة لها، وإذا اضطر إلى ذلك فعليه أن يستأذن نظارة المالية قبل ذلك، ولا يسمح له بصرف ولو

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٨٥.

(٢) عبد المنعم، أحمد، مدينة حلب في الفترة الحميدية، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير في التاريخ ،جامعة دمشق، إشراف: د.محمود علي عامر، سنة (٢٠٠٠-٢٠٠١م)، ص ٣٣.

(٣) مختارات من القوانين العثمانية، دار الحمراء للطباعة، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص ٧٧-٧٨.

مبلغ بسيط من مخصصات الولاية دون إذن رسمي منها[1].

٢- وظائف الوالي في أمور المعارف والنافعة:

حيث نص الدستور على الأمور التالية:

العمل على العناية بالتعليم في الولاية وتأمين المرافق الخاصة بذلك، وأيضًا العناية بالتجارة والزراعة والصنائع داخل الولاية[2].

"تتجيح الزراعة وترقية أسبابها والمناظرة على أموال صناديق الزراعة المقامة لنفعها بحيث تستخدم استخدامًا موافقًا وتضبط حساباتها[3].

العمل على إنشاء الطرق العامة وتعميرها في الولاية، وتأسيس الموانئ والأرصفة على السواحل.

المحافظة على الصحة العامة والإشراف عليها وذلك من خلال فتح الجداول وتطهير الأنهار والبحيرات، بالإضافة إلى تعمير الأراضي المعطلة.

إحداث صناديق للمنافع العمومية والاعتبار والادخار وفتح بيوت للصحة وللشركات والمعامل وتكثير منافع المعادن والأحراش[4].

٣- وظائف الوالي في أمور الضابطة:

وجاء في الدستور بما يخص مسؤولية الوالي في أمور الضابطة مايلي:

١- الإشراف المباشر من قبل الوالي على انتخاب الضابطة وانتقاء الأفضل والأكثر نزاهة منهم وإبعاد الفاسد[5].

٢- الإشراف على السجون وأمور المسجونين فيها والموقوفين وتعيين مديري

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٨٥.

(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٣) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٩.

(٤) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٥) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٨.

السجون وحراسها[1].

٣- مسؤولية الوالي كاملة على أمن الطرق والمعابر بواسطة قوة من الأمن.

٤- الحفاظ والسهر على أمن الأهالي وراحتهم.

٥- وفي حال حدوث مشكلة في الولاية تخل بأمن الدولة والأهالي فيجب على الوالي إخبار الباب العالي عنها وعن منشأ هذه الحركة ويأخذ التعليمات اللازمة من أجل قمعها ومعالجتها، وفي حال كان الوضع خطيرًا وملحًا يحق له استخدام أموال خزينة الولاية في قمع هذه الحركة، وذلك في الحالات الاضطرارية[2].

٦- وفي حال حدوث حركات تمرد وعصيان في الولاية ولم تتمكن قوات الضابطة الموجودة فيها من السيطرة عليها، يحق للوالي استخدام قوات الجيش المرابطة في الولاية في قمع هذه الحركات، وذلك بعد التقدم بكتاب رسمي إلى قائد هذه القوات موضحًا فيه الأسباب[3].

٤- وظائف الوالي في الأمور الجزائية والحقوقية:

وتتلخص هذه الوظيفة في أن يعمل الوالي على تنفيذ الأحكام التي تصدرها محاكم الولاية، وأما تلك التي تحتاج إلى إذن من الباب العالي قبل تنفيذها، فترفع مباشرة إلى الآستانة، وذلك لتدقيقها والنظر فيها[4].

"فالوالي بالنتيجة كان مأمورًا بتنفيذ جميع أوامر الدولة، ومأمورًا بإجراء ما هو داخل في حدود المأذونية المعينة له من أحكام ولايته الداخلية"[5].

---

(١) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٨-٧٩-٨٠.

(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٣-٣٤.

(٣) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٤.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٥) كوثراني، وجيه، السلطة وا تمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، بيروت، ١٩٩٨، ص ٨٩.

ثانيًا - أركان الولاية:

وتتـألف مـن العناصـر التاليـة: معـاون الـوالي، الـدفتردار، المكتـوبجي، ونائـب المركز (القاضي).

أ- معاون الوالي:

لم يكن هناك نص واضح في قانون تشكيل الولايات الصادر (١٢٨١هـ-١٨٦٤م) بتسمية منصب معاون الوالي، بل كان هناك إشارات في المادة الثامنة عشرة والرابعة والعشرين من النظام المذكور تنص على أنه في حال غياب الوالي ينوب عنه كل من متصرف الولاية أو أحد المأمورين ممن يختارهم الوالي، ونص القانون نفسه على أنه ينوب عن الوالي في حال مرضه أو عزله مشير الجيش الخامس في الولاية، ريثما يتم تعيين والٍ جديد[١].

ومـع صـدور قـانون نظـام إدارة الولايـات العموميـة (١٢٨٧هـ-١٨٧١م)[٢] اسـتحدث منصـب معـاون الـوالي الـذي وضـحت المـادة (١٧) منـه اختصاصـه ومهامـه، وتلخـص بالنقاط التالية:

١- معاونة الوالي في الأمور التي يعيينها له.

٢- الاطـلاع علـى الرسـائل الـواردة إلى مكتـب الـوالي مـن دوائـر الولايـة المختلفـة وإحالتها إلى الجهات المختصة والمسؤولة عنها، وتقديم تقرير وخلاصة عنها للوالي.

٣- إسناد أمور الولاية إلى معاون الوالي في حال غياب الوالي عن الولاية[٣].

ولقد أجاز نظام إدارة الولايات إسـناد وظيفـة معـاون الـوالي إلى موظـف مركـزي في الولايـة بالإضـافة إلى عملـه الأساسـي، أي أنـه يجـوز لهـذا الموظـف أن يجمـع بـين

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٢) عوض، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٣) سلطان، علي، تاريخ سورية في أواخر الحكم التركي (١٩٠٨-١٩١٨) دراسة اجتماعية واقتصادية وثقافية، دمشق، ١٩٩١، ص ٣٦. أحمد، مرجع سابق، ص ٣٥.

وظيفته الأساسية في الولاية ووظيفة معاون الوالي[١].

ويمكن القول إن هذا المنصب لم يكن من الأهمية بمكان في الولاية، لأن كلاً من "سالنامات" ولاية سورية والوثائق المحفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول لم تشر إلى هذا المنصب وذلك خلال الفترة الواقعة ما بين (١٢٨١هـ-١٨٦٤م) إلى (١٣٣٢هـ-١٩١٣م)، إلا أن قانون إدارة الولايات العمومية (١٣٣٢هـ-١٩١٣م) أشار في المادة الخامسة والمادة الثانية والستين منه على وجوب وجود منصب معاون الوالي[٢].

ب- الدفتردار(*):

والدفتر خانة: هي جهاز كان يعمل قديمًا تحت إمرة النشانجي(*)، وكان مسؤولاً عن دفاتر تسجيل الأراضي والعقارات وسجلات التجار ومعاملات الأوقاف، وتدقيقها وحفظها[٣]. وبالتالي فالدفتر خانة هي المؤسسة العليا المسؤولة عن الإشراف على الأمور المالية والسجلات المتعلقة بها في الدولة العثمانية.

والدفتردار هو الموظف الأكبر المسؤول في هذه المؤسسة، وكان أكبر الدفتردارات هو دفتر الرومللي ولقب بـ"باش دفتردار"، وأشرف الدفتردار إشرافًا تامًا على اثنين وثلاثين قلمًا مختصًا بمعاملات جمع الإيرادات والمصروفات المقدرة وبذلك كان هو المسؤول الأول عن الشؤون الخاصة بالأمور المالية للسلطنة[٤]. والدفتردار يلي

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٢) عوض، مرجع سابق، ص ٩٠.

(*) الدفتردار: الدفتر من الكلمة اليونانية دفتيرا، *Diphthera*، بمعنى جلد الحيوان لأنه كان يستعمل للكتابة، والدفتردار لغويا هو صاحب الدفتر أو حافظ السجلات، وتعني أيضا كبير المحاسبين، وقد أخذ العثمانيون هذا الاسم عن الإيلخانيين الذين حكموا الأناضول بعد ا يار دولة سلاجقة الروم. مصطفى بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، دار غريب، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م، ص ١١٧، ١١٨.

(*) النشانجي: وهو الذي يذكر عند العثمانيين أحيانا باسم الطغرائي أو التوقيعي، وكان آخر الأركان الأصلية الأربعة في الديوان الهمايوني. أوغلي، مرجع سابق، ج١، ص ١٨٨.

(٣) أوغلي، مرجع سابق، ج١، ص ١٩١.

(٤) بركات، مرجع سابق، ص ١١٩.

الـوالي ـ﴾ الولايـة ـ﴾ السـلم الـوظيفي مـن حيـث الأهميـة[١]، وجـاء ـ﴾ قـانون "نظـام الولايـات الصـادر ـ﴾ سـنة (١٢٨١هـ-١٨٦٤م) حـول تبيـان طبيعـة وظيفـة الـدفتردار ـ﴾ الولاية مايلي:

"الدفتردار هو مأمور مالية الولاية يكون مرجعًا إلى كل مصالح الولايـة الماليـة، ومع أنه يوجد بمعية الوالي إلا أنه يكون مسؤولاً ـ﴾ الأمور الحسابية رأسًا لدى نظارة المالية"[٢].

وورد أيضًـا: "وأمـور الولايـة الحسـابية تحـال إلى قلـم محاسـبة يكـون تحـت إدارة الدفتردار، وتجري حركتها ـ﴾ الأصول المعنية من طرف نظارة المالية المحلية"[٣].

والدفتردار كـان أكبر موظف مـالي ـ﴾ ولايـة دمشـق، وورد اسمـه ضـمن أعضـاء أركان الولاية البارزين[٤]، وتمتع دفتردار الشام، بنفوذ كبير ـ﴾ القرن الثامن عشر، وكــذلك حــافظ علــى مكانتــه العاليــة بعــد عــودة العثمــانيين إلى ســورية ســنة (١٢٢٦هـ=١٨٤٠م) حيث كان يخاطب بعبارات التبجيل والتعظيم مثل "سـعادة أفنـدم سني الهمم كريم الشيم دفتردار بك أفندي دام للخيرات مدداً" أو "سـعادة سـني الهمـم أفندم دفتردار بك أفندي المفخم".

كمـا كـان يتقاضـى راتبًـا شـهريًا عاليًـا مقارنـة مـع رواتـب أقرانـه ـ﴾ الولايـات الأخرى، فكان يتقاضى راتبًا مقداره عشرون ألف قرش ـ﴾ الشهر (١٢٦٣هـ-١٨٤٧م) بينما كان نظيره ـ﴾ أنقرة يتقاضى حوالي سبعة آلاف وخمسمائة قرش[٥].

ويـأتي أمـر تعيينـه مـن الآسـتانة مباشـرة ولادخـل للباشـا ـ﴾ تعيينـه، وقـد عُـد الـدفتردار ـ﴾ فـترة التنظيمـات العثمانيـة أحـد أركـان الولايـة الأساسـيين، ولأهميتـه كان يعين من مركز الدولة[٦].

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٩٠.
(٢) كوثراني، مرجع سابق، ص ٨٩.
(٣) كوثراني، مرجع سابق، ص ٨٩.
(٤) سالنامة، ولاية سورية /سنة (١٣٠٣، ١٣٠٤هـ-١٨٨٥، ١٨٨٦م)/ ص ٣٩.
(٥) عوض، مرجع سابق، ص ٩٠.
(٦) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٦.

وحسبما ورد في قانون تشكيل الولايات (١٢٨١هـ-١٨٦٤م)، أصبح دفتردار الشام مستقلاً عن الوالي بالأمور المالية وأصبح مسؤولاً أمام نظارة المالية في استانبول مباشرة حيث أصبحت هي مرجعه الأول، وبذلك حُدَّت صلاحيات الوالي المالية في ولاية الشام[١]. وضمت الدائرة التي أشرف عليها الدفتردار أكثر من عشرين موظفًا وكاتبًا وعددًا ضخمًا من الجباة، والذين كانت مهمتهم جمع الضرائب باسمه، وكانوا ملزمين بتنفيذ أوامره وتعليماته، وفي حال حدوث بعض المشكلات خلال جمع الضرائب والإيرادات تحال إلى الدفتردار ليقوم بحلها وإصدار الأحكام المناسبة[٢].

"وأما نظام إدارة الولايات العمومية الصادر سنة (١٢٨٨هـ-١٨٧١م)، فقد ورد فيه أن اختصاصات الدفتردار هي: إجراء الأحكام التي يعينها نظام مالية الولاية، والإشراف على جميع موظفي الولاية فيما يتعلق بالأمور والأنظمة المالية، وإخبار الوالي بالمخالفات المالية وبيان طريقة إصلاحها، وإبداء الرأي والملاحظة فيما يتعلق بتعيين المحاسبين ومديري المال وعزلهم"[٣].

وقد قلت أهمية الدفتردار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وذلك بسبب انتشار الفساد المالي والرشاوى، وتستر أصحاب هذا المنصب عن الكثير من المخالفات المالية في الولاية، وكان الكثير منهم يحتاج إلى توصية من قبل الوالي من أجل الاستمرار في عمله أو منحه زيادة في الراتب أو وساماً من قبل الدولة[٤].

وهذا يدلنا على مدى الفساد الذي وصل إليه الوضع المالي في الولاية في تلك المرحلة فأصبحت المحسوبيات والرشاوى والوسائط هي السبيل الوحيد للحفاظ على هذا المنصب أو غيره أو الحصول على إحدى هذه الوظائف في الولاية.

ج- المكتوبجي:

ورد في الدستور العثماني مايلي: "وأمور تحريرات الولاية عمومًا تحال إلى مأمور

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٩٠.
(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٧.
(٣) عوض، مرجع سابق، ص ٩١.
(٤) عوض، مرجع سابق، ص ٩١.

منصوب من طرف الدولة بعنوان مكتوبجي الولاية، يوجد بمعيته قلم تحريرات.."[1].

يمكن القول إن المكتوبجي هو بمثابة رئيس الديوان في الولاية، حيث كان يشرف على أمور التحريرات والمكاتبات والسجلات التي في دوائر الولاية وكان مسؤولاً عن الحفاظ عليها، وكذلك كان المكتوبجي يشرف على مطبعة الولاية وإصداراتها، ومراقبة الصحف، وكانت من أهم الإصدارات الحولية السنوية المعروفة باسم "السالنامة"[★] السنوية لولاية سورية[2].

واعتبر المكتوبجي في فترة التنظيمات العثمانية أحد أركان الولاية البارزين، وكان عضوًا دائمًا في مجلس إدارة الولاية، وكان يعين من قبل الحكومة المركزية في الآستانة، وبذلك يكون المكتوبجي من كبار الموظفين في إدارة الولاية[3].

وعندما صدر قانون نظام إدارة الولايات العمومية سنة (١٢٨٨هـ-١٨٧١م)، قام بتوسيع صلاحيات المكتوبجي، حيث أصبح تحت إمرته عدد كبير من الموظفين موزعين على قلم التحريرات وقلم أوراق الولاية وإدارة مطبعة الولاية، حيث بلغ عدد المسودين حوالي (١٠) والمبيضين حوالي (٢٠)[4]، وأصبح مسؤولاً أيضًا على نشر أوامر وتعليمات الحكومة الصادرة في جرائد الولاية، كما كان عليه مراقبة المسودات التي يتم تحريرها من قبل معاون تحريرات الولاية[5].

وبالتالي يمكن القول إنه حسب النظام الجديد أصبح هناك دائراتان تتبعان للمكتوبجي؛ هما: قلم المكتوبجي، وقلم الأوراق، مهمة الأولى: كتابة المراسلات

---

(١) كوثراني، مرجع سابق، ص ٨٩.

(★) السالنامة *Salnams*: من حيث اللغة هي كلمة فارسية الأصل، وتعني الأوراق أو الكتاب، وبذلك تعني الأوراق السنوية (الكتاب السنوي)، ومن حيث الاصطلاح فتعني "حولية سنوية" كانت تصدر عن الدولة العثمانية وولايا ا وتشمل أخبار التعيينات والتنقلات بين الموظفين، ومعلومات اقتصادية خاصة بالإنتاج الزراعي والتجاري. أحمد صدقي شقيرات، تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن (١٨٦٤-١٩١٨)، ط١، الأردن، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ١٤-١٥.

(٢) عوض، مرجع سابق، ص ٩١.

(٣) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٧.

(٤) سالنامة، ولاية سورية، مصدر سابق، ص ٤٩.

(٥) عوض، مرجع سابق، ص ٩١.

بين الولاية والآستانة، أو بين الوالي والدوائر التابعة للولاية، ويوقع عليها المكتوبجي بدلاً من الوالي، ويترأس هذا القلم المكتوبجي، ويساعده (معاون المكتوبجي) وستة مسودين وأحد عشر مبيضًا[١]. وأما مهمة الدائرة الثانية فهي: حفظ السجلات والمراسلات التي تجري بين الولاية والجهات الأخرى، ولها مدير ومعاون وستة كتاب[٢]، وممن تولوا هذا المنصب في ولاية سورية، (خليل أفندي الخوري) صاحب أول جريدة عربية في بلاد الشام "حديقة الأخبار"، وذلك سنة ١٨٧٧م[٣].

د- القاضي:

حرصت الدولة العثمانية منذ بداية استيلائها على الإمارات الجديدة على أن تقوم بتعيين قاضٍ في هذه الأماكن الجديدة، وذلك بغية الفصل في الخلافات بين الناس، وفض المنازعات وتحقيق العدل والاستقرار في هذه الأماكن، فكان ذلك تقليدًا رسميًا اتسمت به الدولة لدى دخولها لأي أرض جديدة وذلك بالقيام بتعيين قاضٍ وصوباشي[★] فيها"[٤].

حتى أن السلطان محمد الفاتح اهتم برجال القضاء بشكل خاص، واشترط فيهم العلم والإحاطة بالعلوم الشرعية والفقه والتضلع فيهما، والنَّزاهة والاستقامة وأن تكون سمعتهم طيبة بين الناس، وأن يكونوا مكتفين ماديًا حتى لا يتعرض القاضي لإغراء الرشوة والمحسوبيات[٥]، واشترط الدستور العثماني الصادر سنة (١٧٩٣هـ-١٨٧٦م) علمًا أنه لا يجوز لقاضٍ أن يجمع بين مأمورته القضائية ومأمورية أخرى ذات معاش في الحكومة حتى يحدث التفرغ الكامل لوظيفته الأساسية في

(١) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٩.
(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٣٩.
(٣) عوض، مرجع سابق، ص ٩٢.
(★) صوباشي: وهو رئيس فرقة السباهية وهي فرقة من الفرسان في العسكرية العثمانية، ويطلق المصطلح أيضا على القائم بأعمال البلدية في الأقضية والبلدات. سهيل، صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد، الرياض، (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).
(٤) أوغلي، مرجع سابق، ص ٢٩٤.
(٥) بركات، الألقاب والوظائف العثمانية، ص ١٣٤.

القضاء[1].

وانتسب القضاة في الدولة العثمانية إلى الهيئة الإسلامية في الدولة[2]، والتي يمكن أن نقول عنها اصطلاحًا أنها شكلت الطبقة العلمية في الدولة والتي ضمت رجال الدين (الشريعة والفقه) والحقوق[3]، والذين من ضمنهم القضاة.

ولقد أشرف شيخ الإسلام عسكر الروملي وقاضي عسكر الأناضول على الجهاز القضائي العثماني، فقاضي الروملي يعين قضاة ولايات الدولة الأوربية، وقاضي الأناضول يعين قضاة ولاية آسية ومصر[4]. واندرج القضاة في الدولة العثمانية تحت درجات وفئات شتى أكبرهم قاضي القضاة. أو رئيس القضاة أو قاضي عسكر، ثم المولا[5] الكبير (أو مولابيوك)، والمولا الصغير (مولاكوجوك) ثم المفتش، يليه القاضي ثم أخيرًا النائب.

وكان قاضي الشام من فئة قضاة مولا الكبير[6]، ويتم تعيينهم بموجب فرمان يصدر من الآستانة من قبل شيخ الإسلام بموافقة الصدر الأعظم، وحتى ترقياتهم وتنقلاتهم كانت لا بد أن تأتي بموجب فرمان رسمي من الآستانة مباشرة[7]، واعتبر قاضي دمشق من أهم أعضاء أركان الولاية، ومن الأعضاء الدائمين في مجلس إدارة الولاية، ولُقب بالنائب (نائب شيخ الإسلام في الآستانة)[8]. ولقب أيضًا بقاضي قضاة الولاية، واشترط فيه أن يكون على المذهب الحنفي الذي هو مذهب الدولة العثمانية

---

(١) الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية معهد الدراسات العالية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧، المادة (٨٨)، ص ١٦٨.

(٢) الشناوي، مرجع سابق، ص ٤٢١.

(٣) محمود، عامر، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، منشورات دار الصفدي، ط١، دمشق، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ص ٤٠.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١١١.

(٥) المولا (*Molla*): تحريف للكلمة العربية مولى – والتي تعني السيد أو رئيس أو زعيم أو قيم. الشناوي، مرجع سابق، ص ٤٢٣.

(٦) الشناوي، مرجع سابق، ص ٤٢٨.

(٧) الشناوي، مرجع سابق، ص ٤٢٨.

(٨) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٠.

وأن يحكم فيه في المنازعات والقضايا، وساعده في القضاء أربعة قضاة آخرين على المذاهب الأربعة الأخرى، واعتبروا بمثابة نواب عنه في حال الغياب. وكان مدة تعيين قاضي ولاية الشام لمدة سنة واحدة فقط، وتبع له مجموعة من الموظفين الذين يعملون تحت إمرته[١]. وكان معظم القضاة العامين في دمشق من أصول رومية، بينما كان النواب دمشقيين[٢].

أما عن الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لقاضي الشام أو من برتبة (فئة (مولا الكبير)، فقد كان يحق لهذا القاضي ارتداء عباءة من فرو السمور في الاحتفالات الرسمية وذلك بهدف التشريف والتكريم فهذه العباءة كان يرتديها الباشاوات وحكام الولايات وكبار موظفي السلطنة، وكان يقدم هذا الرداء في حفل رسمي للقاضي يحضره كبار موظفي الدولة المدنيين والعسكريين، ويتولى رئيس الحفل إلباس هذا الرداء للقاضي، ويعقد هذا الحفل إما في الآستانة أو في دمشق عاصمة ولاية الشام[٣].

كما يتبع له عدد من الرجال يذهبون معه أينما حل وذهب سمي الواحد منهم المحضر. وتكتب في التركية المحذر ويرأسهم المحذر باشي. وكان قاضي الشام يدعى إلى الآستانة لحضور الاحتفالات الخاصة باعتلاء سلطان جديد للعرش العثماني وأيضًا احتفالات العيدين الكبير والصغير في الآستانة[٤].

"وتمتع قاضي دمشق في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر بنفوذ كبير"[٥] في الولاية فلقد شملت صلاحياته العديد من الأمور منها:

١- الإشراف على عمل دفتردار الولاية ومراقبة حساباته وسجلاته والموافقة عليها[٦].

---

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٥.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٦.

(٣) الشناوي، مرجع سابق، ص ٤٣٠.

(٤) الشناوي، مرجع سابق، ص ٤٣٠-٤٣١.

(٥) عوض، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٦) عوض، مرجع سابق، ص ١١٣.

٢- الإشراف العام على سير العدالة في الولاية ومراقبة الجهاز الإداري فيها[١].

٣- النظر في الدعاوى المالية والقضائية في محاكم الولاية ودعاوى الجنايات والوقف والتركات والزواج والطلاق والنفقة[٢].

٤- مراقبة الأسعار ومكافحة احتكار المواد الغذائية من قبل التجار[٣].

٥- تعيين أساتذة المدارس وموظفي أوقاف الولاية ورجال الإفتاء[٤].

٦- مراقبة الأخلاق العامة ومكافحة الرذيلة في الولاية[٥].

٧- مراقبة أعمال بيع العقارات والأراضي وتسجيلها[٦].

مع بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نقصت صلاحيات القاضي في الولاية، وسُحبت منه أمور الإشراف على بعض أمور الولاية، وأُعطيت لموظفين مدنيين فيها، منها مراقبة الأسعار والأوزان والمتلاعبين بالمواد الغذائية، فأعطيت هذه الوظيفة إلى مفتش الضابطة في الولاية، وأشرف الدفتردار على الأمور المالية فيها، وأصبح الوالي مسؤولاً عن إشراف أعمال الدفتردار وموظفي المالية بموجب نظام إدارة الولايات العمومية (١٢٨٧هـ-١٨٧١م)[٧]، وحتى أمر تشكيل المحاكم النظامية الجديدة في الولاية، حيث أصبحت هذه المحاكم مسؤولة عن النظر في القضايا الجنائية والحقوقية، فانحصرت مسؤولية القاضي فيما يتعلق بالمحاكم الشرعية التي اقتصرت مهمتها في الإشراف على القضايا المتعلقة بالأوقاف والتركات والأحوال الشخصية[٨].

---

(١) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٣) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٤) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٥) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٠.

(٦) الضللي، رامي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في متصرفية دير الزور في الفترة ما بين /(١٢٩٣هـ-١٨٧٦م) – (١٣٢٧هـ-١٩٠٩م)/، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير، إشراف: د.محمود عامر، جامعة دمشق، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ٦٩.

(٧) عوض، مرجع سابق، ص ١١٣.

(٨) عوض، مرجع سابق، ص ١١٣.

ولكن على الرغم من كل ذلك فقد تمتع قاضي دمشق بقدر وافر من الاحترام والتقدير ولُقب من قبل السلطان بـ"أقضى قضاة المسلمين أولى ولاة الموحدين ومعدن الفضل والتعيين رافع أعلام الشريعة والدين وارث علوم الأنبياء والمرسلين....."[١].

أما بالنسبة لرواتب القضاة فكانوا يحصلون عليها من مصدرين الرسوم القضائية، والغرامات المفروضة على القضايا التي يحكمون بها، والمصدران يدران إيرادًا كبيرًا لهم، فكانوا يأخذون جزءًا من الرسوم المقررة على التركات وتقسيمها والمبايعات وعلى الأوراق الرسمية التي تصدر عن المحاكم وهي ما يعرف بالحجج الشرعية[٢]، وكانت تسجل في كل حجة التصرفات العقارية، ورسوم الزواج المقررة على زواج البنت البكر وزواج الثيب، حيث بلغ رسم زواج الفتاة البكر (٣٢) أسبرًا[٣] ***Asper*** أو أقجة وهي عملة فضية عثمانية، بينما بلغ رسم زواج الثيب (١٥) أسبرًا[٤].

وبشكل عام كان مسموحًا للقاضي أن يأخذ ما مقداره ٢,٥٪ من قيمة الدعاوى والأمور التي يفصل بها، وهذا المبلغ كان يدفعه المتقاضون على أنه رسم تكاليف المحكمة، وهذه التكاليف كان يدفعها في الغالب من كان يكسب القضية من الطرفين المتخاصمين[٥].

ولكن في كثير من الأحيان عمل قضاة دمشق على تأمين موارد أخرى لأجورهم ولزيادة إيراداتهم، وذلك من خلال قيامهم ببيع المناصب التابعة لهم مقابل مبلغ من المال. كما عملوا على الحصول على نسبة من تركات الموتى في الولاية[٦]، فعندما

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ١١٣. كوثراني، مرجع سابق، ص ٩٠.

(٢) الشناوي، مرجع سابق، ص ٤٢٢.

(٣) الأسبر والأقجة: هي المحرفة من أسبرو الرومية، والأقجة لغة الضارب أو الضاربة إلى البياض، وأصلها مغولية معناها نقد أبيض وهي قطعة صغيرة من الفضة ضربت لأول مرة سنة (٧٢٩هـ-١٣٢٨م) في عهد السلطان أورخان، وكل ثلاث أقجات تساوي بارة واحدة وكل ٤٠ بارة تساوي قرشا واحدا وكل ١٠٠ قرش تساوي ليرة عثمانية ذهبية، فالأقجة جزء من مئة وعشرين ألف جزء من الليرة العثمانية. صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مرجع سابق، ص ١٥، ٢٠، ٢١.

(٤) الشناوي، مرجع سابق، ص ٤٢٢.

(٥) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٤٢.

(٦) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٤٢.

يموت أحد الأعيان، يقوم القاضي بتنصيب نفسه وصيًا عامًا على تركته، وبذلك يضطر الورثة إلى التفاهم مع القاضي بمنحه نسبة معينة من التركة[1].

كما منحتهم الدولة العثمانية إقطاعات في دمشق، وحصل بعضهم على منح مالية من الحكومة، والبعض الآخر حُددت له رواتب تقاعدية[2].

ولكن كل هذه المداخيل المادية للقضاة، لم تمنع بعضهم من تلقي الرشاوى من المتخاصمين والانحياز لطرف دون الآخر مقابل رشوة يدفعها أحد الطرفين[3].

فقد تفشت الرشوة بين القضاة بشكل كبير في تلك المرحلة وربما كان من أهم أسبابها هو المبلغ الكبير الذي كان يدفعه هؤلاء من أجل الحصول على هذا المنصب في الآستانة. فليس الأكثر كفاءة هو الذي يحوز على هذا المنصب بل الأكثر دفعًا، والسبب الآخر هو الجشع الذي اتصف به بعض هؤلاء القضاة، أو بسبب الظروف المادية السيئة التي كان يعيشها البعض الآخر[4].

وبهذا فَقَدَ القضاة مصداقيتهم ونزاهتهم في الحكم فلم يعد للناس ثقة بهم أو بعدلهم، فكثير منهم كان يخرج متخفيًا من المدينة عند انتهاء فترته وذلك خوفًا من الأذى الذي قد يلحق به من قبل الأهالي، وخاصة من الذين تعرضوا للظلم على يديه[5].

وبذلك فشلت الدولة العثمانية في القرنين الأخيرين من حياتها في الحفاظ على نزاهة هذا المنصب ونقائه، والذي حرصت في بداية قيامها على أن يكون خاليًا من المحسوبيات والرشاوى وأن يقوم فيه الأجدر والأفضل والأكثر كفاءة، ومع انهيار النظام القضائي في الدولة وفساده، تكون الدولة كلها آيلة للسقوط، لأن العدل في أي حكم هو الأساس وهو الفيصل لقيام أو انهيار أي نظام في العالم عبر التاريخ.

---

(١) الضللي، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٤٢.

(٣) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٤٢.

(٤) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٤٢.

(٥) أحمد، مرجع سابق، ص ٤١.

كيفية إجراء المحاكمات في الولاية:

اتصف القضاء العثماني باستقلالية القاضي في إصدار أحكامه[1]، فكان ينظر بالدعاوى منفردًا دون وجود محامين حيث يستمع إلى الشهود، ويحاورهم منفردًا، واتسمت أحكامهم بالسرعة، فكانت تصدر في جلسة واحدة[2]، وكانت تجري جميع أنواع المحاكمات بشكل علني [(★)(3)]. أما مكان الفصل في القضايا فكان إما في المحكمة أو في بيت القاضي، وكانت هذه المحاكم على نوعين: محاكم شرعية، ومحاكم نظامية[(★)(4)]. وهي محاكم خاصة بالأحكام العاجلة والاستئناف تألفت من قضاة مسيحيين ويهود ومسلمين، كما أنشئت محاكم مختلطة ضمت أعدادًا متساوية من القضاة الأجانب والمحليين لتحكم في القضايا الجنائية والتجارية القائمة بين أجانب ورعايا الدولة العثمانية[5].

وقد نشأت المحاكم الشرعية مع قيام كيان الدولة العثمانية، وكان أساس قوانينها الشرع الإسلامي، باعتبار أن السمة التي اتسمت بها الدولة هي السمة أو الصفة الإسلامية، واشترط في القاضي أن يكون على المذهب الحنفي الذي هو

---

(١) أوغلي، مرجع سابق، ص ٤٥٩.

(٢) عوض، مرجع سابق، ص ١١١-١١٢.

(٣) الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، معهد الدراسات العربية العالية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧، ص ١٦٧.

(★) ورد في القانون الأساسي للدولة العثمانية بما يخص المحاكم مايلي: المادة (٨٢): إن جميع أنواع المحاكمات تجري في المحاكم علنا والإعلامات التي تصدر منها مأذون بنشرها غير أنه تجري المحاكمة سرا في الظروف المعنية بالقانون، المادة (٨٣) يحق لكل أحد أن يستخدم لدى المحاكمة جميع الوسائل القانونية للدفاع عن حقوقه. الحصري، مرجع سابق، ص ١٦٧.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١٢.

(★) المادة (٨٧) من القانون الأساسي ورد فيها: إن الدعاوى الشرعية ترى في المحاكم الشرعية والدعاوى النظامية ترى في المحاكم النظامية. الحصري، مرجع سابق، ص ١٦٨.

(٥) خوري، فيليب، أعيان المدن والقومية العربية (سياسة دمشق ١٨٦٠-١٩٢٠م)، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، ص ٥٥.

مذهب الدولة العثمانية وأن يقضي فيه[1]. وخول ا لقاضي في هذه المحاكم أن ينظر في القضايا الحقوقية والجزائية كما أسلفنا وتأتي في مقدمتها جرائم الإخلال بحقوق الناس كالقصاص والديات، وقضايا الإخلال بحقوق العامة[2].

"ولم تكن المحاكم الشرعية وقفًا على المسلمين فقط، بل كان المسيحيون يجرون مبايعاتهم فيها"[*][3].

أما المحاكم النظامية: فكانت نتيجة الإصلاحات التي سعى السلاطين العثمانيين إلى إحداثها في نظام الدولة والإدارة، فكانت بدايتها في عهد السلطان عبد المجيد (١٢٥٥هـ-١٨٣٩م)-(١٢٧٨هـ-١٨٦١م)، حيث أصدر خطين هيمانونيين بتاريخ ١٧ رجب (١٢٧١هـ-١٨٥٥م)، نص الأول على تنظيم توجيهات مناصب القضاة. والثاني على تنظيم تعيين نوابهم[4]، وفي عهد السلطان عبد العزيز (١٢٧٨هـ-١٨٦١م) – (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م)، صدر ما سمي بمجلة الأحكام العدلية والتي استمر العمل بها مدة سبع سنوات، كان الهدف منها تنظيم القضاء العثماني وجمعه في هذه المجلة، التي بلغت أعدادها ستة عشر كتاباً حوت (١٨٥١) مادة، وتضمنت الأحكام والقوانين الشرعية والعدلية القائمة على أساس فقهي وعلمي، ترأس مجموعة من العلماء والفقهاء عملية إصدارها أشهرهم جودت باشا ناظر ديوان الأحكام العدلية في تلك الفترة[5].

لقد جاءت هذه المحاكم نتيجة للحركة الإصلاحية التي حدثت في كيان الدولة نتيجة للتأثير الغربي فصدر في اللائحة التنظيمية للولايات أو ما عرف بنظام

---

(١) أوغلي، مرجع سابق، ص ٤٥٨-٤٥٩. نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٥. عوض، مرجع سابق، ص ١١٤.

(٢) أوغلي، مرجع سابق، ص ٤٦٠.

(*) تبين سجلات المحاكم الشرعية أن أبناء الطوائف الأخرى من غير المسلمين، كانوا يلجؤون إلى المحاكم الشرعية الإسلامية في شؤو م، ما لم تكن القضية شأنا داخليا خاصا ذه الطائفة أو تلك. بل وقد تسجل القرارات حتى في هذه الأحوال في سجلات المحكمة الشرعية لتزيد من مصداقيتها. شيلستر، دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ص ١٤٥.

(٣) عوض، مرجع سابق، ص ١١٥.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١٢٠.

(٥) عوض، مرجع سابق، ص ١٢٨، ١٢٩.

تشكيل الولايات الصادر في (١٢٨١هـ-١٨٦٤م) والذي نص فيه مرسوم بإحداث المحاكم الحقوقية والجنائية والتي عرفت باسم المحاكم النظامية في أقضية وسناجق السلطنة[١]. وبهذا تم الفصل ما بين المحاكم الشرعية والمحاكم النظامية وخصص لكل منها وظائفها، وصدر النظام الخاص بالمحاكم النظامية في سنة (١٢٨٨هـ-١٨٧٢م)، حيث نص على ثماني عشرة مادة ومقدمة وضح فيها اختصاصات هذه المحاكم واختصاصات مجالسها ودواوينها، وقسمت بموجبه المحاكم في الدولة إلى نوعين ابتدائية واستئنافية[٢]. وبموجب هذه القوانين أحدثت في دمشق هذه المحاكم والتي كانت في سنة (١٣٠٣هـ-١٨٨٥م) على الشكل التالي:

١- دائرة محكمة الاستئناف الحقوقية ودائرة محكمة الاستئناف الجزائية.

٢- مجلس العدلية الذي يترأسه رئيس مفتشي العدلية، النائب وهو رئيس محكمة الاستئناف، وستة أعضاء آخرين (الرئيس الثاني لمحكمة الاستئناف، ومدعي عام الولاية، ورئيس محكمة البداية، والرئيس الثاني لمحكمة البداية، ومعاون مدعي عام الولاية، ورئيس محكمة التجارة) وكاتب المجلس.

٣- دائرة هيئة الاتهام وتتألف من رئيس وعضوين.

٤- قلم محكمة الاستئناف، ويتألف من باشكاتب، وكاتب الحقوق وكاتب الجزاء[٣].

ولقد عملت الدولة في بداية تأسيس هذه المحاكم على مراقبتها ومراقبة العاملين عليها بشكل دقيق، وقامت في كثير من الأحيان بعزل الفاسدين منهم والذين كثرت الشكاوى عليهم من قبل أهالي دمشق، ولكنه رغم ذلك فقد انتشر الفساد والرشوة داخل هذا النظام رغم كل هذه الإجراءات، وربما يعود ذلك إلى الأسباب التي أسلفنا ذكرها عن أسباب فساد نظام القضاء بشكل عام في الدولة العثمانية وفي ولاية سورية بشكل خاص. ولم يحل آخر القرن العشرين حتى كان الفساد والرشوة وشراء المناصب

---

(١) أوغلي، مرجع سابق، ص ٥١٤.

(٢) عوض، مرجع سابق، ص ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤.

(٣) عوض، مرجع سابق، ص ١٣٦، ١٣٧.

الإدارية والقضائية في الولاية هي السمة الأساسية لهذه الفترة[١].

بلغت عدد القضايا التي نظرت بها المحاكم النظامية في ولاية سورية سنة (١٢٩٩هـ-١٨٨٢م) (٦٢٠) قضية حقوقية، و(١٦٤١) قضية جزائية[٢].

أما أشهر محاكم مدينة دمشق، المحكمة الكبرى مقرها المدرسة الجوزية في سوق البزورية[٣] (أو محكمة البزورية نسبة إلى مكان وجودها). وكانت مقرًا لقاضي قضاة الولاية، ومحكمة الميدان (في حي الميدان)، ومحكمة السنانية (قرب جامع سنان باشا)، والمحكمة العونية (أو محكمة العمارة في محلة العمارة، بالقرب من جامع الجوزة في محلة العمارة البرانية القزازين)، ومحكمة الصالحية (في صالحية دمشق)[٤]، ومحكمة الباب الواقعة قبالة المدرسة النورية وهي المقر الرئيسي لقاضي الحنفية، وكان يرأس هذه المحاكم نائب وقاض[٥].

قضاة دمشق في تلك المرحلة:

أشهر قضاة دمشق في تلك الفترة وكان معظمهم من الأروام الأحناف والذين عينوا من قبل السلطة المركزية في الآستانة[٦]، منهم:

- القاضي الحاج حافظ علي رضا (١٢٩٢هـ-١٨٧٥م)، وبقي فيه حتى (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م)[٧].
- القاضي عبد الله الخيري (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م)، حتى (١٢٩٤هـ-١٨٧٧م)[٨].
- القاضي عبد الله صبري (١٢٩٤هـ-١٨٧٧م) (١٢٩٥هـ-١٨٧٨م)[٩]. وذكرت وثائق

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٢) عوض، مرجع سابق، ص ١٣٨.

(٣) شيلستر، مرجع سابق، ص ١٤٦.

(٤) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٦-٤٣٧.

(٥) شيلستر، مرجع سابق، ص ١٤٥، ١٤٦.

(٦) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٩.

(٧) الحكيم، الأوامر السلطانية لولاية دمشق في تعيين القضاة والولاة والموظفين، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٢، وثيقة رقم ٢٤٦، وثيقة رقم ٢٥٤، وثيقة رقم ٢٦٢، وثيقة رقم ٢٦٤، ص ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.

(٨) الحكيم، مرجع سابق، وثيقة رقم ٢٦٩، ص ١٤٨.

(٩) الحكيم، مرجع سابق، وثيقة رقم ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٢....، ٣٦٣، ص ١٥١-١٦٧.

سجلات المحاكم الشرعية في دمشق استمراره في منصبه حتى سنة (١٢٩٦هـ-١٨٧٩م)[١].

- القاضي موسى كاظم مابين سنة (١٢٩٧هـ-١٨٧٩م) (١٢٩٨هـ-١٨٨٠م)[٢]. وذكرت الوثائق اسمه كقاضٍ للمدينة حتى سنة (١٢٩٩هـ-١٨٨١م)[٣].
- القاضي محمد أسعد سنة (١٣٠٠هـ-١٨٨٢م) حتى (١٣٠١هـ-١٨٨٣م)[٤].
- القاضي عبد الله مصطفى حقي: سنة (١٣٠١هـ-١٨٨٣م) حتى (١٣٠٢هـ-١٨٨٤م)[٥].
- القاضي أحمد أسعد العرياني: سنة (١٣٠٢هـ-١٨٨٤م)[٦].
- القاضي محمد أسعد من سنة (١٣٠٢هـ-١٨٨٤م) إلى سنة (١٣٠٣هـ-١٨٨٥م)[٧].
- القاضي السيد حسين نوري خواجه من سنة (١٣٠٤هـ-١٨٨٦م) إلى سنة (١٣٠٥هـ-١٨٨٧م)[٨].
- القاضي محمد توفيق حسن من سنة (١٣٠٥هـ-١٨٨٧م) وسنة (١٣٠٦هـ-١٨٨٨م) وسنة (١٣٠٧هـ-١٨٨٩م)[٩].
- القاضي عمر فتحي سنة (١٣٠٧هـ-١٨٨٩م)[١٠].
- القاضي عمر بهجت من نهاية سنة (١٣٠٧هـ-١٨٨٩م) حتى سنة (١٣٠٩هـ-١٨٩١م)[١١].
- القاضي السيد إبراهيم برهان، من سنة (١٣٠٩هـ-١٨٩١م) (١٣١٠هـ-١٨٩٢م)[١٢].
- القاضي أحمد خلوصي، من سنة (١٣١١هـ-١٨٩٣م) وسنة (١٣١٢هـ-١٨٩٤م)

---

(١) الحكيم، دعد، وثيقة رقم ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٨٥، ٣٩٤، ص ١٦٩-١٨٦.
(٢) الحكيم، وثيقة رقم ٤٣، ٤٤، ٤٥.... حتى ٥٥، ص ٢٥٦-٢٧٨.
(٣) الحكيم، وثيقة رقم ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٩ حتى ١٠٦، ص ٢٧٩-٢٨٣.
(٤) الحكيم، وثيقة رقم ٢٦، ٢٧، ص ١٨٩-١٩٦.
(٥) الحكيم، وثيقة رقم ١٥٤، ١٥٥، ١٦٦، ص ٢٨٩-٢٩١.
(٦) الحكيم، وثيقة رقم ٥٤/ب، ص ١٩٧.
(٧) الحكيم، وثيقة رقم ٨١، ومجموعة وثائق أخرى، ص ٢٠٥-٢١٩.
(٨) الحكيم، وثيقة رقم ١٧١، ١٧٥، ١٨٠، ص ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢.
(٩) الحكيم، وثيقة رقم ١٢٨، ٢٢٤، ٢٥٣، ص ٢٢٤-٢٣١.
(١٠) الحكيم، وثيقة رقم ٢٥٤، ص ٢٣٢.
(١١) الحكيم، وثيقة رقم ٢٥٧، وثيقة رقم ٣٠٨، ٣٠٩، ص ٢٣٢-٢٣٩.
(١٢) الحكيم، وثيقة رقم ١١، ١٢، ١٣ حتى الوثيقة رقم ٣٨، ص ٢٩٨-٣٠٤.

وسنة (١٣١٣هـ-١٨٩٥م)[١].

- القاضي محمد مكي سروري، من سنة (١٣١٣هـ-١٨٩٥م) وسنة (١٣١٤هـ-١٨٩٦م) سنة (١٣١٥هـ-١٨٩٧م) وسنة ١٣١٦هـ-١٨٩٨م)[٢].
- القاضي حمد الله رأفت سنة (١٣١٦هـ-١٨٩٨م)[٣].
- القاضي السيد محمد علي عصمت من سنة (١٣١٦هـ-١٨٩٨م) وسنة (١٣١٧هـ-١٨٩٩م) وسنة (١٣١٨هـ-١٩٠٠م) وسنة (١٣١٩هـ-١٩٠١م)[٤].
- القاضي السيد عبد الرحمن (هكذا ذكر في الوثائق دون لقب) من سنة (١٣٢٠هـ-١٩٠٢م) وسنة (١٣٢١هـ-١٩٠٣م) وسنة (١٣٢٢هـ-١٩٠٤م) وسنة (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م)[٥].
- القاضي السيد محمد علي عصمت سنة (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م)، وسنة (١٣٢٤هـ-١٩٠٦م) وسنة (١٣٢٥هـ-١٩٠٧م) وسنة (١٣٢٦هـ-١٩٠٨م)[٦].
- القاضي السيد مصطفى فائق محمد رفعت سنة (١٣٢٦هـ-١٩٠٨م)، وسنة (١٣٢٧هـ-١٩٠٩م)[٧].
- القاضي السيد خورشيد (ورد الاسم دون اللقب) سنة (١٣٢٨هـ-١٩١٠م)[٨].

ويلاحظ أن معظم هؤلاء القضاة كان فترة استلامهم للمنصب مدة سنة أو أكثر وربما يعود القاضي لاستلام هذا المنصب مرة ثانية في حالة نادرة كما حدث بالنسبة للقاضي محمد مكي سروري.

ويأتي في المرتبة الثانية في الأهمية بعد منصب القاضي، منصب نائب القاضي فإذا كان المنصب الأول قد انحصر في الذين كانوا من أصول رومية كما أسلفنا

(١) الحكيم، وثيقة رقم ٤٥، ٤٧، ٤٦، ٥١، ٥٣، ص ٣٠٨-٣١٣.
(٢) الحكيم، وثيقة رقم ٥٨، ٥٩، ٧٣، ٧٥، ٩٧، ٩٦، ٩٥، ٩٣، ٩٢، ٨٨، ص ٣١٤-٣٢٩.
(٣) الحكيم، وثيقة رقم ١٠١، ص ٣٣٢-٣٣٣.
(٤) الحكيم، وثيقة رقم ١٠٥، ١١٧، ١٢٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨ وثيقة رقم ١٤٣ إلى ١٤٦، ص ٣٣٤-٣٥١.
(٥) الحكيم، وثيقة رقم ١٥٦، ١٦٢، ١٦٩، ١٧٠ حتى الوثيقة ٢١٢، ٢١٣، ص ٣٥٧-٣٧٤.
(٦) الحكيم، وثيقة رقم ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٦٢، ٢٦٣، ص ٣٧٨-٣٨٨.
(٧) الحكيم، وثيقة رقم ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٢، ص ٣٨٩-٣٩١.
(٨) الحكيم، وثيقة رقم ٢٨٦، ص ٣٩٦.

والذين لم تكن لهم الخلفية الاجتماعية الهامة التي تدعمهم وتقوي من شأنهم وذلك بسبب أصولهم الأجنبية، فإن منصب نائب القاضي والذي كان أصحابه من أصول دمشقية، وينتمون إلى أسر دمشقية عريقة، قد أمدهم بنفوذ كبير في المدينة، ولذلك بقي الكثير منهم في مناصبهم لفترات طويلة، وخاصة إذا تمتع صاحب هذا المنصب بانتمائه إلى أسرة دينية عريقة[١].

ومن أهم الأسر الدمشقية التي استلم أبناؤها منصب نائب قاضي القضاة في محاكم دمشق على اختلافها هي: أسرة الخلوصي، الوفائي، المالكي، الكيلاني، العمري، البرقاوي، القاري، السمان، العجلاني، الغزي، الصديقي، البكري، حمزة، السرميني، حسيب، والعطار[٢]، والعابد (منهم أحمد عزت العابد الذي عمل في الإدارة القضائية المحلية في الولاية ثم انتقل إلى أن أصبح قاضيًا في المحكمة التجارية المختلطة، وبذلك لفت انتباه السلطان عبد الحميد الثاني، الذي قام بالتالي بجعله سكرتيرًا ثانيًا له وأمينًا لسره، وأصبح من المقربين لديه في تلك الفترة)[٣].

وأسرة مردم بك[٤]. ولم يحرم أبناء الأقليات الدينية (من مسيحية ويهود) من العمل كموظفين في محاكم دمشق المختلفة فكان منهم القضاة في المحكمة التجارية[٥]، ومحكمة الاستئناف ومحكمة الأمور المستعجلة في

(١) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٣٦.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

(٣) خوري، فيليب، أعيان المدن والقومية العربية (سياسة دمشق، ١٨٦٠م-١٩٢٠)، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ص ٧٠.

(٤) حيث عمل كل من الأخوين علي (٨١٣-١٨٨٧م) وعثمان (١٨١٩-١٨٩٦م)، كعضوين في المحكمة الشرعية والتجارية في دمشق واستطاع أن يصل إلى مرتبة قاضي في المحكمة التجارية في دمشق في أواخر السبعينات من ذلك القرن. خوري، أعيان المدن والقومية العربية، ص ٧٤.

(٥) المحاكم التجارية: صدر نظام المحاكم التجارية في ١٠ ربيع الآخر ١٢٨٧هـ/١٨٧١م ضم (١٤٠) مادة، صيغت في عشرة فصول، شملت نواحي الاستدعاءات التي تقدم لمحاكم التجارة، قوانين المحاكمة فيها، وكيفية حضور الطرفين، وشروط الحكم الغائب وكيفية صدور الأحكام وشروط الاستئناف وإعادة المحاكمة. عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية، ص ١٣٤، ١٣٥.

دمشق[1](*). وعمل أيضًا أبناء الأسر الدمشقية في مختلف الوظائف الخاصة بالقضاء والمحاكم، فكان منهم رؤساء الكتاب في المحاكم والكتاب والتراجمة والمقيدون والمسودون والمحضرون والبوابون ووكلاء المتخاصمين في المحاكم[2]. ولم يكن أمر سيطرة العائلات الدمشقية على هذه الوظائف بالجيد في كثير من الأحيان، فكثيرًا ما عملت المحسوبيات والوساطة دورًا كبيرًا في تغيير مجرى الكثير من القضايا، وهذا من أحد الأسباب التي أدت إلى فساد القضاء والجهاز القضائي في الولاية بالإضافة إلى ما ذكرنا من أسباب سابقة كالرشوة والفساد الخلقي لكثير من القضاة والفساد الإداري والقضائي بشكل عام في الدولة العثمانية.

ثالثًا: مجلس إدارة الولاية:

وهو ديوان الولاية، وأحدثته الدولة في مراكز ولاياتها للحد من سلطات الوالي فيها ومنعه من التفرد في السلطة وإعلان الاستقلال[3]. وضم الديوان كلاً من الباشا (الوالي) والدفتردار والقاضي ونقيب الأشراف وآغا الانكشارية ونقيب التجار (الشهبندر) والمكتوبجي[4] وعددًا من أعيان البلد وعلمائها.

وكان الديوان يجتمع صباح كل يوم جمعة، حيث يتم مناقشة الأمور والقضايا

---

(١) خوري، مرجع سابق، ص ٨١.

* فمثلاً كان جورجي شلهوب قاضيا في محكمة الاستئناف، وكان روفائيل شامية عضوا في محكمة الأمور المستعجلة، وعبد الله شاكوش وروفائيل عكراوي قاضيين في المحكمة التجارية، وإبراهيم عبسي وأسبر سباع قاضيين في محكمة الاستئناف، وسليم شاوي قاضيا في المحكمة التجارية، وعمل في محكمة الاستئناف أربعة قضاة مسيحيين هم: ميخائيل صبيح وسليم شاوي ونعمان أبو شعر وجورجي شلهوب، وفي المحكمة التجارية عمل كل من يحيى لينادو وروفائيل عكراوي، وفي محكمة الأمور المستعجلة ملهم أبو حمد وروفائيل شامية. خوري، مرجع سابق، ص ٨١.

(٢) نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٤٠.

(٣) إسماعيل، حلمي محروس، تاريخ العرب الحديث من العدو العثماني إلى اية الحرب العالمية الأولى، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٧، ص ٣٣.

(٤) سالنامة ولاية سورية، /١٣٠٤هـ-١٨٨٥م/، ص ٤٨.

المتعلقة بالولاية، وتقديم المشورة في الأمور الهامة، مثل فرض الضرائب والنظر في الشؤون المالية والإدارية والقضائية للولاية، وكان يتم إرسال تقرير في نهاية السنة للآستانة حول مجريات أعمال هذا المجلس[١].

"وفي فترة التنظيمات العثمانية تغير الديوان القديم وأصبح مجلسًا للولاية أو مجلس إدارة دون إدخال تغير كبير على عضويته أو صلاحياته"[٢]. وأهم أعضائه هم كبار موظفي الولاية كما أسلفنا، ولكن أضيف إليه عدد من أعيان المدينة الذين كانوا يمثلون مختلف طوائف الشعب حيث أُخذ بعين الاعتبار تمثيل غير المسلمين في هذه المجالس[٣].

وكان الوالي يترأس اجتماعات المجلس، وفي حال غيابه يوكل عنه أحد موظفي الولاية للقيام بمهمة الرئاسة ريثما يعود[٤].

تكون المجلس من الأعضاء الدائمين (القاضي، الدفتردار، المكتوبجي، ومدير الأمور الأجنبية، المفتي، الخوري، الحاخام، ونقيب الأشراف[★])[٥]. وعندما كانت الجلسات تناقش القضايا المتعلقة بأمور الأوقاف والملكية، كان يحضرها كل من مدير الأوقاف ومأمور تسجيل الأملاك في الولاية[٦].

وقد حوى المجلس أيضًا أعضاء منتخبين حددهم الدستور بأربعة أشخاص، اثنين

---

(١) غرايبة، مرجع سابق، ص ٥٧. إسماعيل، مرجع سابق، ص ٣٣.

(٢) غرايبة، مرجع سابق، ص ٦٢.

(٣) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٤) نوفل، الدستور العثماني، المادة (١٣)، ص ٢٨٣.

(★) نقيب الأشراف: وهو الذي كان يترأس فئة الأشراف في دمشق، والأشراف فئة اجتماعية تعود في أصولها ونسبها إلى أبناء فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب، وقد تمتع الأشراف بمكانة اجتماعية ودينية مرموقة وبامتيازات قانونية واقتصادية خصتهم ا الدولة العثمانية (أعفوا من الخدمة العسكرية، ومنحوا إقطاعات خاصة م...) وارتبط نقيب الأشراف بالآستانة مباشرة، وكان يتم تعيينه سنويا من قبل السلطان، وبلغ عدد الأسر الشريفة في دمشق نيفًا وستة وعشرين، ومعظم النقباء في تلك المرحلة كانوا من أسر العجلاني وحمزة والمرادي والتحسين والصديقي. نعيسة، مرجع سابق، ج٢، ص ٤٤٨-٤٤٩-٤٥٢.

(٥) سالنامة ولاية سورية، دفعة (٨)، سنة (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م)، ص ٧٧.

(٦) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٤.

من المسلمين واثنين من غير المسلمين[١]، وبلغ عددهم في ولاية دمشق ستة أعضاء ثلاثة وجهاء مسلمين ومسيحيين ويهودي[٢].

وكانت طريقة انتخاب هؤلاء الأعضاء تتم عن طريق تشكيل مجلس أطلق عليه اسم مجلس (التفريق)[٣]، والذي تكون من الأعضاء الدائمين لمجلس الإدارة (الوالي، القاضي، الدفتردار، المكتوبجي)، بالإضافة إلى مأمور دعاوى مجلس الحقوق، ومأمور دعاوى مجلس الجنايات، والمفتي، والرؤساء الروحانيين لغير المسلمين، حيث يجتمع هذا المجلس تحت رئاسة الوالي، ويقوم المجلس بترشيح قوائم الأعضاء الجدد والذين اشترط فيهم أن يكونوا من وجهاء وباشاوات المدينة وأعيانها والذين لا يقل ما يدفعونه من ضريبة إلى الدولة عن ٥٠٠ قرش سنويًا[٤]، ويكون عدد هؤلاء ثلاثة أضعاف العدد المطلوب لعضوية المجلس الإداري للولاية، ثم ترسل القوائم إلى مجالس إدارة الألوية (مجالس الإدارة المحلية للبلديات)، وهذه المجالس لا يحق لها انتخاب إلا ثلثي عدد الأسماء الموجودة في القوائم، ثم تعود هذه القوائم إلى الوحدات الإدارية الأعلى، حيث يتم الفرز، فتسقط أسماء ثلث المرشحين، وترفع الجداول إلى الوالي، حيث تتضمن القوائم العدد المطلوب من الأعضاء المنتخبين، فيقوم الوالي بإسقاط نصف عدد هؤلاء ويبقى النصف الآخر من الأسماء كممثلين للسكان في مجلس الإدارة[٥]. - ثم يقوم الوالي بإرسال أسماء الفائزين إلى الباب العالي — من أجل المصادقة على تعيينهم وترسل مراسيم من الصدر الأعظم بهذا الشأن[٦].

وقد كانت مدة عضوية هؤلاء سنتين، شرط أن يتم انتخابهم كل سنة، يتم

---

(١) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢) سالنامة ولاية سورية، دفعة (٨)، سنة (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م)، ص ٧٧. خوري، مرجع سابق، ص 55.

(٣) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٦. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٥) برو، توفيق، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني (١٩٠٨-١٩١٤م)، دمشق، دار طلاس، ط١، ١٩٩١، ص ٣١.

(٦) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٦.

فيها استبدال نصف عدد الأعضاء المنتخبين، وانتخاب آخرين بدلاً عنهم[1].

وبهذا حاولت الدولة العثمانية في عهد التنظيمات الجديدة أن تشرك أعيان وزعامات الأسر الدمشقية في الحكومة والتي كانت على الأغلب تتمتع بنفوذ سياسي محلي في الولاية، وحاولت أن لا تعتمد على زعيم معين أو أسرة قوية محددة كما كان شأنهم في القرون السابقة، بل أشركوا عدداً من أبناء الأسر البارزة في المدينة كأعضاء في المجلس الإداري[2].

وبذلك حوى هذا المجلس أسماء كثير من الدمشقيين ذوي الأسر العريقة والغنية في المدينة، بل وفي كثير من الأحيان كان الثراء المادي وزيادة الملكيات من العقارات والأراضي يظهر في هذه العائلات بعد تسلم أبنائها لمنصب العضوية في مجلس الإدارة، فكثير من هؤلاء الأعضاء قاموا بتثبيت ملكياتهم في الولاية وزيادة عقاراتهم من خلال استغلال منصبهم في مجلس الإدارة من مثل آل العظم وآل العابد[3]، والفئة الأخرى قامت بإدعاء وتثبيت ملكية كثير من العقارات لعائلاتها وزيادة ثروتها بعد استلامها لهذا المنصب كأمثال عائلة (مردم بك والشمعة، والبارودي)[4].

وأما بالنسبة لأبرز العائلات الدمشقية التي كان أبناؤها أعضاءً في هذا المجلس فهي (آل العجلاني، العمري، آل الجيلاني، الكزبري، الأيوبي، العظم، العظمة، آل اليوسف، آل العابد، القوتلي، بنو المذالق، المهايني، الموره لي، بنو العسلي، بنو الإدلبي، بنو مردم بك، بوظو، شمدين، آل الحسيبي، آل البكري، وآل الشمعة)[5].

أما أشهر أسماء شخصيات هذه العائلات التي شغلت منصب العضوية في المجلس

---

(١) عبد المنعم أحمد، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢) شيلستر، مرجع سابق، ص ٧١.

(٣) خوري، مرجع سابق، ص ٦٧، ٦٩)، كوثراني، السلطة وا تمع والعمل السياسي، ص ٩٤، ٩٥.

(٤) خوري، مرجع سابق، ص ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧.

(٥) كوثراني، مرجع سابق، ص ٩٢، ٩٣. خوري، مرجع سابق، ص ٦٠، ٦١، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٢، ٧٤، ٧٦.

الإداري فهي: عبد اللطيف بن سعيد الكيلاني، وسعيد الكيلاني[١]، أبو السعود أحمد الحسيبي[٢]، عطا البكري: بدأ حياته المهنية كقاض في محكمة الاستئناف وفي بدايات القرن العشرين أصبح عضوًا في مجلس اللواء والبلدية، ومُنح لقب باشا من استانبول بسبب علاقاته الوثيقة مع تاجر دمشقي مقرب من الآستانة سنة (١٣٢٣هـ-١٩٠٥م)، ثم بعد أربع سنوات انتخب عضوًا في المجلس الإداري لولاية الشام[٣].

ومن عائلة العظم (عبد الله بك العظم كان عضوًا في المجلس سنة (١٢٧٧هـ-١٨٦٠م)، وفي السبعينات من القرن التاسع عشر انتخب محمد علي باشا العظم عضوًا في المجلس الإداري للولاية، وفي مطلع القرن العشرين انتخب محمد فوزي العظم بن محمد علي باشا إلى منصب عضوية هذا المجلس خلفًا لوالده[٤].

من أسرة العابد أشهرهم كان هولو باشا (١٢٤٠هـ-١٨٢٤م/١٣١٣هـ-١٨٩٥م) حفيد عمر آغا العابد، كان متصرفًا في الستينات والسبعينات في كلٍ من حماه ونابلس ثم مُنح لقب باشا وعاد إلى دمشق حيث انتخب عضوًا في المجلس الإداري لولاية دمشق في سنة (١٢٩٧هـ-١٨٧٨م)، ثم أصبح رئيسًا لهذا المجلس في التسعينات من هذا القرن، ثم كان مصطفى باشا بن هولو باشا عضوًا في المجلس الإداري سنة (١٣١٢هـ-١٨٩٤م)[٥].

ومن آل اليوسف، محمد بن أحمد اليوسف المتوفى سنة (١٣١٤هـ-١٨٩٦م)، وقد حصل على منصب العضوية في المجلس الإداري لدمشق بعد أن حصل على لقب الباشوية من الباب العالي في الآستانة[٦].

آل مردم بك: منهم علي مردم بك (١٢٢٩هـ-١٨١٣م/١٣٠٥هـ-١٨٨٧م)، وقبل أن

---

(١) خوري، مرجع سابق، ص ٦٠.
(٢) خوري، مرجع سابق، ص ٦١.
(٣) خوري، مرجع سابق، ص ٦٥.
(٤) خوري، مرجع سابق، ص ٦٦.
(٥) خوري، مرجع سابق، ص ٦٩.
(٦) خوري، مرجع سابق، ص ٧٢.

يصبح عضوًا في المجلس الإداري للولاية (١٢٩٤هـ-١٨٨٧م)، كان يشغل منصب قاضٍ في المحكمة التجارية في دمشق في أواخر سبعينات القرن[١].

ومن آل القوتلي: مراد باشا القوتلي المتوفى سنة (١٣٢٦هـ-١٩٠٨م)، شغل منصب العضوية في المجلس الإداري للولاية سنة (١٢٨٨هـ-١٨٧١م)، وهو من الأعضاء الذين قاموا باستغلال منصبهم في المجلس لزيادة ممتلكاته وممتلكات عائلته كما أسلفنا[٢].

ومن آل الشمعة: أحمد باشا رفيق الشمعة والذي كان في سنة (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م) عضوًا في المجلس التأسيسي في استانبول والذي حله السلطان عبد الحميد الثاني في السنة التالية، فعاد بعدها إلى دمشق ليشغل منصب العضوية في مجلس إدارة الولاية مع كلٍ من هولو باشا العابد وعلي مردم بك (السابقيَ الذكر) سنة (١٢٩٥هـ-١٨٧٨م)[٣][★].

اختصاصات مجلس الولاية:

حدد الدستور اختصاصات مجلس الولاية وقسمها إلى قسمين؛ الأول: يختص بالأمور الإدارية للولاية، والثاني: يختص بالدعاوى الإدارية[٤].

---

(١) خوري، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٢) خوري، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٣) خوري، مرجع سابق، ص ٧٦.

(★) ورد في سالنامة ولاية سورية دفعة سنة (١٣٠٣هـ-١٣٠٤هـ=١٨٨٥م-١٨٨٦م) أسماء كلٍ من (محمد سعيد باشا، هولو باشا، شمعة زاده، أحمد رفيق باشا، أمين زاده محمد باشا، مردم بك زاده علي باشا، كيلاني زادة سعيد أفندي، أسبر زاده جبران أفندي (مسيحي)، عيسى زاده إبراهيم أفندي (مسيحي)، لزيونا زاده ماير أفندي (يهودي) أعضاء منتخبين. ص ٤٨.

(٤) عوض، ص ١٠٦.

أولاً: الأمور الإدارية:

١- الإشـراف علـى تنظـيم وعقـد المبايعـات والمقـاولات الحكوميـة، وتسـجيل ملكية الأراضي الزراعية، وتقدير الضرائب الريفية وتحديد الرسوم الجمركية (أي تضـمين الـواردات العشـرية والأحـراش الأميريـة) وإحالتهـا إلى الملتـزمين بعمليـة المزايدات[١].

٢- تدقيق قرارات مجالس البلدية وإدارة السناجق في الولاية[٢].

٣- الإشـراف علـى الإنتـاج الزراعـي والتسـويق وتحديـد الفـائض مـن المنتجـات الزراعية[٣].

٤- إنشـاء الطـرق اللازمـة بـين الألويـة، وسـائر أمـور التجـارة والزراعـة والمنـافع العمومية في الولاية، والإشراف على إنشاءات الأبنية الحكومية[٤].

٥- النظـارة علـى الصـحة العامـة وتخصـيص أمـاكن للمرضـى وتأسـيس مـأوى للغرباء وأماكن الأسواق والمقابر[٥].

٦- النظارة على أموال الحكومة المنقولة وغير المنقولة كافة والمحافظة عليها، وتوزيـع الضـرائب الـتي تفرضـها الدولـة علـى أهـالي الولايـة وتحصـيلها منهـا وتحديـد المقدار الذي يقع على كل سنجق (لواء)[٦].

٧- تـدقيق الأعمـال والتقـارير الـتي يرسـلها الـوالي إلى المجلـس وذلـك بـالأمور المتعلقة بالإدارة المحلية[٧].

٨- تحديد مدة إقامة الزائـرين الأجانـب في الولايـة، وتجنيـد القـوات العسـكرية غير النظامية في حالات محددة[٨].

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٦. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٥. شيلستر، مرجع سابق، ص ٧١، ٧٢.
(٢) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٦. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٥.
(٣) شيلستر، مرجع سابق، ص ٧٢.
(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٧. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٥.
(٥) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٧. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٥.
(٦) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٧. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٥.
(٧) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٧.
(٨) شيلستر، مرجع سابق، ص ٧٢.

٩- "مبايعة المحلات التي لم تكن تحت تصرف واحد واستبدالها وتركها بصورة مؤقتة وتخصيصها لمنافع عمومية"(١).

١٠-إقرار تعيين الموظفين في الأقضية والنواحي(٢).

ثانياً: الدعاوى الإدارية:

١- التحقيق مع مأموري وموظفي الولاية في التهم الموجهة إليهم ومحاكمتهم وفقاً لأحكام النظام المخصص لهم(٣).

٢- النظر في الخلافات التي تحدث بين دوائر الولاية ومجالسها، وبين المحاكم وموظفي الولاية، وذلك كل حسب صلاحياته(٤).

٣- التحقيق في النِّزاعات وحالات الشغب التي تحدث في الولاية(٥).

٤- محاسبة مأموري الحكومة والتحقيق بالشكايات التي يتقدم بها الأهالي ضدهم، وحل المنازعات التي تحدث بين الأهالي بسبب تقسيم التكاليف بينهم(٦).

٥- "النظر في دعاوى ملتزمي جمع الأموال الأميرية ومتعهدي المقاولات الحكومية"(٧).

وبالنسبة للأمور المتعلقة بالمحاكمات الشرعية والقانونية الخاصة بالحقوق الشخصية فقد حظر على المجلس الإداري التدخل فيها، وكذلك حرم عليه مذاكرة الأمور المتعلقة بالمواد الجزائية إلا في حال حضور أكثر من نصف الأعضاء، ولا بد لمذاكرة هذه الأمور من الحصول على ثلثي الآراء حولها، وإذا حصل تساوٍ فيرجح الجانب الذي فيه الوالي أو من ينوب عنه، ثم يسجل محضر هذه الجلسات من قبل الكتبة العاملين في المجلس – بإشراف الباشكاتب حيث يتم تسجيل أهم وقائع هذه

---

(١) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٥.
(٢) شيلستر، مرجع سابق، ص ٧٢.
(٣) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٧. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٥.
(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٧ .
(٥) شيلستر، مرجع سابق، مرجع سابق، ص ٧٢.
(٦) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٧.
(٧) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٥. عوض، مرجع سابق، ص ١٠٧.

الجلسات مع ذكر أسماء الأعضاء الحاضرين وتسجل أيضًا نتائج الجلسات والقرارات الصادرة عنها، حيث يقوم الرئيس (رئيس مجلس الولاية).بالتوقيع والمصادقة عليها وكذلك كل من الباشكاتب والأعضاء الآخرين[1].

رابعاً: المجلس العمومي:

أحدث هذا المجلس بموجب نظام الولايات الصادر سنة (١٢٨١هـ-١٨٦٤م) حيث نص على إحداث مجلس في الولاية إلى جانب المجلس الإداري أطلق عليه اسم (المجلس العمومي)، حيث مُثل فيه أعضاء ونواب عن الألوية بلغ عددهم أربعة عن كل لواء اثنين مسلمين واثنين من غير المسلمين. وكان يترأس هذا المجلس أيضًا الوالي أو من ينوب عنه في حال غيابه[2].

واعتبر هذا المجلس بمثابة مجلس استشاري للولاية، وكان يجتمع مرة في السنة في مقر الولاية، ومدة اجتماعه وقد أُشترط على أن لا تتجاوز مدة مذاكرة أعماله الأربعين يومًا[3].

وضم الباب الخامس من الدستور عن كيفية إجراء انتخاب هؤلاء الأعضاء، فكان يتم تشكيله قبل انعقاده بشهر، ويكون الانتخاب على الشكل التالي: يجتمع في مركز اللواء أربعة أعضاء يمثلون مجلس إدارة كل قضاء، فمثلاً إذا كان اللواء مؤلفاً من خمسة أقضية، فيجتمع في مركز اللواء عشرون عضوًا من أعضاء هذا المجلس، ويقوم هؤلاء بانتخاب أربعة أعضاء منهم لتمثيل اللواء في المجلس العمومي[4].

أما عن اختصاصات المجلس فقد شملت الأمور التالية:

١- المحافظة على الطرق السلطانية والطرق الخصوصية الموجودة في كلٍ من

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٧، ١٠٨)
(٢) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٨.
(٣) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٨. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٧.
(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٨. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٧.

الولاية والألوية والأقضية والقرى وتسويتها وصيانتها[1].

٢- إنشاء الأبنية العمومية التابعة للبلدية والإشراف على صيانة الأبنية الحكومية[2].

٣- تسهيل الأمور الزراعية والتجارية في الولاية والتوسع فيها والعمل على تحسينها[3].

٤- تعديل ضريبة الويركو[★] المفروضة على الألوية والأقضية والقرى[4].

وكانت صفة رأي هذا المجلس استشارية فقط، وكانت المطالب تقدم على أوراق مكتوبة من قبل أعضاء القضاء ويسلمونها لأعضاء المجلس الذين تم انتخابهم بالصورة سابقة الذكر لكي يتم مناقشتها في المجلس العمومي، فيقوم أعضاء المجلس العمومي بعرض هذه المطالب على الوالي الذي يقوم بدوره بعرضها على المجلس للمناقشة وبعد المداولة يصدر المجلس قراراته لكي يدفعها من جديد إلى الوالي، فيوصلها إلى الحكومة المركزية في الآستانة، ولا يتم تنفيذ هذه القرارات إلا بعد موافقة مجلس الوكلاء (النظار أو الوزراء) وصدور الإرادة السنية بشأنها[5].

ومنذ صدور نظام إدارة الولايات العمومية سنة (١٢٨٨هـ-١٨٧١م)، مُنح المجلس صلاحيات أوسع، حيث "أوكلت إليه مهمة المصادقة على بعض القرارات التي يصدرها مجلس إدارة الولاية، وتسهيل التجارة والصنائع، ونشر المعارف، وتقسيم ضريبة الويركو وتعديلها، وإصلاح بذار كل أنواع الحبوب، وأجناس الحيوانات، وبيع وشراء ومبادلة كل ما يتعلق بالمنافع العامة من الأملاك العمومية، مثل

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٣) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٨. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٧.

(★) الويركو: هي ضريبة فرضت بعد عام (١٣٠٤هـ-١٨٨٦م) على الأرض الزراعية بنسبة ٤.٠٪. وعلى الأبنية التي تقل قيمتها عن ٢٠ ألف ليرة بنسبة ٥.٠٪. غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر (١٨٤٠-١٨٧٦) معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦١، ١٩٦٢، ص ٦١.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٨.

(٥) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٨-١٠٩.

المساحات والمراعي والمواشي"[1]. ويمُنع المجلس من إجراء المناقشات إذا لم يحضر ثلثا أعضائه[2].

وكان المجلس العمومي يفتتح أعماله وأولى جلساته بخطاب يلقيه والي الشام، يعرض فيه أحوال الولاية الداخلية ويتحدث عن أحوالها الزراعية والتعليمية، والمواصلات والمرافق العامة[3].

لقد كان مقر المجلسين السابقين (الإداري والعمومي) في مركز الولاية، وسنتحدث في الفقرة التالية، عن مجلس آخر أُحدث في البلديات وهو المجلس البلدي.

خامساً: المجلس البلدي:

تم تشكيل هذا المجلس بموجب المادة رقم (١١١) من نظام إدارة الولايات العمومية سنة (١٢٨٨هـ-١٨٧١م)، حيث ورد فيها تشكيل مجلس بلدي للنظر في الأمور البلدية في المدينة أو القصبة التي تكون مركز الولاية أو اللواء أو القضاء[4].

وقد تألف المجلس البلدي من رئيس واحد ومعاون واحد وستة أعضاء أساسيين، وأعضاء استشاريين؛ طبيب المدينة ومهندسها ومأمور المعية ومأمور التفتيش. كما ضم المجلس كاتبًا واحدًا وأمين صندوق واحداً[5]، وعضوين من غير المسلمين واحد مسيحي والآخر يهودي، وهؤلاء الأعضاء جميعهم ينتخبون انتخابًا[6].

أما عن طريقة انتخاب كلٍ من رئيس هذا المجلس وأعضائه، فهي نفس طريقة انتخاب أعضاء مجلس إدارة الولاية. ومدة انتخاب الأعضاء سنتان ويتم تغيير نصفهم كل سنة، وهذا ما يسمى بانتخاب التبديل، ويشرف عليه مجلس اختيارية

(١) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٨.
(٢) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٩. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٨.
(٣) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٩.
(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٩.
(٥) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧١. عوض، مرجع سابق، ص ١٠٩.
(٦) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٩.

القصبات، حيث يرشحون الأسماء البديلة لهؤلاء الأعضاء ويصادق عليهم من قبل الحكومة حتى يتم تعينهم بشكل رسمي[1].

وهناك عدة شروط يجب توفرها في العضو المنتخب وهي:

١- أن يكون من أصحاب الأملاك والنفوذ والقدر في البلدة[2].

٢- أن لا يكون من المحكوم عليهم بجناية أو جنحة[3].

٣- لا يجوز الجمع بين عضوية المجلس ووظيفة أخرى في الدولة، ولا يجوز أن يجمع بين مجلسين وأن يكون متعهدًا بإنشاءات مجلس البلدية[4].

٤- لا يحق لمن كان في الخدمة العسكرية ترشيح نفسه لمنصب عضوية المجلس[5].

٥- يشترط في العضو أن لا يقل عمره عن عشرين سنة[6].

وللمجلس مكان خاص يجتمع فيه الأعضاء، مرتين في الأسبوع لبحث المسائل والموضوعات المتعلقة بالبلدية والأمور المسؤول عنها المجلس، ويجتمع المجلس في بعض الأحيان في غير الأوقات الاعتيادية له، وذلك حسبما تستدعي الضرورة لذلك[7].

أما بالنسبة للمعاون ومأمور التفتيش والكاتب وأمين الصندوق وأفراد الضابطية فهم يداومون بشكل يومي في المجلس، ويتبادلون المناوبة ليلاً وفي أيام العطل[8].

اختصاصات مجلس البلدية:

تنحصر وظيفة هذا المجلس واختصاصاته في النظافة والتنظيمات في البلدية،

---

(١) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧١. عوض، مرجع سابق، ص ١٠٩.

(٢) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧١.

(٣) عوض، مرجع سابق، ص ١٠٩، ١١٠.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١١٠. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٥) أحمد، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٦) عوض، مرجع سابق، ص ١١٠. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٩.

(٧) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧١.

(٨) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧١.

فلا يحق له التدخل في الضريبة المفروضة على الأهالي والأشغال العامة، أو البدلات العسكرية، والأمور المتعلقة بالضابطية أو التدخل في المحاكمات وما يتعلق بها من دعاوى ومحاكمات[(١)].

وهذه الاختصاصات بالتفصيل هي كما يلي:

الإشراف على تنظيم الأزقة والشوارع وتوسيعها ومخالفة الأبنية غير النظامية والإشراف على إنشاء الأزقة والشوارع الفرعية في البلدة[(٢)].

النظارة على مجاري المياه وسواقطها وتبليط الأسواق والأزقة، وتخصيص أماكن فيها لمرور الدواب وتقسيم مصارف الرصف بحسب واجهات البيوت والدكاكين وسائر الأبنية الموجودة على جانبي الشوارع وإصلاح التوالف من الأرصفة (وتؤخذ التكاليف من أصحاب هذه المحلات ولكن إذا كان أصحاب هذه الأماكن فقراء وعجائز تؤخذ المصاريف من صندوق الدائرة البلدية في الولاية[(٣)].

---

(١) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٢) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٣. عوض، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٣) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٣.

إشعال الأسرجة والقناديل في الأزقة والشوارع ليلاً.

مراقبة الأسعار في الأسواق (مراقبة الخبازين والسمانة والقصابة) ومراقبة الموازين، وبائعي الأقمشة، فإذا وجد نقص في الأوزان والعيارات أو شيء فاسد في البضائع المُباعة للزبائن، فتفرض الغرامة المالية المستحقة على المقصر ولا يحق للمفتشين بأي شكل من الأشكال معاقبة المقصرين بالسجن، ولكن فقط فرض غرامة مالية وفي حال كان الجرم أكبر يحال الأمر إلى الحكومة(1).

يعين المجلس مفتشين من قبلهم لكي يدوروا في الحوائر والأزقة بحثاً عن المخالفات في النظافة والأسعار (كما أسلفنا الذكر)؛ ومراقبة سير حركة الأسواق والبازارات وإلزام الفلاحين بتنظيف المخلفات التي يتركونها بعد اجتماع عرباتهم في البازارات(2).

القبض على المتسولين والشحاتين المقتدرين صحيًا والذين تتعدى أعمارهم سن (١٢) إلى (١٣) ويسلمون إلى الحكومة لتشغلهم في الأعمال المناسبة، والذين أصغر من هذا السن يؤخذون إلى الإصلاحية، والمرضى منهم يؤخذون إلى حاراتهم لينفق عليهم من هبات وعطايا الخيرين(3).

إلزام الأهالي بعدم ترك حيواناتهم سائبة في الشوارع، ووضعها في الحظائر، ومخالفة أصحاب البسطات وذلك لما تسببه من إعاقة في السير على الأرصفة، ويُسمح لهم بوضعها فقط في البازارات(4).

يخصص المجلس عربات لنقل المرضى الغرباء إلى المستشفى (خسته خانه)، وتُدفع أجرتها من صندوق الدائرة، كما تُخصص عربات للزبالة بقدر ما تحتاج إليه البلدة بشكل أقل كلفة وأوفر(5).

---

(١) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٢) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٣) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٤) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٥) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٣، ٧٥.

عائدات المجلس ومصروفاته:

العائدات: وهي كالتالي:

١- الرسوم المفروضة على الإنشاءات والعمائر في البلدية (ومقداره واحد من خمسة من مقدار ما يؤخذ من الأبنية في بلدية استانبول)[١].

٢- الرسوم والضرائب التي تُفرض على الغلات الزراعية والعقود[٢].

٣- المبالغ المتحصلة من بيع الأراضي الواقعة داخل المدن ومن الغرامات المفروضة على المخالفات الحاصلة في الأسواق والتي فرضتها البلدية[٣].

٤- الإعانة والهبات والمبالغ التي خصصتها الحكومة للمجلس البلدي[٤].

المصروفات: فيما يختص بمصروفات المجلس العمومي فهي كالتالي:

١- لم تخصص رواتب لأعضاء المجلس البلدي فرئيس المجلس والمعاون والمهندس والطبيب والمأمور وعساكر الضابطية كانوا يعملون مجانًا في هذا المجلس[٥].

٢- يصرف راتب شهري لكلٍ من كاتب المجلس، وأمين الصندوق مقداره خمسمائة قرش، وراتب لمستخدم واحد في المجلس مقداره مائة وخمسون قرشًا[٦].

٣- يصرف مبلغ مقداره خمسمائة قرش آخر كل شهر مخصص للمفروشات والحطب والفحم والقناديل والقرطاسية واللوازم الأخرى للمجلس[٧].

ولا يحق للمجلس أن يصرف في السنة أكثر مما خصص له من الإيرادات بل الأفضل أن يوفر منها للسنة القادمة[٨].

---

(١) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٥٠.

(٣) عوض، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٥) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٢. أحمد، مرجع سابق، ص ٤٧.

(٦) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٧) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٢.

(٨) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٣.

وفي نهاية كل شهر ينظم المجلس دفتر ميزانية (ينظم فيه إجمالية الإيرادات والمصروفات) ويرفع إلى مجلس إدارة الولاية للمصادقة عليه، وآخر كل سنة ينظم جدول مُبين فيه الميزانية الشهرية والتي تضم دفاتر الحسابات، ثم يرسل هذا الجدول مرفقًا بجدول آخر يتضمن بيان الوارد والنفقات المتوقعة للسنة القادمة، إلى نظارة الداخلية للمصادقة عليها، وبعدها تعاد إلى المجلس لتكون سندًا رسميًا فيه(١).

ولعله من الملفت للانتباه موضوع صلاحيات المجلس البلدي ورئيسه المنصوص عليه في نظام البلديات، فهذه الصلاحيات توزعت بين النقيب وشيخ الحرفة والمفتشين، والذين كانت مسؤولياتهم تشمل أدق التفاصيل فيما يخص المدينة وما يتعلق بتنظيمها والحفاظ عليها(٢). ومن الملاحظ أيضًا دقة القوانين فيما يخص الإحاطة بكل ماله علاقة بالبلدية وتنظيمها، ولكن رغم ذلك لم يمنع هذا الأمر من انتشار الفساد في داخل هذا النظام أيضًا وخاصة بعد تسلط الأعيان والوجهاء في مدينة دمشق على هذا المجلس فأصبح المجلس مطية لتحقيق رغباتهم وأهدافهم في السيطرة على المدينة والولاية بشكل أكبر ووضع أياديهم على أكبر قدر من الأراضي والعقارات مستغلين نفوذهم في المجلس البلدي وعدم مساءلة الوالي والمتصرف أو القائم مقام لهم وذلك بسبب ما كان يحصل عليه هؤلاء من رشاوى.

وأصبح المجلس ساحة للتنافس السياسي والتنافس على الجاه والنفوذ في المدينة من قبل العائلات الدمشقية الكبيرة ووسيلة لضرب بعضهم البعض(٣).

ومن أشهر هذه العائلات الذين شغل أبناؤها منصب العضوية في المجلس البلدي آل الغزي (عبد الرحمن الغزي وشغل المنصب في مطلع سبعينات القرن التاسع عشر)(٤)، والكيلاني، وآل الحسيبي والعطار والمرادي وآل العظم والعابد وآل مردم بك والقوتلي والبارودي وغيرهم(٥)(*).

---

(١) مختارات من القوانين العثمانية، مرجع سابق، ص ٧٣. عوض، مرجع سابق، ص ١١٠.
(٢) كوثراني، مرجع سابق، ص ٩٨.
(٣) كوثراني، مرجع سابق، ص ١٠٠.
(٤) خوري، مرجع سابق، ص ٥٩.
(٥) خوري، مرجع سابق، ص ٦١-٧٧.

سادساً: الدوائر المهمة التي حددها الدستور في مركز الولاية:

١- مدير الأمور الأجنبية:

وهو من كبار موظفي مركز الولاية، ورد اسمه في سالنامة ولاية سورية[١]. وهو أحد أعضاء مجلس إدارة الولاية[٢]. ويتم تعيينه من قبل الباب العالي بعد أن ترشحه نظارة الخارجية[★] (وزارة الخارجية)[٣].

وأما عن اختصاصات مدير الأمور الأجنبية فتنحصر بمايلي:

أ-إجراء المخابرات والمكالمات ما بين الوالي وقناصل الدول الأجنبية والموظفين الأجانب العاملين في الولاية، وذلك تحت إشراف الوالي واستشارته[٤].

ب- تقديم ملاحظاته واستشاراته إلى الوالي شفهيًا أو كتابيًا حول المعاهدات

---

* وذكر صاحب كتاب "أعيان المدن والقومية العربية" فيليب خوري حول هذه النقطة مايلي: وكان هدف هذه العائلات الدمشقية ذات الأملاك، هو إدخال أكبر عدد ممكن من أفراد عائلا م إلى المناصب الإدارية في الدولة. وقد نجحت عائلات كالعظم والعابد واليوسف ومردم بك أكثر من غيرها في تنظيم انتشار واسع لأفرادها في ا الس والمؤسسات الحكومية وفي ضمان وراثة غير رسمية لبعض المناصب، وشكلت الرشوة الطريقة الوحيدة لتحقيق هذا الغرض فمثلاً: ذكر أن محمد فوزي باشا العظم دفع للوالي العثماني ألف ليرة ذهبية تركية لتعيينه رئيسا لس البلدية في دمشق في مطلع التسعينات من القرن التاسع عشر. أما الرشوة الأكبر فقد دفعها كما ذكر عبد الرحمن باشا اليوسف لضمان إمارة الحج لوريثه، ولم يكن الغاية من الحصول على هذه المناصب هو الأ ة والجاه فقط، بل الإفادة الكبيرة والمميزات التي يستطيع صاحب هذا المنصب أن يحصل عليها والإفادة منها له ولعائلته وتحقيق مكاسب مادية وعقارية ووظيفية في الولاية. خوري، مرجع سابق، ص ٨٤.

(١) سالنامة ولاية سورية، دفعة سنة (١٣٠٣-١٣٠٤هـ=١٨٨٥-١٨٨٦م)، ص ٤٩.

(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٥١.

(★) نظارة الخارجية (*Umur-ihariciye Nezareti*): وهي الوزارة التي استحدثت في شهر ذي القعدة سنة (١٢٥١هـ-١٨٣٦م) بعد إلغاء منصب رئيس الكتاب، والنظارة (*Nezaret*) تعني الإدارة أو ناظر الخارجية، الاسم القديم لوزير الخارجية وقبل ذلك كان يسمى برئيس الكُتاب. صابان، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ص ٢٢١، ٢٢٢.

(٣) عوض، مرجع سابق، ص ٩٢.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ٩٢. أحمد، مرجع سابق، ص ٥١.

والامتيازات الدولية الممنوحة من قبل الدولة العلية للدول الأجنبية[١].

وبذلك كان هذا الموظف بمثابة المستشار أو الخبير الخاص بالأمور الأجنبية للوالي وكان واسطة التواصل ما بين الوالي وما بين القنصليات الأجنبية في الولاية والموظفين فيها، لذلك اشترط في هذا الموظف اتقانه للغات الأجنبية المختلفة نطقًا وكتابةً واشترط فيه حسن الخط واللياقة واللباقة، ولذلك انحصر هذا المنصب في معظم الأحيان في الأسر المسيحية الدمشقية وذلك بسبب إجادة هؤلاء لكثير من اللغات الأجنبية وبراعتهم فيها[٢].

٢- مدير المعارف:

هو مدير المسائل المتعلقة بالحالة التعليمية في الولاية، ومسؤول عن نشر المعارف، ومن أهم اختصاصاته[٣]، "ترؤس مجلس معارف الولاية والمكون من ستة أعضاء وسر كاتب وأمين صندوق ومأمورين يقومون بمراقبة ومعاينة الكتب الأجنبية"[٤]. والإشراف والتدقيق على ما يجري من مصالح متعلقة بمعارف الولاية وإجراء ما يتقرر من الإصلاحات المقترحة بما يتعلق بأمور معارف الولاية، ومسؤول أيضًا عن إجراء التفتيش في المدارس والمكتبات الموجودة في مركز الولاية، وبشكل خاص المدارس الإعدادية والسلطانية وصرف مخصصات معارف الولاية واستعمالها في دائرة النظام المتعلق بها[٥]، ووقايتها من التلف والسرقة[٦].

وفي نهاية كل عام يقوم مدير المعارف بتقديم تقرير يرفعه إلى الوالي، يتضمَّنُ خلاصة عن الأعمال والتطورات التي قام بها في الولاية بما يختص بدائرته، ثم يقوم

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٩٢. أحمد، مرجع سابق، ص ٥١.
(٢) عوض، مرجع سابق، ص ٩٢.
(٣) عوض، مرجع سابق، ص ٩٢.
(٤) أحمد، مرجع سابق، ص ٥١.
(٥) عوض، مرجع سابق، ص ٩٢، ٩٣.
(٦) أحمد، مرجع سابق، ص ٥٢.

الوالي برفع هذا التقرير (أو الخلاصة) إلى الباب العالي[١].

ويتبع مدير المعارف ومعاونوه والمفتشون الذين يعملون معه إلى نظارة المعارف، ويخضعون للقوانين والأنظمة التي تزودهم بها نظارتهم[٢].

٣- مدير الزراعة والتجارة:

"ويوجد مأمور للنظر في أمر الزراعة وتسهيل إدارة التجارة وتقدير محصولات الولاية وضبط إخراجاتها وإدخالاتها، وينصب ويتعين من طرف الدولة انتخاب نظارة التجارة والزراعة الجليلة أيضًا"[٣]. هذا نص ما جاء في المادة (١٢) من الدستور العثماني والتي كما هو واضح فرضت ضرورة وجود مدير للزراعة والتجارة في الولاية يعين من قبل نظارة الزراعة والتجارة ويعمل هذا المدير مجانًا ويعين له وكلاء في النواحي والقرى بدون رواتب أيضًا[٤].

أما عن أهم اختصاصاته والتي نص عليها القانون الصادر سنة (١٢٨٠هـ-١٨٦٣م) والقانون الصادر سنة (١٢٨٧هـ-١٨٧١م) فهي كمايلي:

١- إجراء التنظيمات اللازمة لأمور الزراعة فنًا وعملاً حسب ما يقتضيه الموقع الجغرافي لكل محل داخل الولاية، وقابليته الطبيعية[٥].

٢- إجراء التدقيقات والكشف عن الأمور التي تساعد على ترقية تجارة الولاية العمومية كافة، وتبليغها إلى الوالي بشكل خطي[٦].

٣- ضبط وجمع وتدوين كل ما يتعلق بتدقيق المعلومات والإدخالات والإخراجات وأمور الزراعة[٧].

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٩٣.
(٢) عوض، مرجع سابق، ص ٩٣.
(٣) نوفل، مصدر سابق، ج٢، المادة (١٢)، ص ٣٨٣.
(٤) عوض، مرجع سابق، ص ٩٣.
(٥) عوض، مرجع سابق، ص ٩٣. أحمد، مرجع سابق، ص ٥٢.
(٦) عوض، مرجع سابق، ص ٩٣. أحمد، مرجع سابق، ص ٥٢.
(٧) أحمد، مرجع سابق، ص ٥٢.

٤- العمل على ترغيب السكان على زراعة أصناف زراعية أخرى غير الحنطة والشعير[١].

٥- الفصل في الدعاوى والمنازعات التي تحصل بين المزارعين وما يتعلق بالأراضي الزراعية[٢].

٦- تقديم خلاصة سنوية عن الحالة الزراعية والتجارية في الولاية إلى الوالي، لكي يقوم الأخير برفعها إلى الباب العالي للمصادقة عليها[٣].

وأيضًا كان لأعيان دمشق النصيب الأوفر في هذا المنصب والسيطرة عليه، فلقد كان معظم من عمل مديرًا للزراعة والتجارة في ولاية الشام من أعيان الولاية ووجهائها[٤].

٤- مدير الدفتر الخاقاني[**]:

"جاء في نظام إدارة الولايات العمومية المادة التاسعة والعشرون ضرورة وجود مأمور للتفتيش وإجراء أحكام القوانين والأنظمة والتعليمات التي تتعلق بحق إدارة الأملاك والأراضي والنفوس، وما كان مختصًا بمعاملات تصرف الأملاك وتملكها، والإشراف على معاملات المأمورين الموجودين في الأقضية، وإبلاغ الوالي عن كل موظف يتصرف بخلاف النظام، ويبدي ملاحظاته حول انتخاب موظفي الدفتر الخاقاني وعزلهم، وعليه أن يقدم تقريرًا إلى الوالي يتضمن الإجراءات التي

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٩٣.
(٢) عوض، مرجع سابق، ص ٩٣.
(٣) عوض، مرجع سابق، ص ٩٣. أحمد، مرجع سابق، ص ٥٣.
(٤) عوض، مرجع سابق، ص ٩٣.

**دفتر خانه (*Defterhane*): الدائرة المعنية بالشؤون المالية في الولاية أو الدولة، ويسمى مديرها دفتر دار أي أمين الدفتر، ويتم فيها حفظ جميع سجلات الأراضي في الدولة العثمانية، وتحديد أنواع الأراضي من تميار وزعامت وخاص وملك وقف وغيرها وتسجيلها في الدفاتر الأساسية، وقد تبدل المسمى سنة (١٢٨٧هـ-١٨٧١م) إلى نظارة دفتر خاقاني وسمي المشرف عليها ناظر دفتر خاقاني. صابان، مرجع سابق، ص ١١٣.

قام بها خلال السنة"[١].

والدائرة التابعة لمدير الدفتر الخاقاني هي إدارة الطابو، ومهمتها تسجيل أملاك المسقَّفات والمستغلات عن أسماء مالكيها، وتقوم بأخذ الرسوم وتسليمها لصندوق المال ومنه تأخذ رواتب موظفيها. ويتبع لهذه الإدارة لجنة تتألف من ثلاثة أعضاء يعملون تحت إمرة القاضي مهمتها استماع القبول والإيجاب من المتبايعين[٢].

ومن مهمات هذه اللجنة أيضًا القيام بتدقيق معاملات انتقال الملك والعقار من المورث إلى الوارث، وقد تألفت إدارة الطابو من مأمور الدفتر الخاقاني (المدير) وباش كاتب وكاتب أملاك الطابو ومعاون له[٣].

٥- مأمور الأملاك والنفوس:

نصت المادة الحادية والثلاثون من نظام إدارة الولايات العمومية على "وجود مأموري النفوس والأملاك، لإدارة القيود الأساسية المحلية التي تحتوي على أجناس عموم الأملاك والأراضي وأنواعها وأعدادها، والأشياء التي تتبعها، وإيراداتها السنوية، وما هو مترتب عليها من التكاليف بموجب الأنظمة الخاصة بها، وتنظيم خلاصات التكاليف الراجعة على الأملاك في أوقاتها المعينة وإدارة القيود المحلية الأساسية الحاوية أنواع ومقادير التكاليف الشخصية، وجمع قيود عامة النفوس وتدوينها والإشراف على إدارة قيود ما يقع من التغييرات في الأملاك وفراغها وانتقالها، ومواليد النفوس ووفياتها، وما يتعلق بمعاملات تذاكر المرور وجوازات السفر"[٤].

وكان يتبع مأمور الأملاك والنفوس في ولاية الشام إدارتان هما:

(أ) إدارة الأملاك، و(ب) إدارة ونظارة النفوس.

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٩٤. أحمد، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٣) أحمد، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٤) نوفل، مصدر سابق، ج١، ص ٤٠٤. عوض، مرجع سابق، ص ٩٤.

(أ) إدارة الأملاك:

ووظيفة هذه الإدارة تسجيل الملك على صاحبه بعد تسجيله في إدارة الطابو، وتقدر قيمة هذا الملك حتى يؤخذ عليه الرسم المعروف بـ(الويركو). وقد تألفت هذه الإدارة من مدير وكاتب ميزان وكاتب لكل دائرة من دوائر إدارة الأملاك، ولها ثلاثة رفقاء وملازمان وصاحب دفتر ولهما محفتان من البلدة يعملان نصف السنة مجانًا، ولها أيضًا فرقة سيارة (جوالة) مؤلفة من محررين ومقيدين ومسّاحين[1].

(ب) إدارة النفوس:

وظيفتها تسجيل أسماء المواليد والوفيات وإعطاء تذاكر السفر وتقديم دفاتر خاصة بالشبان الموجودين في المدينة لأخذهم إلى الجندية، وكان مأمورو سجلات النفوس في كل قضاء يطوفون على القرى كل ثلاثة أشهر، ويطوف مأمور النفوس في الألوية على مراكز الأقضية كل ستة أشهر، ويطوف نظار سجل نفوس الولايات على مراكز الألوية كل سنة مرة واحدة لتفتيش المعاملات[2].

وتكونت نظارة النفوس من ناظر وباش كاتب ومعاون له وملازمين، وأما دخل هذه الإدارة فيأتي من ثمن تذاكر النفوس، وهي تعادل قرشًا واحدًا لكل تذكرة وتذاكر الطريق التي مقدارها ١٠ قروش، وأما رواتب موظفي هذه الإدارة فتُؤخذ من بين مال الولاية[3].

٦- مدير الأوقاف:

على اعتبار أن الأوقاف هي من أهم موارد البلاد الإسلامية ومن أهم ممتلكاتها لذلك فقد أولتها الدولة العثمانية باعتبارها وصية على الأملاك الإسلامية في البلاد التي حكمتها اهتماماً خاصًا وأنشأت لها دوائر خاصة للإشراف على هذه الأملاك في كل ولاية وكل قضاء وقرية على الامتداد الجغرافي لهذه الدولة. فجاء في نظام إدارة الولايات العمومية نُقاط وضُح فيها مهام مديري الأوقاف والوظائف الموكلة

(١) أحمد، مرجع سابق، ص ٥٥.

(٢) نوفل، مصدر سابق، ج١، المادة (٣٢)، ص ٤٠٤.

(٣) أحمد، مرجع سابق، ص ٥٥، ٥٦.

إليهم في كل ولاية، وهي كمايلي:

١- تحصيل أموال الأوقاف وإرسالها إلى خزينة الأوقاف في أوقاتها المعينة[١].

٢- رؤية حسابات متولي الأوقاف واستيفاء الرسوم العائدة للخزينة.

٣- تعميرات الأوقاف المضبوطة ومبايعاتها.

٤- إدارة حسابات المأخوذات والمدفوعات وقيودها.

٥- النظارة على إدارة الصناديق والفراغات والانتقالات وتحقيق الأوقاف غير المشروطة والتدقيق عليها[٢].

ودفعًا لحركة الإصلاح والتجديد التي قامت بها الدولة العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر فقد صدرت قوانين جديدة الهدف من ورائها إعادة تنظيم إدارة الأوقاف وإصلاحها وتحديد مسؤوليات مدير الأوقاف على شكل خط همايوني تألف من تسعة فصول وهي كمايلي:

١- تناول مجبورية مديري الأوقاف إلى مراجعة مجلس المدينة والأصول والقيود التي يمسكونها.

٢- محاسبة متولي الأوقاف الملحقة.

٣- يخص التعميرات والمبايعات.

٤- يخص محاسبة السلف والخلف.

٥- حاصلات الأوقاف التي لم يكن لها وقفية.

٦- الأجارة الواحدة والطويلة والاستبدال.

٧- يخص فراغات وانتقالات المسقفات والمستغلات وسنداتها.

٨- محلولات المسقفات والمستغلات.

٩- يخص العائدة إلى البوستة والمديرين وصورة تعيين وكلاء المدير وما يتفرع

---

(١) عوض، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٢) عوض، مرجع سابق، ص ٩٤، ٩٥. أحمد، مرجع سابق، ص ٥٦.

عن ذلك[1].

وأما أوقاف الحرمين الشريفين والأوقاف[*] الهمايونية الداخلة تحت نظارتهما فتجري المعاملة بهما وفقًا لأحكام قانون الأراضي بدءًا من جمادى الثاني سنة (١٢٩٢هـ-١٨٧٥م) أما ما قبل ذلك التاريخ فيكون بمقتضى القوانين السابقة[2].

وكان يتبع لمدير الأوقاف إدارة تتكون من محاسبة جي وسر كاتب وأمين صندوق وكاتب محاسبة ومقيدين. ويلحق بإدارة الأوقاف لجنة الأوقاف ويرأسها المفتي وستة أعضاء منتخبين، ومهمتها النظر في دفاتر الحساب التي يقدمها المتولون على الأوقاف في دخل الوقف وخرجه، والإشراف على الجوامع والمعابد، وتدقيق النفقات وما يصرف على تعمير وتنوير وفرش هذه المعابد والجوامع[3].

٧- بك آلاي أو (آلاي بك)[*]:

نصت المادة الرابعة والثلاثون من نظام إدارة الولايات العمومية على وجود ضابط برتبة ميرالاي يكون تحت إمرة الوالي، ويقوم بإجراء نظامات عساكر الأمن، الضابطة وترجع إليه مهمة أمن هيئة الولاية[4].

٨- مدير النافعة:

وأوجد هذا المنصب بموجب المادة الحادية عشرة من نظام الولايات الصادر سنة (١٢٨١هـ-١٨٦٤م)، والتي نصت على ضرورة وجود مأمور لأمور النافعة في مركز

---

(١) نوفل، مصدر سابق، مج٢، ص ١٢٦. حتى ص ١٤٠.

(*) نظارة الحرمين (*Haremeyn Nezareti*): الإدارة الحكومية التي استحدثت سنة (١٢٥٢هـ-١٨٣٦م) للإشراف على أوقاف الحرمين الشريفين وإدار ما، حيث انتقلت إدارة الأوقاف من آغاوات الحرم، بسبب التسيب، وكان يرأسها ناظر الحرمين. صابان، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٢) نوفل، مصدر سابق، مج١، ص ١٤٣.

(٣) أحمد، مرجع سابق، ص ٥٧، ٥٨.

(*) آلاي بكي (*Alay Beki*): أمراء أصحاب التيمار في غير أوقات السفر (أي الحرب) وكان يطلق على قواد الجندرمة الموجودة في مراكز الولايات العثمانية. صابان، سهيل، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٤) عوض، مرجع سابق، ص ٩٥. أحمد، مرجع سابق، ص ٥٨.

الولاية يعين من طرف الدولة بناء على اختيار نظارة النافعة ويكون مأمورًا بالكشف على الطرق والمعابر المتعلقة بالأبنية والمذاكرة بها وإجرائها.

ويساعده على ذلك مهندسون يعملون بمعيته، وبموجب نظام إدارة الولايات العمومية أصبحت وظيفته جلب المكلفين للعمل في الطرق وجمعهم في الأوقات المقررة لهم، وأن يقوم بتحصيل المبالغ النقدية للمكلفين، ويقدم بيانًا بذلك إلى الوالي في دفتر مخصوص يوضح فيه مقدار ما تم وما تبقى من العمل في الطرق[(١)].

ويتبع لمدير النافعة لجنة مهمتها إصلاح الطرق والمعابر، ويترأس الوالي هذه اللجنة وفي حال غيابه يقوم بالمهمة معاونه، وأعضاؤها سبعة من المسلمين والمسيحيين وستة مهندسين ومفتش الزراعة وناظر النفوس مع متمايزيين[(٢)].

سابعًا: الولاة الذين تعاقبوا على مدينة دمشق في تلك المرحلة:

١- أحمد حمدي باشا:

ولايته الأولى كانت سنة (١٢٩٢هـ/١٨٧٥م) لغاية (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) واستمرت لمدة عام واحد فقط ولم يكن فيها من الأعمال شيء يذكر، عاد واستلم ولاية دمشق سنة (١٢٩٦هـ/١٨٧٨م) وبقي في منصبه حتى سنة (١٣٠١هـ/١٨٨٣م)[(٣)].

وأحمد حمدي باشا هو صدر أعظم سابق في الدولة[(٤)] (وذكرنا سابقًا كيف أن الدولة العثمانية كانت في كثير من الأحيان تسند منصب ولاية الشام لرجال ذوي مراتب عليا في الدولة فكان الكثير منهم صدوراً عظاماً سابقين لما لدمشق من أهمية)، واشتهر هذا الوالي بالحكمة ورجاحة العقل واعتبر من عظام رجال الدولة في تلك المرحلة، ويبرز ذلك من خلال معالجته لكثير من المشاكل التي مرت بها

(١) نوفل، مصدر سابق، المادة (١١)، ص ٣٨٣. والمادة (٢٧)، ص ٤٠٣، ٤٠٤.
(٢) أحمد، مرجع سابق، ص ٥٨، ٥٩. عوض، مرجع سابق، ص ٩٥.
(٣) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٣.
(٤) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٠، ٢٧٣.

الولاية في تلك المرحلة، ففي حدث الانقلاب الدستوري الأول في الدولة العثمانية[1]، إثر استلام السلطان عبد الحميد الثاني ورأى بعينه هو وكثير من الأحرار في البلاد كيف أفشل السلطان عبد الحميد الثاني هذه التجربة وابتعد بالبلاد عن الخط الديمقراطي الذي حَلُمَ به كثير من الرجال الأشراف في الدولة العثمانية.

وشهدت ولاية دمشق في عهده الفتنة التي حدثت بين الموحدين وأهالي قرية أم ولد في حوران[2]. واستطاع هذا الوالي بحنكته ورجاحة عقله أن يحل هذه المشكلة من دون اللجوء إلى القوة والعنف وأصلح ما بين الطرفين وذلك بخلاف الولاة الذين سبقوه، والذين كانوا يعتمدون القوة والبطش في حل مثل هذه الخلافات[3]. كما اشتُهر هذا الوالي بحبه للعلم والمعرفة ونشاطه في تحقيق وإنجاز المشاريع الخيرية النافعة للبلاد والقيام بالإصلاحات العمومية[4].

٢- راشد ناشد باشا:

ولايته الأولى كانت سنة (١٢٩٣هـ١٨٧٦م)[5]، ولم تكن مدتها طويلة لذلك لم تكن فيها من الإنجازات ما يذكر[6]، والمدة الثانية كانت سنة (١٣٠١هـ/١٨٨٣م) واستمر حتى سنة (١٣٠٤هـ/١٨٨٦م)، وكان قد استلم قبل ذلك منصب الوالي في كثير من الولايات العربية، عُرف عنه القدرة والكفاءة والهمة العالية في إدارته للبلاد، ولكنه اشتُهر بطمعه، فامتدت عينه ويده إلى ما في أيدي الناس، وانتشرت في عهده الرشوة، فتقرب إليه أصحاب الأغراض والمصالح والمطامع الشخصية[7].

أما أهم ما جرى في فترة ولايته فهو فصل بيروت عن ولاية الشام (دمشق)[8]،

---

(١) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٣.
(٢) ورد ذكرها سابقًا في فقرة فتنة الموحدين.
(٣) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٣.
(٤) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٣.
(٥) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٣.
(٦) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٠.
(٧) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٣.
(٨) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

وجعلها ولاية مستقلة يتبع لها كل من طرابلس ونابلس وعكا واللاذقية[١]، كما تم فتح سوق الحميدية الممتد من باب البريد إلى سوق الجديد، وأنشأ مكتب الأعداد الليلي[٢].

٣- ضيا باشا (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م):

أهم أعماله: تجديد تربة محيي الدين الطائي الأندلسي صاحب التاريخ المشهور عند الأتراك بتاريخ الأندلس، كما قام بتجديد تربة صلاح الدين الأيوبي، وبنى عليها العتبة الموجودة حتى الآن[٣]، وقام بتعمير تربة عبد الغني النابلسي[٤]، وبالرغم من مدة ولايته القصيرة إلا أنه ترك بصمته في الولاية وخاصة في النواحي العمرانية وربما لو طالت ولايته أكثر من ذلك لأظهر هذا الوالي براعات وإنجازات في مجالات أخرى في الولاية، ولكن سرعان ما نُحي عن منصبه[٥].

٤- عمر فوزي باشا (١٢٩٤هـ/١٨٧٧م)[٦]:

مدته قصيرة لم يحدث فيها ما يستحق الذكر، في أيامه فُتح سوق علي باشا الذي يصل ما بين ساحة المرجة إلى سوق الخيل[٧].

٥- أحمد جودت باشا (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)[٨]:

مؤرخ تركي صاحب كتاب تاريخ جودت باشا[٩]، اشتهر بعلمه وثقافته العالية، كتب حول التاريخ السياسي للدولة العثمانية وعلاقاتها مع الدول الأجنبية[١٠]، ولد وتعلم في مدينة "لوفجة" التابعة لولاية الطونة، أقام في الآستانة ودرس فيها، ولي

(١) الحصري، مرجع سابق، ص ١٤٣.

(٢) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٣) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٤) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧١.

(٥) المرجع السابق نفسه.

(٦) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٧) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧١.

(٨) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٩) الزركلي، مرجع سابق، مج١، ص ١٠٨.

(١٠) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧١.

منصب الوزارة والصدارة المؤقتة، ونظارة العدلية[1]، استلم ولاية الشام سنة (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) أهم أعماله فيها بث روح العلم الاختياري في المدارس، حيث عمل على نشر الأفكار التحررية في البلاد ونشر الوعي ومحاربة التقاليد الواهية والتقليد الأعمى، وهو المؤسس لكثير من المدارس في دمشق، فزاد عدد الطلاب فيها وراجت سوق العلم في البلاد[2].

٦- أحمد مدحت باشا (١٢٩٥هـ/١٨٧٨م) حتى (١٢٩٦هـ/١٨٧٨م):

ذكر هذا الوالي بالتفصيل في الفصل الأول (الباب السياسي) فقرة الوالي مدحت باشا.

٧- نظيف باشا (١٣٠٤هـ/١٨٨٦م)[3]:

عُرف عنه ولعه بلعبة الشطرنج وكذلك حبه لمجالس الطرب، وأما عن إنجازاته في ولاية دمشق فلم يكن منها ما يذكر إن كان في المجال العمراني أو المجالات الأخرى، ما عدا قيامه بتقسيم دائرة البلدية إلى أربعة أقسام وكان الغاية من هذا العمل من وجهة نظره هو العودة بالفائدة والمنفعة على البلاد، ولكن حصل العكس من ذلك. وحاول أيضًا تحقيق الألفة والتعاون بين فئات المجتمع الشامي المختلف ونبذ الخلافات فيما بينها[4].

٨- مصطفى عاصم باشا (١٣٠٦هـ/١٨٨٨م-١٣٠٧هـ/١٨٨٩م)[5]:

كان واليًا على بغداد قبل أن يستلم ولاية دمشق، أمضى حياته في السلك العسكري ثم ترقى إلى مرتبة المشيرية، ولسبب نشأته العسكرية هذه اتسمت شخصيته بالحزم والقسوة وعُرف عنه الشهامة والصرامة في تنفيذ

---

(١) الزركلي، مرجع سابق، مج١، ص ١٠٨.

(٢) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٣) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٣.

(٤) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٥) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٤.

الأوامر[1]. وحارب الرشوة والفساد في الولاية، وكانت عقوباته صارمة بحق المرتشين من الموظفين في الولاية، لذلك كانت له بعض الفئات الكارهة له في المجتمع الدمشقي وخاصة ذوي المصالح والنفوذ، انتهت ولايته بوفاته في الشام[2].

٩- عثمان نوري باشا (١٣٠٧هـ/١٨٨٩م-١٣١٠هـ/١٨٩٢م)[3]:

هو عثمان باشا القائد التركي قاهر الصرب كما لُقب من قبل العثمانيين، وذلك بسبب انتصاراته على الصرب سنة (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م) أثناء الحرب الروسية التركية (١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م)[*]، ولد سنة (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م)، وتوفي سنة (١٣١٨هـ/١٩٠٠م)[4]، تسلم عثمان نوري ولاية الشام للمرة الأولى وهو برتبة مشير، ولكن لم تطل أيامه فيها، ونُقل بعدها إلى الحجاز[5].

ولايته الثانية كانت سنة (١٣١١هـ/١٨٩٣م) واستمر فيها حتى سنة (١٣١٢هـ/١٨٩٤م)[6]. وقد لقبه الحصني صاحب كتاب تواريخ دمشق بالأعرج. في زمنه نشأت الخلافات ما بين الموحدين ومأموري الحكومة، وذلك بسبب سوء تصرفهم في إداراتهم لشؤون الأماكن التي يسكنها الموحدين وتطورت الأمور حتى استلزم الأمر استخدام الجيش، فقام الوالي عثمان باشا نفسه بقيادته وقمع هذه الحركة وبكل

---

(١) صادف في عهده أن أحد رؤساء العدلية واسمه عبد الله أفندي الصباغ وهو من علماء طرابلس، قد قام بالتشكي والتجني عليه من قبل بعض وجهاء المدينة، فانتصر الوالي مصطفى عاصم باشا لهذا الموظف وأوصل الأمر إلى دار السلطنة واستحصل على أمر من قبلها خول بموجبه القيام بنفي هؤلاء الوجهاء إلى حماة، وفعلاً تم إبعاد كل من: علي أفندي الدالاتي وأحمد أفندي القوتلي وأحمد بك العظم وإسماعيل أفندي الغزي وسليم أفندي العمري وأبو الخير أفندي الحمصي، وبقوا خارج دمشق حتى خروج هذا الوالي عن دمشق. الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٢) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٣) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٤.

(*) مر ذكرها سابقًا بالتفصيل في الفصل الأول من البحث.

(٤) غربال، مرجع سابق، ج٢ ص ١١٨٨.

(٥) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

(٦) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٤.

قسوة وأعاد سيطرة الدولة العثمانية على المنطقة من جديد[1]. وعُرف عن هذا الوالي طمعه الشديد وخبثه، فكان لا يوفر طريقة أو وسيلة من أجل الحصول على الأموال من الناس بالرشوة أو غيرها، فالهدف الأوحد هو جمع المال، وسعى إلى نشر الخلافات والفرقة بين وجهاء المدينة وذلك خشية أن يتفق أحد الأطراف وينقلب عليه، حتى تحول الأمر لديه هاجسًا ووسواسًا يقض مضجعه، وبهذه الطريقة ضَمِنَ الأمان لنفسه من أي اتفاق من قبل الأهالي والوجهاء عليه، وكذلك ضمن لنفسه كرهًا شديدًا منهم[2].

١٠- إسماعيل كمال بك بالوكالة (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م)[3]:

ذكر عنه الحصني صاحب كتاب منتخبات تواريخ دمشق: "إنه لطيف اللقاء حسن السيرة ولم يكن في عهده شيء يستحق الذكر"[4].

١١- رؤوف باشا (١٣٠٨هـ/١٨٩٠م حتى ١٣١٠هـ/١٨٩٢م)[5]:

وهو الوزير الشهير في مصر والديار الشامية، عُرف عنه حبه للعلم والمعرفة وسعيه نحو إنشاء المدارس العالية وخاصة المدارس الدينية في الشام، فعمل على إحياء هذه المدارس وإرجاع أوقافها، وسعى إلى إنشاء كلية إسلامية تضم كبار علماء الشام وطلابها، وكأنه أراد أن ينشأ أزهرًا آخر في الشام، ولكن عدم توفر الأموال الكافية لإنشاء هذا المشروع وقف حائلاً دون تنفيذه[6]. وفي أيامه احترق الجامع الأموي[7].

---

(١) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٢) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٣) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٤) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٥) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٦) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٥.

(٧) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٤. وللتوسع انظر: المنجد، صلاح الدين، حريق الجامع الأموي أيام العثمانيين، دمشق، ط٢، ١٩٥٣، ص ٩، ١٠، ١١، ١٣، ١٤. والحصني، مرجع سابق، الباب الثامن، ص ١٠٣٦، ١٠٣٧.

١٢- نصوحي بك بالوكالة (١٣١٢هـ/١٨٩٤م)[1]:

لم يذكره الحصني، ذُكر فقط في كتاب صلاح الدين المنجد (ولاة دمشق في العهد العثماني) بأنه والٍ بالوكالة، وفي نفس السنة تسلم الوالي الذي يليه حاجي حسن رفيق باشا.

١٣- حاجي حسن رفيق باشا (١٣١٢هـ/١٨٩٤م حتى ١٣١٣هـ/١٨٩٥م):

وهو والي بغداد السابق، تم في عهده إنشاء دار للمعلمين لتخريج الأساتذة للتدريس في مدارس الحكومة، وتشكيل لواء الكرك[2] في عهده أيضًا انتفضت حركات الموحدين فأرسلت لهم الحكومة قوة عسكرية أخمدت هذه الحركات وأعادت السكينة إلى المنطقة[3].

حاول هذا الوالي جاهدًا جمع التبرعات من الأهالي وذلك من أجل ترميم الجامع الأموي الذي تعرض للحريق كما ذكرنا سابقًا وأشرف على هذا الأمر بنفسه. وفي زمنه تم فتح طريق الأربعين في جبل قاسيون إلى تربة الشيخ خالد النقشبندي[4]. كما تم في عهده تمديد الخط الحديدي ما بين مزيريب والشام ثم بين بيروت والشام، وطبعًا هذا الأمر سهل المواصلات ما بين هذه المدن فازدهرت الحركة التجارية ما بين الساحل ودمشق وفي المنطقة بشكل عام[5].

١٤- حسين ناظم باشا:

(تسلم ولاية الشام ثلاث مرات، الأولى: ١٣١٣هـ/١٨٩٥م، الثانية: ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م، الثالثة: ١٣٣٠هـ/١٩١١م)، وقد مر ذكره بالتفصيل في الفصل

---

(١) المنجد، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٢) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٣) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

(٤) الشيخ خالد النقشبندي (١١٩٠-١٢٤٢هـ=١٧٧٦-١٨٢٧م): خالد بن أحمد بن حسين، أبو البهاء ضياء الدين النقشبندي ا ـدي، صوفي فاضل، ولد في بلاد شهرزوز في قصبة قره طاغ، والمشهور أنه من ذرية عثمان بن عفان رضي الله عنه، رحل إلى الشام في أيام داود باشا والي العراق، توفي في دمشق بالطاعون. الزركلي، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٩٤.

(٥) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٦.

الأول (الفصل السياسي، فقرة: الوالي ناظم باشا).

١٥- شكري باشا (١٣٢٥هـ/١٩٠٧م حتى ١٣٢٧هـ/١٩٠٩م):

كان وزيرًا سابقًا في الدولة العثمانية، وعُرف عنه أنه كان لين العريكة سهل القياد ضعيف الإرادة بشوش الوجه يتأنى في أموره وكان مولعًا بمجالس الطرب[١].

في أيامه تم الانقلاب الدستوري الثاني في الدولة العثمانية على السلطان عبد الحميد الثاني الذي أدى إلى إنهاء حكمه، وكان ذلك سنة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ومنذ ذلك الوقت أصبح الحكم دستوريًا في البلاد، وبالنسبة لردات الفعل التي حصلت في دمشق نتيجة هذا الحدث، فقد قوبل هذا الأمر باحتفالات باهرة في دمشق واجتماعات وتظاهرات، تعبيرًا عن الفرح والسرور الذي أصاب البلاد والعباد، فقد أظهر والي دمشق المذكور يومئذ الثبات وعلو الهمة تجاه هذه الاجتماعات العظيمة التي حصلت والمظاهرات الكبيرة التي امتدت لثلاثة أشهر من قبل أهالي دمشق[٢].

أما عن الإنجازات التي حصلت في عهده فلم يكن هناك شيء يذكر سوى أمره بتقسيم البلدية إلى دائرتين وأمره بإنشاء الجسر الجديد المسمى بجسر الحرية عند جامع السليمانية في المرج الأخضر[٣].

نستنتج مما سبق أن الدولة العثمانية كانت تولي دمشق اهتمامًا كبيرًا ويظهر ذلك من خلال حرصها الدائم على تطبيقها لجميع القوانين والأنظمة الصادرة عنها خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والخاصة منها بالجهاز الإداري على هذه الولاية.

ويعود ذلك – برأي الباحث – إلى عدة أسباب أهمها: موقع مدينة دمشق وقربها من مركز السلطنة العثمانية، واحتلالها مركز الوسط بين عاصمة الدولة العثمانية الحاكمة والولايات العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية.

كما كانت ولاية دمشق محطة هامة على طريق الحج والذي كانت الدولة

(١) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٧٧.

(٢) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٨٠.

(٣) الحصني، مرجع سابق، ص ٢٨٠-٢٨١.

العثمانية توليه رعاية خاصة من قبلها، حيث كان ولاة الشام أنفسهم يشرفون على قوافل الحج وتستنفر البلاد كلها، بمواردها الاقتصادية والبشرية والإدارية من أجل تسيير أمور قافلة الحج الشامي والعناية بها.

ولا نستطيع أن نخفي الجانب الاقتصادي الهام الذي كانت تتمتع به دمشق، فدمشق ملتقى هام لكثير من التجار من البلاد العربية وحتى الأجنبية وبضائعها كانت تصل إلى جميع أصقاع المعمورة وتجارها كانت لهم علاقات وثيقة مع التجار الأجانب بمختلف جنسياتهم، وكل هذه الحركة التجارية ارتكزت على شبكة واسعة من المواصلات التي امتدت ما بين أهم المراكز التجارية في الإمبراطورية وكان لسكة الحديد الحجازي الذي كان لدمشق النصيب الأوفر من فوائد قيامه دور كبير في تنشيط الحركة الاقتصادية في البلاد. ولا نستطيع أن نغفل أن دمشق كانت ومازالت تتمتع بأشهر الأسواق التجارية العالمية وبذلك فقد فرضت دمشق نفسها على الإمبراطورية العثمانية وعلى سلاطينها وجعلت أنظارهم دائمًا وعنايتهم مركزة حول تطوير هذه المدينة والعمل على الاستفادة من مواردها بكل الوسائل.

ونظرًا لهذه الأهمية لمدينة دمشق فقد حرصت الدولة العثمانية على إرسال ولاة من كبار الوزراء ذوي المراتب العليا في الدولة لحكم هذه الولاية، وقد حددت صلاحياتهم بموجب القوانين الصادرة في فترة التنظيمات العثمانية، وبخاصة قانون نظام الولايات الصادر سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م وقانون إدارة الولايات العمومي الصادر سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧١م.

ولكن لُوحظ من خلال البحث كيف أن هؤلاء الولاة بالرغم من أهميتهم ومكانتهم العالية، فقد عمل السلاطين العثمانيون في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين على تغيرهم بشكل دوري، وخاصة في فترة السلطان عبد الحميد الثاني.

ففي كثير من الأحيان كان الوالي لا يبقى في الشام أكثر من سنة والبعض منهم كان لا يكمل السنة حتى بلغ عدد الولاة الذين تسلموا ولاية دمشق فترة السلطان عبد الحميد الثاني أربعة عشر واليًا خلال ما يقارب الثلاثين أو اثنتين وثلاثين سنة على الرغم من أن البعض من هؤلاء الولاة كان يتمتع بشخصية متميزة

حملت لدمشق أثناء حكمها عليها الكثير من الخير والإنجازات التي مازالت قائمة وتذكر حتى أيامنا هذه ومن أهمهم: مدحت باشا وناظم باشا. ولكن سياسة السلطان عبد الحميد الثاني المليئة بالخوف والشك بكل من حوله دفعته إلى الإطاحة بهؤلاء وإبعادهم عن البلاد، ربما خوفاً من أن تصبح لهم شرعية واسعة مؤيدة لهم في الشام هذه الشرعية ربما تدفعهم نحو التفكير بالانقلاب والاستقلال عن حكم وسيطرة السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية، ولم يخسر في هذه الظنون والشكوك سوى الشعب الدمشقي الذي لو قُدر لهؤلاء الولاة البقاء لربما كانت صورة دمشق قد تغيرت بشكل كبير في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

الخاتمة

يمكن أن نوجز أهم النتائج التي تم التوصل إليها:

ففي الفصل الأول نستطيع أن نقول: إنه كان لدمشق النصيب الأوفر من الحصول على ولاة مخلصين مجتهدين استطاعوا أن يقدموا خدمات كثيرة لهذه المدينة رفعت من شأنها ومن شأن أهلها، حيث كان لمدحت باشا دور بارز في تنشيط الروح القومية لدى أهل الشام.

وأما بالنسبة للحروب التي خاضها السلطان عبد الحميد الثاني في تلك المرحلة فقد انعكست بسلبياتها وإيجابياتها على دمشق حيث كانت دمشق ملجأً للهاربين المهجرين نتيجة هذه الحروب، فتشكلت على إثرها أحياء كاملة لهم منها حي المهاجرين الذي آوى مهاجري جزيرة كريت إثر الحرب اليونانية العثمانية.

أما الحياة النيابية لهذه المدينة فقد كان لأعيان دمشق تمثيل بارز في مجلس المبعوثان والعمومي في الآستانة، ولكن الأوضاع السياسية السيئة التي مرت بها الدولة العثمانية في تلك المرحلة انعكست بشكل كبير بما يخص الفئات والطوائف الصغيرة في دمشق وغيرها فمورس عليها الظلم والاضطهاد فهبت ثائرة في وجه حكامها، فما كان الرد من السلطان عبد الحميد الثاني إلا إعطاء الأوامر بقمع هذه الثورات والفتن فكانت النتيجة مذابح ذهبت ضحيتها الآلاف من هذه الفئات خاصة الأرمن.

أما الفصل الثاني: فأهم ما يمكن أن نلخصه فيه أنه كان لدمشق العناية الخاصة من قبل السلطان عبد الحميد الثاني بالطرق الصوفية ورؤسائها الذين قرب الكثير منهم، خاصة الطريقة الشاذلية اليشرطية حيث كان لشيخها محمود أبو الشامات المكانة الخاصة جدًا لدى السلطان عبد الحميد الثاني، بل إنه قال في مذكراته إنه كان تلميذ الشيخ أبو الشامات.

وقد رممت الكثير من المقامات والقبور للأولياء والصالحين في دمشق على يد الولاة العثمانيين في تلك المرحلة. وأما المسيحيون فقد أقصوا عن كثير من المناصب التي كانوا يشغلونها قبل هذه المرحلة وذلك بسبب رعاية الدول الأوربية لهم ووصياتها

عليهم وخوف الدولة العثمانية من تأثيرهم على البلاد ومقدراتها وذلك بتحريض من هذه الدول.

أما اليهود فقد استغلوا الظروف الدولية والمتغيرات التي حصلت في الدولة العثمانية في تلك المرحلة من أجل تحقيق أطماعهم وغاياتهم الاستعمارية والعمل على إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين فكانت زيارة هرتزل إلى السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠١م والتي عرض فيها على السلطان مبلغًا مقداره (٣٥) مليون ليرة ذهبية مقابل إباحة دخول اليهود إلى فلسطين في أي وقت والسماح لهم بإنشاء مستعمرة لليهود في القدس ولكن الجواب كان الرفض الشديد من قبل السلطان ولن ندخل هنا بنقاش حول الخلفية الحقيقية وراء هذا الرفض.

أما الفصل الثالث: فقد لوحظ فيه حرص العثمانيين على تطبيق القوانين الإدارية في ولاية دمشق والحرص على تغير الولاة سنويًا، ويمكن القول إن سبب ذلك يعود لإدراك السلطان عبد الحميد الثاني لأهمية هذه الولاية في تلك المرحلة الخطيرة من تاريخ الإمبراطورية، حيث كان أغلب الولاة صدوراً عظاماً أو وزراء سابقين، وكانت الأوامر تصل مباشرة من الآستانة إلى دمشق. وقد لوحظ كيف أن الأوامر السلطانية جعلت لكل إدارة دورها المستقل عن الأخرى مع الاحتفاظ بحق مراقبة شؤون الولاية من قبلها. وكان يقع على الوالي دور الإشراف والإدارة إلا أنه لم يكن يستطيع ممارسة صلاحياته الدستورية إلا بموجب فرمانات من السلطان وهذا الأمر حرم دمشق من كثير من الإصلاحات التي ربما كانت ستحصل لو أتيح لكثير من هؤلاء الولاة صلاحيات حقيقية في إدارة شؤون الولاية دون الرجوع إلى السلطان.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر:

١- القرآن الكريم

٢- أرسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، حققه: حسن السماحي سويدان، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠١.

٣- أرسلان، شكيب، حاضر العالم الإسلامي، ثلاث مجلدات، القاهرة، ١٣٥٢هـ=١٩٣٣م.

٤- آصف، يوسف بك، سلاطين آل عثمان، ت:بسام عبد الوهاب الجابي، دمشق، دار البصائر، بدمشق، ط٣، ١٩٨٥.

٥- آصف، يوسف بك، سلاطين بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم: د.محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، منشورات مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٥م.

٦- آغا العابد، حسن، (قطعة من تاريخه) حوادث سنة ١١٨٦هـ إلى ١٢٤١هـ، تحقيق: يوسف نعيسة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩.

٧- البارودي، فخري (١٨٨٧-١٩٦٦)، أوراق ومذكرات...، إعداد وتحقيق: دعد الحكيم، منشورات وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٩م.

٨- بدران، عبد القادر، منادمة الأطلال، ج١، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٥.

٩- البستاني، سليمان، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق: خالد زيادة، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٨، ط١.

١٠- جلاد، فيليب، القاموس العام للإدارة والقضاء، ٤مج، الإسكندرية، مطبعة بني لاغوداكي، ١٨٩٩.

١١- الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، ١٩٦٠م.

١٢- الحصني، محمد أديب آل تقي الدين، منتخبات تواريخ دمشق، قدم له: كمال

سليمان الصليبي، ٣ أجزاء، بيروت، ١٩٧٩، ط١.
١٣- الحكيم، يوسف، سوريا والعهد العثماني، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م.
١٤- ابن الحوراني، عثمان بن أحمد السويدي الدمشقي، زيارات الشام، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجابي، مكتبة الغزالي، دمشق، ط١، ١٤٠١هـ=١٩٩١م.
١٥- الدبس، يوسف، تاريخ سورية الديني والدنيوي، عشرة أجزاء، إشراف: نظير عبود، دار نظير عبود، ١٩٩٤.
١٦- الدمشقي، ميخائيل بريك، تاريخ الشام (١٧٢٠-١٧٨٢).
١٧- الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وصحبه، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
١٨- ريجنكوف، م، سورية ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر من خلال (مذكرات رحالة وتقارير علمية واقتصادية ووثائق قنصلية وسياسية وعسكرية) ت:يوسف عطا الله، مراجعة وقدم له: مسعود طاهر، بيروت، دار النهار، ١٩٩٣م.
١٩- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ٨ أجزاء، بيروت، ١٩٩٩م، ط١.
٢٠- الزوبي، محمد، الطرق الصوفية (ظروف النشأة وطبيعة الدور)، دار الأهالي، دمشق، سورية، ط١، ٢٠٠٤م.
٢١- السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شريبة، مصر، ط٢، ١٣٨٩هـ=١٩٦٩م.
٢٢- سميليا نسكايا، إيرنا، سورية ولبنان وفلسطين في النصف الأول من القرن التاسع عشر من خلال (مذكرات رحالة وتقارير علمية واقتصادية ووثائق قنصلية سياسية وعسكرية) ت:يوسف عطا الله، مراجعة وقدم له: مسعود طاهر، بيروت، دار النهار، ١٩٩٣م.
٢٣- الشطي، محمد جميل، أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، ١٩٧٢م، ط١، ١٩٤٦م.
٢٤- الشهبندر، عبد الرحمن، مذكرات عبد الرحمن الشهبندر، تحقيق: دعد

الحكيم، وزارة الثقافة.
٢٥- الصيادي، محمد عز الدين بن حسين عربي كاتبي، الروضة البهية في فضائل دمشق المحمية، دار الفارابي للمعارف، دمشق، ط١، ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م.
٢٦- العبد، حسن آغا، قطعة من تاريخه حوادث سنة (١١٨٦هـ/١٢٤١هـ)، تحقيق: يوسف جميل نعيسة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٩م.
٢٧- العظم، حقي، تاريخ حروب الدولة العثمانية مع اليونان، ط١، مطبعة الترقي، بمصر، ١٩٠٢م.
٢٨- العظم، خالد، مذكرات خالد العظم، ٣ أجزاء، دمشق، ٢٠٠٥.
٢٩- العظمة، عبد العزيز، مرآة الشام، دار الفكر، دمشق، ط٢، ٢٠٠٢م.
٣٠- الفرفور، محمد عبد اللطيف صالح، أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، دار الملاح، ودار حسان، دمشق، ط١، ١٤٠٨هـ=١٩٨٧م.
٣١- فريد بك، محمد، تاريخ الدولة العلية، دار النفائس، تحقيق: د.إحسان حقي، ط٩، ٢٠٠٣.
٣٢- القاسمي، سعيد، قاموس الصناعات الشامية، تحقيق: ظافر القاسمي، ج٢، دمشق، دار طلاس بدمشق، ط١، ١٩٨٨م.
٣٣- كرد علي، محمد، خطط الشام، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ٦ أجزاء.
٣٤- محمد بن طولون، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، جزءان، تحقيق: أحمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.
٣٥- محمد علي باشا، الرحلة الشامية، سلسلة التواريخ والرحلات، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م.
٣٦- مدحت باشا، مذكرات مدحت باشا، تعريب: يوسف كمال حتاتة، مصر، ١٩٠٦، ط١.
٣٧- المرادي، محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، تحقيق: أكرم حسن العلبي، ٤ مجلدات، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.
٣٨- مردم بك، خليل، أعيان القرن الثالث عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٧١م، ط٢، ١٩٧٧م.

٣٩- المنجد، صلاح الدين، حريق الجامع الأموي أيام العثمانيين، ط٢، دمشق، ١٩٥٣م.

٤٠- المنجد، صلاح الدين، ولاة دمشق في العهد العثماني، دمشق، ١٩٤٩.

٤١- نوفل، نعمة الله، الدستور العثماني، مجلدان، بيروت، المطبعة الأدبية ببيروت، ١٣٠١هـ/١٨٨٣م.

المراجع

١- أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي، أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ٦ أجزاء، ترجمة: أحمد علي أبو درة، لويس إسكندر، مراجعة: أحمد عزت عبد الكريم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٧م.

٢- إبراهيم، سعد الدين، الملل والنحل، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤.

٣- أبو النصر، عمر، سورية ولبنان في القرن التاسع عشر، ط٢، بيروت، د.ت.

٤- الأرناؤوط، محمد، دراسات ووثائق حول الدفشرمة، ط١، ١٩٩١م، قدسية للنشر والتوزيع إربد، عمان.

٥- إسماعيل، حلمي محروس، تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، جامعة الإسكندرية، مؤسسة الشباب بالإسكندرية، ١٩٧٧م.

٦- أطلس العالم الكبير، بيروت، لبنان، ١٩٩٩م.

٧- أمين، سعيد، الثورة العربية الكبرى، ثلاثة مجلدات، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر، د.ت.

٨- أنطونيوس، جورج، يقظة العرب، قدم له: نبيه أمين فارس، ترجمة: د.ناصر الدين الأسد، د.إحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٢.

٩- أنيس، محمد، الدولة العثمانية والمشرق العربي (١٥١٦هـ-١٩١٤هـ)، القاهرة، مكتبة أنجلو المصرية، ط١، ١٩٩٣م.

١٠- أوغلي، إحسان كمال الدين، الدولة العثمانية (تاريخ وحضارة)، نقله إلى العربية: صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية،

استانبول، ١٩٩٩م، مجلدان.
١١- أوغلـي، عائشـة عثمـان، والـدي السـلطان عبـد الحميـد الثـاني (مـذكـرات)، ترجمة: صالح سعداوي صالح، ط١، ١٩٩١م، دار البشير، عمان، الأردن.
١٢- إينالجيـك، خليـل، تـاريخ الدولـة العثمانيـة مـن النشـوء إلى الانحـدار، ترجمـة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، د.ت، د.ط.
١٣- بدوي، عبد الرحمن، تـاريخ التصـوف الإسـلامي مـن البداية حتـى القـرن الثاني عشر، الكويت، ط١، ١٩٧٥م.
١٤- البرجاوي، أحمد، الإمبراطورية العثمانية، بيروت، ١٩٩٣.
١٥- بركـات، مصطفى، الألقاب والوظـائف العثمانيـة، دار غريـب، القـاهرة، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.
١٦- بـرو، توفيـق، العـرب والـترك في العهـد الدسـتوري العثمـاني (١٩٠٨-١٩١٤م)، دمشق، دار طلاس، ١٩٩١م.
١٧- بروكلمـان، كـارل، تـاريخ الشـعوب الإسـلامية، ترجمـة: نبيـه أمـين فـارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٦٨م.
١٨- البسـتاني، بطـرس، دائـرة معـارف البسـتاني، دار المعرفـة، بـيروت، ١٨٧٥م ١١ مجلد.
١٩- بني المرجة، موفق، صحوة الرجل المـريض، الكـويت، مؤسسـة صـقر للطباعـة والنشر، بالكويت، ١٩٨٤م.
٢٠- بيهم، محمد جميل، الحلقة المفقودة في تاريخ العـرب والـترك، مطبعـة مصـطفى البابي الحلبي، مصر، ط١، ١٩٥٠م.
٢١- جـب، هـاملتون، المجتمـع الإسـلامي والغـرب، ٢ج، ت: أحمـد عبـد الـرحيم مصطفى، القاهرة، دار المعارف بالقاهرة، د.ط، ١٩٧١م.
٢٢- حاطوم، نور الدين، تاريخ عصر النهضة الأوربية، دار الفكـر الحديث، لبنان، ١٩٦٨.
٢٣- الحـافظ، فـؤاد حسـن، تـاريخ الشـعب الأرمـني منـذ البداية حتـى اليـوم، القـاهرة، ١٩٩٦م.

٢٤- الحافظ، محمد مطيع، وأباظة، نزار، تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، قدم له: د.شكري فيصل، دمشق، دار الفكر، ط١، ١٤٠٦هـ=١٩٨٦م.

٢٥- حتي، فيليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ٢ج، بيروت، دار الثقافة، ط٢، ١٩٨٣م.

٢٦- حسون، علي، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، ط٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م.

٢٧- الحكيم، دعد، الأوامر السلطانية لولاية دمشق في تعيين القضاة والولاة والموظفين من خلال ترجمة السجلات المحفوظة في مركز الوثائق التاريخية بدمشق للأعوام (١٢٣٦-١٢٣٩هـ=١٨٢٠-١٨٢٣م)، منشورات وزارة الثقافة بدمشق، ٢٠٠٢م.

٢٨- حلاق، حسان، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩، دار النهضة العربية، بيروت، ط٢، ١٩٩٩.

٢٩- حليم بك، إبراهيم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، بيروت، ١٩٨٧.

٣٠- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م، خمسة أجزاء.

٣١- حوراني، ألبرت، مجموعة الشرق الأوسط الحديث، دمشق، دار طلاس بدمشق، "١، ١٩٩٦م.

٣٢- خطار، محمد يوسف، السيرة المرضية في ترجمة مؤسسي الطرق الصوفية، المركز العربي بدمشق، ط١، ١٩٩٨م.

٣٣- خفاجي، محمد عبد المنعم، التصوف في الإسلام وأعلامه، الإسكندرية، دار الوفاء، ط١، ٢٠٠٢م.

٣٤- خوري، فيليب، أعيان المدن والقومية العربية (سياسة دمشق ١٨٦٠-١٩٢٠م)، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٩٣م، ط١.

٣٥- خير، صفوح، غوطة دمشق، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بدمشق، ١٩٦٦م.

٣٦- دائرة المعارف الإسلامية
٣٧- دروزة، محمد عزة، حول الحركة العربية الحديثة تاريخ ومذكرات، ستة أجزاء، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٤٩م.
٣٨- الدسوقي، محمد كمال، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، د.ط، ١٩٧٦م.
٣٩- رافق، عبد الكريم، العرب والعثمانيون (١٥١٦-١٩١٦)، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٩٣، ط٢.
٤٠- رافق، عبد الكريم، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨٥م.
٤١- زكريا، وصفي، الريف السوري محافظة دمشق، جزءان، المطبعة العمومية، دمشق، ١٩٧٥.
٤٢- س.موستراس، المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: عصام محمد الشماط، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.
٤٣- سلطان، علي، تاريخ سورية في أواخر الحكم التركي (١٩٠٨-١٩١٨)، دراسة اجتماعية واقتصادية وثقافية، دمشق، ١٩٩١م.
٤٤- شقيرات، أحمد صدقي، تاريخ الإدارة العثمانية في شرق الأردن (١٨٦٤-١٩١٨)، ط١، الأردن، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
٤٥- الشناوي، عبد العزيز، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، المكتبة الأنجلو المصرية، ٤ أجزاء، ١٩٧٩م.
٤٦- الشهابي، قتيبة، مشيدات دمشق ذوات الأضرحة وعناصر الجمالية، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٥م.
٤٧- شيلشر، ليندا، دمشق في القرنين الثاني عشر والتاسع عشر، ت: عمر الملاح ودينا الملاح، مراجعة: عطاف مارديني، دمشق، دار الجمهورية بدمشق، ط١، ١٩٨٨م.
٤٨- صابان، سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م.

٤٩- الصباغ، ليلى، المجتمع العربي السوري في مطلع العهد العثماني، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٧٣م.

٥٠- الصلابي، علي محمد محمد، الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

٥١- طربين، أحمد، تاريخ المشرق العربي المعاصر، ط٥، ١٩٩٧م، منشورات جامعة دمشق.

٥٢- عامر، محمود علي، تاريخ الماسونية ويهود الدونمة دراسة وثائقية في الأصول والأهداف، دار الصفدي، ط١، ٢٠٠٢م.

٥٣- عامر، محمود علي، الدولة العثمانية تاريخ ووثائق، ط١، ٢٠٠١م، دار الرحاب، دمشق.

٥٤- عامر، محمود، الدولة العثمانية تتهم سلاطينها، دار الصفدي، دمشق، ٢٠٠٣م.

٥٥- عامر، محمود، قاموس اللغة العثمانية، دار الصفدي، دمشق، ٢٠٠٢م.

٥٦- عبد العزيز، عمر، تاريخ المشرق العربي (١٥١٦-١٩٢٢م)، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

٥٧- عبد العزيز، محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤)، تقديم: أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، مصر، القاهرة، ١٩٦٩م.

٥٨- عبده، سمير، اليهود السوريون، منشورات حسن ملص، دمشق، ٢٠٠٣م.

٥٩- عربش، سمير، أرمينيا أرض وشعب، مؤسسة دار الريحاوي، ١٩٩١م.

٦٠- عطية، أحمد، القاموس السياسي، بيروت، ١٩٦٠.

٦١- العلاف، أحمد حلمي، دمشق في مطلع القرن العشرين، تحقيق: علي جميل نعيسة، ط٢، دمشق، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٦٢- العلبي، أكرم، خطط دمشق، دمشق، دار الطباع، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

٦٣- العنْزاوي، قيس جواد، الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، مركز دراسات الإسلام والعالم، الدار العربية للعلوم، ط١، ١٩٩٤م.

٦٤- غرايبة، عبد الكريم، سورية في القرن التاسع عشر (١٨٤٠-١٨٧٦م)، معهد

الدراسات العربية العالمية، القاهرة، ١٩٩٢م.

٦٥- غرايبة، عبد الكريم، مقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠-١٩١٨، ٢ج، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٩٦٠م.

٦٦- غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، جزءان، دار البعث، ١٩٦٥م.

٦٧- فارس، سليم، كنْز الرغائب في منتخبات الجوائب، مطبعة الجوائب بالآستانة العلية، ط١، ١٩٢٥م.

٦٨- الفاروقي، إسماعيل راجي، والفاروقي، لوس لمياء، أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

٦٩- قدامة، أحمد، معالم وأعلام في بلاد العرب، القسم الأول، القطر السوري.

٧٠- قساطلي، نعمان، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، لبنان، دار الرائد العربي، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٧١- كوثراني، وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام، ، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

٧٢- لوتسكي، فلاديمير، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار التقدم، موسكو، ترجمة: عفيف البستاني، ١٩٧١م.

٧٣- مارينو، بريجيت، حي الميدان في العصر العثماني، ترجمة: ماهر الشريف، دار المدى، دمشق، ط١، ٢٠٠٠.

٧٤- مبيض، عامر رشيد، موسوعة الثقافة السياسية الاجتماعية الاقتصادية العسكرية، دار المعارف، حمص، سوريا، ط١، ٢٠٠٠م.

٧٥- محمود، عبد الحليم، أبو الحسن الشاذلي، دار الإسلام، القاهرة، ١٩٦٧م.

٧٦- مختار باشا، محمد، التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية، تحقيق: د.محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسة والنشر، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، جزءان.

٧٧- مختارات من القوانين العثمانية، ط١، بيروت، دار الحمراء للطباعة، ١٩٩٠.

٧٨- مدور، مروان، الأرمن عبر التاريخ، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.

٧٩- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، دار الشروق، ط٢، بيروت، ١٩٩٣م.
٨٠- من هم في العالم، إصدار مكتب الدراسات السورية والعربية، ج١، سنة ١٩٧٥.
٨١- المنجد في الأعلام،
٨٢- الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٩٦م، ٢٤ جزء.
٨٣- الموسوعة العسكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م، ٤ أجزاء.
٨٤- موسى باشا، عمر، قطب العصر (عمر اليافي)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٣م.
٨٥- نعيسة، يوسف، مجتمع مدينة دمشق في الفترة ما بين (١١٨٦-١٢٥٦هـ=١٧٧٢-١٨٤٠م)، دار طلاس، دمشق، ط١، ١٩٨٦م، جزءان.
٨٦- وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، دار الفكر، بيروت، ١٠ أجزاء، ١٩٧٩م.
٨٧- يحيى، جلال، العالم العربي الحديث، دار المعارف، بمصر، ١٩٦٦.

المقالات

١- رمزي، محمود، علاقات سورية التجارية، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٤٩ و٥٠، جامعة دمشق، آذار، حزيران، ١٩٩٤م.
٢- طعمة، رامز، ملكية الأرض والسلطة السياسية في دمشق (١٨٥٨-١٩٥٨)، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٤٣ و٤٤، دمشق، أيلول وكانون الأول، ١٩٩٢م.
٣- عوض، عبد العزيز، نظام ملكية الأرض في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية من عام ١٨٣٩-١٩١٤م، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٣٥ و٣٦، دمشق، آذار، حزيران، ١٩٩٠م.

٤- فطر، سليمان، المولوية يرقصون السيما على أنغام جلال الدين الرومي، مقالة في مجلة العربي، العدد ٣٤٨، شباط، ١٩٧٠م.
٥- نعيسة، يوسف، ملكية الأرض والعلاقات الزراعية في بلاد الشام في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٣٥ و٣٦، دمشق، آذار، حزيران، ١٩٩٠م.

الرسائل والأطروحات الجامعية

١- النايف، حسام، لواء اسكندرونة من ١٨٧٦-١٩٣٩م، دراسة اجتماعية واقتصادية، رسالة ماجستير بإشراف: أ.د.محمود عامر، عام ٢٠٠٠م، غير منشورة.
٢- يوسف، إلهام، الأسرة الحلبية (١٨٠١-١٨٤٠) رسالة ماجستير بإشراف أ.د.يوسف نعيسة، جامعة دمشق، عام ٢٠٠٠م، غير منشورة.

الدوريات

الدوريات القديمة:	الدوريات الحديثة:
١- الاعتدال.	١- مجلة الأبحاث في الجامعة الأمريكية، ١٩٩٠.
٢- البشير.	٢- مجلة الأجيال، ١٩٨٢.
٣- الجوائب.	٣- مجلة دراسات تاريخية ١٩٩٠، ١٩٩٢، ٢٠٠٢.
٤- الشعب.	٤- مجلة العربي، ١٩٨٠، ١٩٨١، ١٩٨٢، ١٩٨٧، ١٩٨٩.
٥- العمران.	٥- مجلة الفيصل ١٩٨١، ١٩٨٢، ١٩٨٤.
٦- الفرات.	٦- مجلة المعرفة ١٩٨٧، ١٩٨٨.
٧- المشرق.	

فهرس

مقدمة.......... ٥
دراسة نقدية لأهم المصادر التي اعتمدت عليها.......... ١١
الفصل الأول.......... ١٩
الحياة السياسية في دمشق في ظل الإدارة الحميدية.......... ١٩
أولاً: ولاية مدحت باشا:.......... ٢١
أهم أعماله:.......... ٢٣
ثانياً: ولاية حسين ناظم باشا:.......... ٢٥
أهم أعمال ناظم باشا:.......... ٢٦
ثالثاً: الامتيازات الأجنبية والمعاهدات التجارية:.......... ٣٠
رابعاً: الحرب الروسية العثمانية (١٢٩٣هـ-١٨٧٦م):.......... ٣٧
أ- مشكلة الصرب والجبل الأسود:.......... ٣٨
ب- إعلان الحرب وأهم مجرياتها:.......... ٤٢
أهم أحداثها:.......... ٤٢
معاهدة سان استفانو /٣ آذار / ١٨٧٨ م/:.......... ٤٦
خامساً: الحرب اليونانية العثمانية (١٣١٤هـ/١٨٩٧م):.......... ٥٠
سادساً: مجلس المبعوثان:.......... ٥٣
الدستور:.......... ٥٣
الدستور القديم:.......... ٥٤
الدستور الجديد (القانون الأساسي):.......... ٥٦
المجلس العمومي:.......... ٥٩
أ - تأليف مجلس الأعيان:.......... ٥٩
ب - تأليف مجلس المبعوثان:.......... ٦٠
سابعاً: أهم الثورات والحركات القومية في تلك المرحلة:.......... ٦٤
أ - فتنة الأرمن:.......... ٦٦
ب - إرهاصات وأحداث الفتنة:.......... ٦٨
ج - المذابح الأرمنية في العهد الحميدي:.......... ٦٩
د- ثورة الموحدين:.......... ٧٢
ثامناً - الأحزاب السياسية التي ظهرت في تلك المرحلة:.......... ٧٧
أ- جمعية الاتحاد والترقي:.......... ٧٨
أهدافها وبرنامجها السياسي:.......... ٧٩
ب- جمعية الإخاء العربي العثماني:.......... ٨١
أهدافها:.......... ٨٢
ج- جمعية بيروت السرية:.......... ٨٣
أهدافها:.......... ٨٣
الفصل الثاني.......... ٨٧
الحياة الدينية في دمشق في ظل الإدارة الحميدية.......... ٨٧
الحياة الدينية في دمشق في ظل الإدارة الحميدية.......... ٩١
أولاً: أهم الطرق الصوفية ونشأتها:.......... ٩٢
أ- أولى الفرق الصوفية في الدولة العثمانية:.......... ٩٣
ب- الطرق الصوفية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر وتطورها.......... ٩٥

١- الطريقة المولوية: ٩٥
٢- الفرق الصوفية الجديدة في الدولة العثمانية: ٩٦
* الطريقة البيرامية: ٩٧
* الطريقة القادرية: ٩٧
* الطريقة الخلوتية: ٩٧
* الطريقة النقشبندية: ٩٨
* الطريقة البكتاشية أو البكطاشية: ٩٨
ج- الطرق الصوفية في مدينة دمشق في أواخر العهد العثماني: ١٠١
١- الطريقة النقشبندية: ١٠٥
٢- الطريقة الخلوِّتية: ١٠٩
٣- الطريقة القادرية: ١١٢
٤- الطريقة المولوية: ١١٥
٥- الطريقة الرفاعية: ١١٨
٦- الطريقة الشاذلية: ١٢١
ثانياً- التكايا والزوايا والربط: ١٢٥
أهم التكايا: ١٢٨
١- التكية السليمية: ١٢٨
٢- التكية السليمانية: ١٢٨
٣- التكية المولوية (المولويخانة): ١٢٩
٤- التكية النقشبندية: ١٣٠
٥- تكية شمسي أحمد باشا: ١٣٠
٦- تكية خالد أبي بهاء ضياء الدين النقشبندي الدمشقي: ١٣٠
الزوايا والربط: ١٣٠
أهم الزوايا الموجودة في مدينة دمشق حتى أواخر العهد العثماني: ١٣١
الزوايا في القرن (العاشر - الحادي عشر - الثاني عشر - الثالث عشر - الرابع عشر) ١٣٢
١- الزاوية السعدية الجباوية (٩١٤هـ/١٥٠٨م): ١٣٢
٢- الزاوية الصمادية (٩٣٢هـ/١٥٢٥م): ١٣٣
٣- الزاوية العمرية (٩٢١هـ/١٥١٥م): ١٣٤
٤- زوايا الطريقة الشاذلية: ١٣٤
٥- زوايا الطريقة الخلوتية: ١٣٥
٦- أما الطريقة المولوية: ١٣٦
٧- وكان للطريقة الرفاعية: ١٣٦
ثالثاً - مقامات الأولياء والصالحين في مدينة دمشق ومواقعها: ١٣٨
أ - قبور الأنبياء: ١٣٩
ب - قبور الصحابة: ١٤٢
ج - قبور الأولياء والصالحين: ١٤٣
رابعاً - المسيحيون في مدينة دمشق: ١٤٥
وبالنسبة لأشهر الطوائف المسيحية في مدينة دمشق فهي: ١٤٥
١- طائفة الروم الأرثودكس: ١٤٥
٢- الروم الكاثوليك: ١٤٧
٣- السريان واليعاقبة والكاثوليك: ١٤٨
٤- الأرمن: ١٤٨
٥- الموارنة: ١٤٩
٦- البروتستانت: ١٥٠

خامساً - اليهود في مدينة دمشق: ١٥١
سكنهم وأحياؤهم وأهم الكنس اليهودية: ١٥٣
الحياة الاجتماعية لليهود في دمشق في القرن التاسع عشر: ١٥٦
الفصل الثالث ١٦٣
الجهاز الإداري في مدينة دمشق في عهد الإدارة الحميدية ١٦٣
الجهاز الإداري في مدينة دمشق ١٦٥
أولاً - الوالي: ١٦٦
١- وظائف واختصاصات الوالي في المسائل المالية: ١٦٩
٢- وظائف الوالي في أمور المعارف والنافعة: ١٧٠
٣- وظائف الوالي في أمور الضابطة: ١٧٠
٤- وظائف الوالي في الأمور الجزائية والحقوقية: ١٧١
ثانيًا - أركان الولاية: ١٧٢
أ- معاون الوالي: ١٧٢
ب- الدفتردار: ١٧٣
ج- المكتوبجي: ١٧٥
د- القاضي: ١٧٧
كيفية إجراء المحاكمات في الولاية: ١٨٣
قضاة دمشق في تلك المرحلة: ١٨٦
ثالثًا: مجلس إدارة الولاية: ١٩٠
اختصاصات مجلس الولاية: ١٩٥
أولاً: الأمور الإدارية: ١٩٦
ثانياً: الدعاوى الإدارية: ١٩٧
رابعاً: المجلس العمومي: ١٩٨
خامسًا: المجلس البلدي: ٢٠٠
اختصاصات مجلس البلدية: ٢٠١
عائدات المجلس ومصروفاته: ٢٠٤
سادسًا: الدوائر المهمة التي حددها الدستور في مركز الولاية: ٢٠٦
١- مدير الأمور الأجنبية: ٢٠٦
٢- مدير المعارف: ٢٠٧
٣- مدير الزراعة والتجارة: ٢٠٨
٤- مدير الدفتر الخاقاني: ٢٠٩
٥- مأمور الأملاك والنفوس: ٢١٠
٦- مدير الأوقاف: ٢١١
٧- بك آلاي أو (آلاي بك): ٢١٣
٨- مدير النافعة: ٢١٣
سابعاً: الولاة الذين تعاقبوا على مدينة دمشق في تلك المرحلة: ٢١٤
الخاتمة ٢٢٥
قائمة المصادر والمراجع ٢٢٧